

جان بول دوبوا



جائزة
غونكور
2019

لايسكن الناس
جميعهم العالم بالطريقة ذاتها

مكتبة



ترجمة: كامل العامري

لا يسكن الناس جميعهم
العالم بالطريقة نفسها



Author: **Jean-Paul Dubois**	اسم المؤلف: جان بول دوبوا
Title: **Tous les hommes n'habitent pas le monde de la même façon**	عنوان الكتاب: لا يسكن الناس جميعهم العالم بالطريقة نفسها
Translated by: **Kamel A. Alamiri**	ترجمة: كامل العامري
P. C .: **Al-Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2021**	الطبعة الأولى: **2021**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
+ 964 (0) 770 2799 999   + 964 (0) 780 808 0800   + 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس
Beirut: Bchamoun - Schools Street
+ 961 706 15017   + 961 175 2617   + 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street
+ 963 11 232 2275   + 963 11 232 2276   + 963 11 232 2289   ص.ب: 8272

جان بول دوبوا

لا يسكن الناس جميعهم العالم بالطريقة نفسها

ترجمة : كامل العامري



مقدمة
عالم مأساوي



-1-

عالم دوبوا عالم مأساوي، وعنيف، وحياة غير عادلة (الموت المبكر، والزنزانة بحجم 6م^2، والعزلة) عالم من الفشل والضياع والندم عبر سارد يدعى بول هانسن، الذي يرى أن هناك طرقاً كثيرة لا تُحصى للفشل في الحياة. يعمل كحارس عمارة، ويعيش حياة عادية وهانئة في مونتريال بكندا دون مشكلات، إلى أن يقترف جريمة، ويدخل السجن، ويقتسم الزنزانة مع شخص، يُعد من عتاة المجرمين.

لكن السخرية ليست بعيدة. عندما نكتشف سلسلة هائلة من الشخصيات التي تحيط ببول: والده القس الذي فقد إيمانه، ووالدته البالغة من العمر ثمانية وستين عاماً، والتي تقاتل من أجل عرض فيلم (الحلق العميق) في صالتها السينمائية (بيت الفن)، التي ورثتها عن والديها، وزوجته وينونا التي تحلق بطائرتها. وعلى وجه الخصوص، السجين الفظ هورتون، زميله في الزنزانة، المتهم بالقتل، وهو الرجل ونصف الرجل الذي ينهار بمجرد حلاقة شعره.

تبدو السخرية أحياناً بمنزلة الترياق لمواجهة قسوة الحياة، فضلاً عن الحنان البشري أيضاً. عمل بول مشرفاً على مبنى كبير، مدة 20 عاماً، كان رجلاً يقوم بكل شيء، كحارس ومسؤول صيانة، وهي وظيفة لا تترك له سوى القليل من الوقت، لكنه مارسها بلطف وباحترام مع الآخرين، وكان

مستعداً دائماً لمحبة الناس والمحافظة على أرواحهم، ومساعدة الأرامل والعجائز في محنتهن.

حتى اليوم الذي يتغير فيه كل شيء. يكشف جان بول دوبوا في وقت متأخر من القصة أسباب سجن بول. ومن هنا تتحرك أحداث الرواية في جو حزين جداً، وتسير بشكل تصاعدي في نطاق فلسفي تقريباً. يصبح هذا المبنى الذي عمل فيه بول، كناية عن عالمنا الحالي. ولا يتطلب الأمر الكثير، إذ يكفي وصول مدير متلاعب واستبدادي، حتى تختفي حلاوة العيش في مجتمع منسجم مع نفسه، ويحل محله عالم تعسفي وبيروقراطي وشمولي تقريباً.

لم يكن بول من هذا العالم. ولن يكون. ومن ثم، فإن المؤلف يؤلف صورة جانبية قلمية رائعة تشيد بالطموح للحرية، مما يزيد من رفض الخضوع لأي شيء غير الأخلاق الشخصية المبنية على الإنصاف والعدل. وبول وحيد ولكنه يستحق ذلك. إنه يجد عزاءً في حوار حيوي جداً، مع أشباح ماضيه التي يستحضرها قدر استطاعته.

هذه الرواية تثير الشعور بالارتياح لتحرير الإنسان من طوفان الوهم. على الرغم من الحزن والأسى الذي عانت منه شخصياتها، وهي تروي قصة السقوط، لكن ما تشيعه هو الكثير من المواقف النبيلة، والمودة الإنسانية التي تتمتع بها هذه الشخصيات.

-2-

يبدو أن الترجمة دائماً تطرح إشكالاتها، فيما يخصنا نحن القراء في محيطنا العربي، وهي إشكالات نابعة من التفاوت الثقافي بيننا وبين الآخر، ولا أعتقد أن حلها قريب المنال، فنرى على سبيل المثال أن العديد من الكتاب يكتفي بالمختصرات، وهو يعلم أنها في متناول القارئ الأوروبي، ولا يبذل عناء لمعرفتها، ومن هنا تلقى المسؤولية على عاتق المترجم، الذي يلجأ في كثير من الأحيان إلى وضع الهامش المعرفي المناسب، أو يضيفها في متن النص، حتى تأتي منسجمة مع السياق، ولا تحدث خللاً سردياً، وفي ضوء ذلك لا يصبح المترجم مترجماً لنص لا يفهمه القارئ العربي، بقدر

ما يصبح مترجماً وباحثاً في الوقت ذاته. ومن هنا كان لابد لي في ترجمة هذه الرواية، من العودة إلى الكاتب نفسه، ومحاورة عدد من الأصدقاء في إشكالات، كان الروائي إيحائياً فيها، فضلاً عن استخدام لغات أخرى في المتن غير اللغة التي كُتبت فيها الرواية، وأخص بالذكر هنا الأصدقاء: جمال الجلاصي، والدكتورة حنان جنان من تونس، ويخلف محمد من الجزائر، والدكتورة عواطف السعدي من العراق. وفيولين فوكون من دار نشر أوليفييه الفرنسية، التي أصدرت هذه الرواية، وحازت على جائزة غونكور للعام 2019. فلهم جميعاً كل الشكر والتقدير.

كامل عويد العامري

إلى هيلين،

إلى تسوباكي وآرثر ولوي.

إلى فنسان لانديل، الذي أفتقده.

إلى ذكرى جان ميشيل تاراسكون وميشيل رامونيه.

كل مشاعر مودتي إلى جنفييف وكليروديدييه.

شكري العميق لسيرج أسيلان لمساعدته الحميمة، وخبرته الثمينة.

محبتي لفريدريك، والعمر المديد لأويتا.

إخلاصي لباسكال، الرجل المهذب من كيبك، وغي، سائق السيارة عبر كندا.

«كل هـذا يذكرنـا بالأيـام التي ليس فيها شـكل أو اتجـاه، وليس فيها شـيء يعيـش أو يحيـا، وليس فيها شيء له معنى».

- روزالاند كراوس

«كان علـيّ أن أنسـى هـذا اليوم. لقد خسـرت فيه عشـرة دولارات فـي مضمـار السـباق. يـا له مـن أمر عقيـم. كان مـن الأفضـل أن أدس عضوي فـي فطيرة مغمسة بشراب القيقب».

- شارل بوكوفسكي، عن الكتابة

سجن النهر

كان الثلج يتساقط منذ أسبوع. ومن النافذة أشاهد الليل وأستمع إلى البَرد. هنا في الداخل يثير صخباً. صخباً غريباً وبغيضاً، مثيراً للاعتقاد أن المبنى قد وقع تحت قبضة الجليد، يشكو شكوى مؤلمة كما لو كان يعاني، وهو يتصدع تحت تأثير الانكماش. السجن في هذه الساعة نائم. بعد مدة من الزمن، ولما كنا اعتدنا على عملية تمثيله الغذائي، يمكننا أن نسمعه يتنفس في الظلام مثل حيوان هائل، يسعل أحياناً، بل ونسمع كيف يبتلع ريقه. هذا السجن يبتلعنا، ويهضمنا، ونحن منكمشون في بطنه، قابعون في مطاوي أمعائه المرقمة، بين تشنجات معدية، ننام ونعيش قدر المستطاع.

يقع سجن مونتريال، المعروف باسم سجن بوردو، لأنه بني على الأراضي السابقة لحي بهذا الاسم، في رقم 800 شارع غوين ويست، على حافة نهر بريري. فيه 1357 محتجزاً. أُعدم منهم 82 شنقاً حتى الموت حتى عام 1962. في السابق، وقبل بناء عالم الحجر هذا، كان يفترض أن يكون المكان رائعاً، بما كان ضرورياً من أشجار البتولا، وأشجار القيقب والسماق الخلّية، والأعشاب الطويلة المستلقية كممرات للحيوانات البرية. أما اليوم، فإن الفئران والجرذان هي الحيوانات الوحيدة التي تعيش في هذه المنطقة. وبما أن طبيعتها صغيرة المظهر، فقد عادت إلى السكن في هذا العالم المغلق، الذي تأسس على معاناة حبيسة. يبدو أنها مرتاحة تماماً للاحتجاز، ولم تتوقف مستعمراتها عن التوسع في جميع أجنحة المباني. في الليل، نسمع القوارض، وهي تجول في الزنزانات والممرات بوضوح. ولكي نمنع وصولها، قمنا بلف الصحف والملابس القديمة، ووضعها تحت الأبواب أو أمام فتحات التهوية. ولكن دون جدوى. فهي تمر، وتزحف، وتتسلل وتفعل ما تفعله.

يسمى نمط الزنزانة التي أعيش فيها بـ «الكوندو»، مما يعني «شقة». هذه المساحة التي خلع عليها هذا المصطلح الساخر، لأن لها سطحاً أكبر بقليل من النموذج القياسي، الذي يتمكن من ضغط ما تبقى فينا من الإنسانية في نحو ستة أمتار مربعة.

فيها سريران بطابقين، ونافذتان، وكرسيان، ليس لهما ظهر أو ذراعان مثبتان بالأرض، ورفان صغيران، ومغسلة، ومقعد مرحاض. كنت أشاطر هذا القفص مع باتريك هورتون، وهو رجل ضخم، وشم قصة حياته على ظهره -الحياة عاهر ثم تموت- وقصّة حبّه لدرّاجات هارلي ديفيدسون النارية على استدارة الكتفين وأعلى الصدر. وباتريك ينتظر المحاكمة بعد مقتل شخص يدعى هيلس أنجيل، الذي ينتمي إلى مقاطعة مونتريال، قتله أصدقاؤه وهو على دراجته النارية نظراً لأنهم كانوا يشكّون في تعاونه مع الشرطة. كان باتريك متهماً بالمشاركة في هذه الجريمة. بالنظر لما ينسب إليه من سوابق مخيفة، ولعضويته في مافيا الدراجات النارية تلك، التي لها سجل حافل في جرائم القتل والاغتيالات، كان جميعهم ينظرون إلى هورتون باحترام، كما لو كان كاردينالاً عندما يتجول في أروقة القطاع B. وقد تعرفت عليه من خلال تقاسمي خصوصية زنزانته، مستمتعاً في اقتفاء أثره، بالاحترام ذاته الذي يحظى به هذا السفير البابوي المضحك.

استمر باتريك يئن مدة ليلتين أثناء النوم. يعاني من وجع في السن، ويشعر بآلام حادة مصحوبة بخراج. اشتكى من هذا الألم مرات عدة للحارس، الذي جعله يتناول أقراص التايلينول في نهاية المطاف. وعندما سألته لماذا لم يسجل على قائمة انتظار طبيب الأسنان، قال لي: «أبداً. إذا كنت تعاني من سن، فأبناء العاهرات هؤلاء لا يعالجون السن، إنما يقلعونه. وإذا كنت تعاني من سنين، فسيان، يقلعون الاثنين».

عشنا معاً مدة تسعة أشهر، وكانت الأمور تسير على ما يرام. لقد جاءت بنا إلى هنا وحدة المصير الخيالي في الوقت ذاته تقريباً. وبسرعة كبيرة، أراد باتريك أن يعرف مع من كان سيُشارك وعاء المرحاض به كل يوم. وعند ذاك رويت له قصتي، بعيداً عن قصة عصابة هيلز أنجيلز موريس باوتشر، الذين سيطروا على جميع عمليات تهريب المخدرات في المقاطعة، ولم يترددوا

في شن حروب التفجير كتلك التي قتلت 160 شخصاً في كيبيك بين عامي 1994 و 2002، عندما واجهوا أعداءهم القدماء، وعصابة الروك ماشين (نادي الدراجات البخارية)، الذين استوعبتهم فيما بعد عصابة بانديدوس، الذين لم يستغلوا اسمهم بأي حال، إلى حد أنهم شهدوا بدورهم عدة انتكاسات منذ العثور على ثماني جثث، وجميع أعضاء العصابة، متناثرين في أربع سيارات متوقفة جنباً إلى جنب ومسجلة في أونتاريو[1].

عندما علم باتريك سبب حبسي، أصبح مهتماً بقصتي بحسن نية رفيق الواجب، الذي أدرك أولى محاولات تلميذه المبتدئ الخرقاء. وعندما أنهيت قصتي المتواضعة، حك شحمة أذنه اليمنى التي التهمتها الأكزيما الملتهبة. «عندما رأيتك، لم أكن أعتقد أنك قادر على شيء من هذا القبيل. لقد أبليت بلاء حسناً. هذا مؤكد ولا شك في ذلك. لو كنت مكانك لقتلته».

ربما كان هذا هو ما كنت أردت القيام به، ووفقاً للشهود، فإن هذا هو الفعل الذي كنت سأرتكبه دون شك، لو لم يتحالف ستة أشخاص، صمموا على السيطرة عليّ. في الحقيقة، بصرف النظر عما قيل لي، لم أحتفظ في ذاكرتي سوى بعدد قليل من الصور عن الحادث نفسه، وعلى ما يبدو أن ذهني قد اتخذ خياراً انتقائياً، قبل أن أستيقظ في غرفة الطوارئ.

1- تُعد عصابة هيلس أنجيلز في كيبيك من أكثر المنظمات الإجرامية قوة ونفوذاً في الإقليم. وتسيطر على طرق تهريب المخدرات في المقاطعة. ولها خمسة فروع: فرع الجنوب (الشاطئ الجنوبي)، وفرع تروا ريفيير، وفرع كيبيك، وفرع شيربروك، وفرع مونتريال.

- الروك ماشين – Rock Machine أو Rock Machine M.C، هو نادٍ دولي للدراجات البخارية خارج القانون، له ستة فروع كندية، وستة فروع أمريكية، وثمانية فروع في أستراليا. تم تشكيلها عام 1986 من قبل سالفاتوريكازيتا، وهو صديق سابق لرئيس فرع كيبيك هيلس أنجيلز موريس باوتشر، وتنافس مع هيلس أنجيلز في تجارة المخدرات على مستوى الشارع في مونتريال.
- أما نادي بانديدوس للدراجات البخارية، المعروف أيضاً باسم بانديدونيشن، فهو موجود في جميع أنحاء العالم. تم إنشاء النادي عام 1966 من قبل دون تشامبرز في تكساس (الولايات المتحدة). شعاره («نحن الذين حذرنا آباؤنا بشأنهم»). تقدر قوته العاملة بـ2800 عضو، مقسمة إلى أكثر من 200 منظمة فرعية أو فرع، تقع في 23 دولة. مدرجة على أنها ناد إجرامي في ملفات مكتب التحقيقات الفدراليFBI – م.

«اللعنة نعم كنتُ سأقضي على هذا القرف. كان ينبغي شطر هؤلاء الرجال إلى نصفين». كانت لا تزال أصابعه تنبش في أذنه المحترقة، ويأرجح بشدة قدماً فوق أخرى. لقد كان باتريك هورتون وهو في حالة غضب مبهم، يبدو مستعداً لاجتياز الجدران، لإنهاء العمل الذي شرعت به، ولم أحسنه بطريقة ما في الوقت ذاته. عندما رأيته يزأر ويخدش جلده الملتهب، كنت أفكر في تلك اللحظة، بما أشار إليه عالم الأنثروبولوجيا سيرج بوشار، المتخصص في ثقافات الهنود الأمريكيين: «الرجل هو الدب الذي تحول خطأ».

كانت زوجتي وينونا، هندية ألغونكوينية[2] وكنت قد قرأتُ كثيراً لبوشار، لأعرف عن تلك الثقافة. فقد كنت لا أزال فرنسياً عجولاً، لا يعرف شيئاً تقريباً عن مزحة الخيمة المرتجفة، وأنظمة أكواخ التعرق الغامضة، والأسطورة المؤسسة لحيوان الراتون الغاسل[3]، والمنطق ما قبل الدارويني الذي يقول: «إن الإنسان ينحدر من الدب»، والقصة التي تحكي «لماذا توجد بقعة بيضاء تحت فم الوعل».

في ذلك الوقت، كان السجن لا يزال بالنسبة لي مجرد مفهوم نظري، مزحة من ألعاب النرد، تلزمك بقضاء دورك سجيناً في صندوق إصلاحي في مونوبولي. ويبدو أن عالم البراءة الغريب هذا مبني للأبد، تماماً مثل والدي، القس يوهانس هانسن، المشغول بإثارة مشاعر قلوب الرجال وأصوات دوران عجلات جهاز أرغن هاموند[4] في أبرشيته البروتستانتية، الغارقة تحت زخات المطر الناعم المبارك، مثل وينونا ماباشي ورقتها الغونكوينية،

2- الغونكوينون: هم السكان الأصليون في أمريكا الشمالية الذين يتحدثون لغة الغونكوين، وهي من الناحية الثقافية واللغوية، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بلهجة اوداواو الأوجيبوي، وتشكلان معها أكبر تجمع (Anicinàpe أنيشينابي)، ومعظمهم يعيشون في كيبك وأونتاريو - كندا - م.

3- الراتون: حيوان أمريكي، لا يأكل شيئاً، إلا بعد غسله بالماء - م.

4- أورغن هاموند: هو أورغن كهربائي، اخترعه لورنس هاموند وجون إم. هانرت وصنع أول مرة عام 1935. وقد أنتجت منه عدة نسخ، تتوافر معظمها على آليات تحكم، تسمح بتغيير صوتها. كانت أورغنات هاموند في حدود سنة 1975 تنتج أصواتها عن طريق تيار كهربائي ناتج عن دوران «عجلة نغمات» معدنية قرب لاقط كهرومغناطيسي، ثم تقوى الإشارة بمضخم، يشغل عبر مكبر صوت - م.

وهي تناور في المنعطفات في قيادة طائرتها التاكسي بيفر[5] لكي تُنزِلَ برفق زبائن وعوّامات فوق مياه كلّ بحيرات الشمال؛ مثل كلبتي نوك التي ولدت للتو، وبدت وكأنها تنظر إلي بعينيها السوداوين الكبيرتين، كبداية كل شيء ونهايته.

نعم، لقد أحببت ذلك الزمن، البعيد بالفعل، عندما كان موتاي الثلاثة، لا يزالون على قيد الحياة.

أود كثيراً أن أجد طعماً للنوم، أن لا أسمع الجرذان. ولا أشم رائحة الرجال. ولا أستسلم للشتاء عبر النافذة. ولا أضطر إلى تناول الدجاج البني المسلوق في ماء دهني. ولا أغامر في أن أكون عرضة للضرب حتى الموت، من أجل كلمة غير مرغوب فيها، أو من أجل حفنة تبغ. لم تعد بي حاجة للتبول في الحوض، لأنه بعد ساعة محددة، لم يعد مسموحاً لنا بسحب السيفونة. لا أريد أن أرى باتريك هورتون، وهو يُنزل سرواله كل ليلة، ويجلس على مقعد المرحاض، ويتبرز وهو يتحدث معي عن «أذرع الحركة المتشابكة» في دراجته من نوع هارلي التي كانت في حركتها البطيئة «تهتزّ وكأنها ترتجف برداً». في كل جلسة، يتصرف بهدوء شديد، ويخاطبني باسترخاء مذهل، يدعو إلى التفكير أن فمه وعقله منفصلان تماماً عن انشغاله بشأن المستقيم. حتى أنه لا يحاول أن يولي جهداً لضبط أصوات انتفاخ البطن بالغازات. وما أن ينتهي من قضاء حاجته، يواصل باتريك تنويري حول موثوقية أحدث المحركات التي ظهرت الآن «عن العوازل المطاطية في أنظمة التعليق التي تسمى العازلة»، قبل أن يعدل مؤخرة سرواله ومقدمته، كرجل أنهى يومه، ويفرش على الوعاء قطعة قماش نظيفة، يفترض أن تتخذ بديلاً عن غطاء المرحاض، والتي كانت تعلن لي إلى حد ما نهاية الخدمة، ونهاية القداس في آن معاً.

5- دي هافيلاند كندا دي إتش سي – 2 بيفر (de Havilland Canada DHC – 2 Beaver) هي طائرة بمحرك واحد ذات أجنحة عالية مدفوعة بمروحة قصيرة إقلاع وهبوط قصير، (STOL) تم تطويرها وتصنيعها بوساطة دي هافيلاند كندا. وقد تم تشغيلها بشكل أساسي كطائرة أدغال، وتم استخدامها لأداء مجموعة متنوعة من الأدوار المنفعية، مثل نقل البضائع والركاب، والأغراض الزراعية، ومهام الطيران المدني – م.

أن تغمض عينيك. وتنام. هو السبيل الوحيد للخروج من هنا، وتترك الفئران تأخذ حريتها.

في الصيف، عندما أجلس في زاوية النافذة اليسرى، كان بإمكاني أن أرى مياه نهر بريري، التي تتدفق بأقصى سرعة نحو جزيرة بوردون وجزيرة بونفوان ونهر سان لورين الذي يحتضنهما ويغمرهما في الوقت ذاته. لكن في تلك الليلة، لا شيء. كانت الثلوج تسد كل شيء، حتى الظلام.

لم يكن باتريك هورتون يعرف ذلك، ولكن ما حدث في هذه الساعات، أن زارتني وينونا ويوهانس وحتى نوك. كانوا يدخلون، وكنت أراهم بشكل مميز، بشكل كان يمكنني من ملاحظة تفاصيل كل البؤس الذي يقتحم هذه الغرفة. كانوا يتحدثون إلي، كانوا هنا، على مقربة مني. طوال كل هذه السنوات التي افتقدتهم فيها، كانوا يمضون ويأتون في أفكاري، كانوا في منزلهم، وكانوا في داخلي. كانوا يقولون ما يجب أن يقولوه، يؤدون أعمالهم، ويحاولون ترتيب فوضى حياتي، ويجدون دائماً الكلمات التي تنتهي، لتقودني إلى النوم والوئام في الليل. كان كل واحد يدعمني بطريقته الخاصة، ودوره، ومسؤولياته، دون أن يحكم علي، خاصة مذ كنت في السجن. لم يكونوا يعرفون أكثر منّي كيف حدث كل ذلك، أو لماذا اهتز كل شيء بسرعة كبيرة في غضون أيام قليلة. لم يكونوا هناك لنبش مصدر المصيبة. كانوا يحاولون فقط لم شمل أسرتنا وبناءها.

في السنوات الأولى، واجهت صعوبة كبيرة في قبول فكرة العيش مع موتاي. والاستماع إلى صوت أبي، دون أن أتذمر، كما لو كنت طفلاً، وكنا نعيش في تولوز، حيث أحبتنا والدتي. بالنسبة لوينونا، فقد تبددت المشكلة بسرعة كبيرة، لأنها كانت قد أعادتني إلى أسطورة هذا العالم الغونكيني غير المتكافئ، الذي يعيش فيه الأحياء والأموات. غالباً ما كانت تقول إنه لا يوجد شيء أكثر طبيعية من قبول هذا الحوار مع المتوفين، الذين كانوا يعيشون في عالم آخر. «أسلافنا يتابعون حياة أخرى. وإذا ما دفناهم مع أغراضهم كلها، فذلك لكي يتمكنوا من مواصلة أنشطتهم أيضاً في أماكن أخرى». كنت أحب المنطق الهش لهذا العالم، الذي يشغل نفسه بالأمل والحب. كانت هذه الأدوات تُرسَل برفقة أصحابها المتوفين والتي من المفترض أنّها قادرة

على أن تشتغل على جميع الفولتيات وجميع مقابس العوالم غير المرئية، لكونها كهربائية. أما نوك، كلبتي، التي كانت تعرف كل شيء عن الطقس، وقوانين الرجال والشتاء، والتي كانت تقرأ لنا بكتاب مفتوح، فقد كانت تأتي لتستلقي بالقرب مني كما كانت تفعل دائماً، دون شفاعة الكهنة الشامانيين[6] وهي لم تثق إلا بذكرى رائحتي، كانت تأتي إليّ، بعد أن تقوم بجولة في الظلام، تذهب بكل بساطة إلى بيتها وتستلقي إلى جانبي، لنواصل حياتنا المشتركة هناك حيث تركتها.

لقد وضعوني في سجن بوردو في ذات اليوم الذي انتخب فيه باراك أوباما، في الرابع من نوفمبر - تشرين الثاني 2008. لقد كان ذلك اليوم يوماً طويلاً ومرهقاً بالنسبة لي، عندما انتقلت فيه إلى المحكمة، وانتظرت في ممرات دار العدالة، مثولي أمام القاضي لوريمييه، الذي كان لطيفاً إلى حد ما، على الرغم من استجوابه، يبدو أنه لم يخطر بباله سوى مجموعة من المخاوف الشخصية، والمرافعة الشبحية لوكيلي المحامي المكتئب الذي كان يسميني بـ «يانسن»، ويدعي أنني أعاني من «عبءٍ نفسي وعقلي ثقيل»، ويعطي انطباعاً بإزالة اللبس عن قضيتي أو الترافع عن قضية أخرى، وانتظار الحكم، الذي يغمغم لوريمييه بنصه، بمقدار العقوبة، وهي سنتان في السجن، الذي يختفي في ذاكرة قاعة المحكمة، والأمطار الغزيرة أثناء رحلة العودة، والاختناقات المرورية، والوصول إلى السجن، والتحقق من الهوية، والتفتيش المزعج، وثلاثة في زنزانة كبيرة مثل مرآب للدراجات، «اخرس، هنا تلجم فمك»، فراش على الأرض، روث الفئران، مناديل ورقية في كل مكان، رائحة بول باهتة، صينية الطعام، دجاج بني، ليلة مظلمة.

قبل شهر من انتقال باراك أوباما رسمياً إلى البيت الأبيض، انتقلت إلى مسكني الجديد، «الكوندو» التي ما زلنا نتشارك فيها أنا وباتريك هورتون اليوم. سمحت لي هذه الخطوة بالخروج من جحيم أمعاء القطاع A الذي يسود فيه العنف والاعتداءات خلال ساعات النهار، وأحياناً حتى في ساعات

6- في بعض المجتمعات التقليدية (من شمال آسيا أو أمريكا، على سبيل المثال)، وهو شخص يفترض أن التواصل مع روح العالم، يتم من خلال استخدام تقنيات مختلفة: خوف، نشوة، رحلة تلقين سرية (مسارية) - م.

الليل. هنا في معزل عن التدفق الزائد، وبفضل نسب هورتون ومكانته، تبدو الحياة أكثر قبولاً. وبعد ذلك، عندما يصبح الإحراج الذاتي وعبء الوقت ثقيلاً جداً، يكفي التنازل والاستسلام للوتيرة البطيئة والعنيدة لساعة السجن، والخضوع لجدول أعمال «أنظمته الحياتية»: «في السابعة صباحاً، تفتح الزنازين. وفي السابعة والنصف يقدم الفطور. وفي الساعة الثامنة أنشطة قطاعية. في الساعة الحادية عشرة والربع، وجبة منتصف النهار. وفي الساعة الواحدة بعد الظهر، أنشطة قطاعية. وفي الرابعة والربع مساءً وجبة مسائية. وفي الساعة السادسة مساء، أنشطة قطاعية. وفي الساعة العاشرة والنصف ليلاً وقت النوم وإغلاق الزنازين، والتدخين ممنوع داخل المبنى وخارجه. والمقتنيات غير مصرح بها: وحدات تحكم الألعاب ومفاتيحها، وأجهزة الكمبيوتر، والهواتف المحمولة، والصور ذات الطبيعة الإباحية. يجب أن يرتب السرير قبل الساعة الثامنة صباحاً، والتنظيف كل صباح قبل الساعة التاسعة صباحاً أيضاً».

إنه شعور غريب جداً بالنسبة لي، أن أكون خاضعاً للإشراف وضعيفاً. عملت مدة ستة وعشرين عاماً، في حي أونتسيك، على بعد أقل من كيلومتر من هذا السجن - كان من المزعج في البداية أن أجد نفسي محبوساً بالقرب من منزلي - مارست مهنة المشرف الصارمة للغاية، مهنة بواب ساحر، مهنة مستخدم من الدرجة الأولى، مهنة قادرة على تنظيم عالم صغير محدد تماماً وإصلاحه، مع كون معقد، يتكون من الكابلات وشبكات الأنابيب وقنوات التصريف، والتقاطعات، والتحويلات، والأعمدة، والمفرغات، وعدادات الانتظار، وعالم مرح صغير مقامر، لم يكن يطلب سوى الذهاب إلى الجحيم، يطرح المشكلات، ويخلق العطلات، لتحل بشكل عاجل بدعم كبير من الذاكرة والمعرفة والتقنية والملاحظة والقليل من الحظ أحياناً. كنت في مبنى الإكسلسيور[7]، أشبه بالآلة الخارقة التي عهد إليها مهمة الصيانة والإشراف،

7- Excelsior (كلمة لاتينية تعني «العالي والمرتفع جداً») مقارنة بالصفة (excelsus)، ووردت في قاموس كولينز الإنجليزي بمعنى ممتاز: ويستخدم كشعار، في أسماء الفنادق، وكعلامة تجارية لمنتجات مختلفة، خاصة في الولايات المتحدة لنشارة الخشب الناعم المستخدم في تغليف الأشياء القابلة للكسر، أو الحشو في بعض الأثاث - م.

وحسن سير الأمور في هذا المبنى الكبير، المكون من ثماني وستين وحدة سكنية. كان السكان جميعهم مالكين لشققهم، ويتمتعون بحديقة فيها أشجار وأجمات وأزهار ومسبح ساخن مليء بـ 230.000 لتر من المياه المنقّاة بالملح، وموقف سيارات نظيف تحت الأرض مع مغسلة، وصالة رياضية، ومدخل مع صالة انتظار واستقبال، وصالة اجتماعات، تعرف باسم «المنتدى»، مع أربعة وعشرين كاميرا مراقبة، وثلاثة مصاعد كبيرة من ماركة كوني.

ست وعشرون سنة، أنجزت فيها عملاً ضخماً، مثيراً، ومرهقاً أيضاً، لأنه لم ينتهِ أبداً، غير مرئي عملياً، حيث يعتمد ببساطة على الحفاظ على توازن الحياة الطبيعية في ثماني وستين وحدة معرضة لتآكل الزمن، والمناخ والتقادم. 9500 يومٍ من اليقظة ، والمراقبة، والتدخلات، 9500 يومٍ من التحريّات، وعمليات التحقق، والجولات على السطح، والتنقل بين الطوابق، وفيها 104 فصول أيضاً، أتجاوز فيها صلاحياتي أحياناً، لمساعدة كبار السن، ومواساة الأرامل، وزيارة المرضى، أو مرافقة الموتى كما حدث مرتين.

أعتقد أن التعليم الذي تعلمته على يد يوهانس هانسن، القس البروتستانتي المحترف، ليس غريباً على نكران الذات، الذي كان عليّ إثباته خلال كل هذه السنوات، للحفاظ على العمل كله، واقفاً على قدميه. لم يكن يبدو لي أن الممارسة بهذه الطريقة، وتعاطي الانطواء على النفس، والقيام بمهام يومية مخيبة للآمال بجدية ودقة، متعارضة مع روح الإصلاح، كما كان يوهانس يدافع عنها في كنائسه.

لا أعرف شيئاً عن الرجل الذي تولى بعدي هذه المسؤولية، ووافق على العيش في أحشاء هذا السكن. أو ما يبدو عليه جوف مبنى «الإكسلسيور» اليوم. إنني أعرف فقط أن هذا العالم الصغير، المكون من ثماني وستين وحدة سكنية، والذي أفتقده، لقادر على إنتاج مزيج لا نهائي من الأعطال والمخاوف والألغاز.

كان يحدث لي أن أتكلم إلى الأشياء والآلات. وكنت أشعر بالعجز في الاعتقاد أنها يمكن أن تفهمني في بعض الأحيان. واليوم، لم يبق لدي سوى هورتون، وسنّه وأذرع التوصيل.

أنا الذي أشرف على تشغيل مبنى «الإكسلسيور» بعد أن قمت بإدارته مدة طويلة بشكل سليم، أجدني الآن مجبراً على الامتثال لـملينات «نمط الحياة» في «مسكني» الجديد، الساعة الثامنة صباحاً: الأنشطة القطاعية، وفي الساعة الرابعة والربع مساءً: وجبة المساء، وفي التاسعة ليلاً: تغوط رجل عصابة هيلس، وفي العاشرة والنصف: النوم وإغلاق الزنازين.

«في ذلك الصباح، عندما استيقظ باتريك، اتصل بالحارس، وطلب موعداً طارئاً مع طبيب الأسنان. فهو يخشى ذلك أكثر مما يخشى من غارة بانديدوس الوحشية. كان خده متورماً طوال الليل، ويجعله الألم كما لو أنّه مصعوقٌ كهربائياً. كان يتحرك ذهاباً وإياباً في اتجاهات الزنزانة جميعها، مثل حشرة محاصرة في جرة. «ألا يضايقك أن تقوم بترتيب سريري هذا الصباح؟» حقاً إنني أشعر بأذى كبير من هذا السن الحقير. ورثت ذلك عن أبي. كان لديه أيضاً أسنان فاسدة. يبدو أن الأمر وراثي. ماذا؟ لا أعرف عن ذلك شيئاً، لا تقرّف بأسئلتك الغبية، إنه ليس اليوم المناسب. الكلب طبيب الأسنان سخيف. فضلًا عن ذلك، يبدو أن رأسه رأس نيكلسون المهووس. كم الساعة؟ لابد أن هذا الوغد لا يزال في بيته يستمني أمام رقائق الذرة الملطخة بالقرف. سأقول لك، من الأفضل أن يعالجني كنزيل من الدرجة الأولى لفندق نيكلسون، وإلا، صدقني، سأشطر ابن العاهرة هذا إلى نصفين. كم الساعة؟ بحق الجحيم»[8].

بالنسبة لباتريك، وخاصة عندما يعاني من ضرس، ينقسم الناس إلى فئتين متمايزتين من الأفراد. أولئك الذين يعرفون، ويقدرون أذرع الربط المتشابكة التي تنتجها شركة هارلي ديفيدسون للدراجات النارية. وأولئك الأفظاظ «بلدي الذهن» الذين يستحقون أن «يُشطَروا إلى نصفين»، وهم الأكثر عدداً بكثير.

في ذلك الصباح، كان عليّ أن أجري مقابلة مع غايتان بروسارد، وهو

8- يرد اسم نيكلسون في هذه الفقرة مرتين، وتشيران إلى الممثل جاك نيكلسون في أشهر أدواره، دور حارس الفندق المهووس في فيلم The Shining، للمخرج ستانلي كوبريك، عام 1980، إضافة إلى دوره في فيلم الرعب Wolf، الذي أدى فيه دور الرجل الذئب – م.

موظّف في إدارة السجن، مكلّفٌ بدراسة ملفات تخفيف العقوبة قبل إحالتها إلى القاضي. وسبق لي أن قابلت بروسارد قبل ثلاثة أو أربعة أشهر. كان مظهره يوحي بشيء من الهدوء، ويؤكد وجهه المنحوت في قالب فيجو مورتنسن دوره كمراقب خيري[9].

كانت مقابلتنا الأولى قصيرة. حتى إنه لم يفتح الإضبارة التي تحتوي على وثائق محاكمتي.

«إن مقابلتنا اليوم مقابلة شكلية بحتة، أعدها اتصالاً عادياً، يا سيد هانسن. وبالنظر إلى الأفعال الخطيرة التي ارتكبتها، فإنه للأسف ليس من الممكن بالنسبة إليّ، في هذه المرحلة، أن أنظر في أمر أيّ إطلاق سراحٍ أو أتصوّره، حتى لو كان ذلك متوافقاً مع سجل المراقبة والتقييم. دعنا نلتقي مرة أخرى في غضون بضعة أشهر، وإذا كانت التقارير بشأن سلوكك إيجابية، فقد نتمكن من التفكير في شيء ما».

لم يتغير بروسارد. فقد لاحظت تفاصيل، فاتتني ملاحظتها في المرة الأولى. فهو عندما لا يتكلم، يميل إلى شم أطراف أصابعه، وفي كل شمة، يتوسع منخراه، ومن ثم، وبعدما يطمئنان إلى التعرف على رائحة الجزيئات المألوفة، يستعيدان شكلهما الطبيعي.

«سأكون صريحاً معك يا سيد هانسن. تقييماتك ممتازة في كل مكان، ومن الواضح أنها تتطلب مني إرسال ملفك إلى القاضي برأي إيجابي. ومع ذلك، يجب أن تقنعني مسبقاً أنك قد أصبحت مدركاً لخطورة تصرفك، وأنك تشعر بالندم على ذلك. هل تندم يا سيد هانسن؟».

لا شك أنه كان يجب أن أقول ما كان يتوقعه، أكرر الاعتذارات، وأعبر عن ندم عميق وصادق، أرقص رقصة الندم، وأعترف أن ما حدث في ذلك اليوم، كان لا يزال غير مفهوم بالنسبة لي، أسأل العفو من الضحية للمعاناة التي سببتها لها، وفي نهاية ندمي، أحني رأسي، مجلّلاً بالعار.

9- ڤيجو مورتينسين: منذ أن مثل دور مزارع ريفي شاب في فيلم الشاهد (Witness) لـ بيتر وير (Peter Wier) أصبحت مهنة ڤيجو مورتينسين (Viggo Mortensen) التمثيل، وقد عرف بأدوار ثابتة قوية بعد ذلك. كما ثمن النقاد أدواره في أكثر من ثلاثين فيلماً – م.

بيد أنني لم أفعل أياً من هذا. لم تخرج من فمي كلمة واحدة، لا شيء، وظل وجهي معبراً مثل قناع حديدي، حتى إنني شعرت بالألم لعدم الاعتراف لفيجومورنتس بما كنتُ نادماً عليه للغاية بكل صدق، وهو إنني لم يكن لدي المزيد من الوقت، أو ما يكفي من القوة لكسر كل عظام جسد هذا الحقير المعتد بنفسه، والمثير للاشمئزاز.

«أعترف أنني توقعت شيئاً آخر منك، يا سيد هانسن. توقعت ردة فعل مناسبة للغاية. من الواضح أنه عندما قرأت ملفك، وأنا أتصفح خلفيتك وماضيك، اتضح لي أن مكانك ليس هنا.

ومع ذلك، أخشى أنه بسبب إصرارك على عدم الرغبة في الطعن باتهامك، فستكون مضطراً للبقاء هنا مدة أطول. إنه لأمر مؤسف للغاية، يا سيد هانسن. كل يوم يمضي في هذا السجن هو يوم غير مرغوب فيه. هل هناك شخص في انتظارك؟».

كيف أشرح له أنه في هذه اللحظة، لم يكن هناك أي شخص في الخارج ينتظرني، ولكن من ناحية أخرى، في الغرفة التي كنا فيها – وكان يمكنني أن أشعر بأنفاسهم – كانت وينونا ويوهانس ونوك ينتظرون بنفاد صبر، وهم إلى جانبي بشكل مهذب منذ ذلك الوقت، أملاً برحيله.

لا يزال باتريك تحت تأثير الحقنة المخدرة، بعد عودته من جلسة علاج أسنانه، ملوثاً بلعابه الممزوج بالدم ثنايا منديل ورقي. من الواضح أن لقاءه مع نيكلسون انتهى بشكل سيئ.

«هذا الحقير قد قلعه». كنت أعرف ذلك، عليه اللعنة، لقد حذروني منه. لكن هذا الخسيس لم يترك. قال إنه لم يكن لديه ما يمكن أن يفعله لإنقاذ أسناني، فضلاً عن ذلك لدي خراج كبير. لقد أراني في التصوير الشعاعي، ما هو هراء قائلاً: «هذا هو، كما ترى، إنه مصاب حقاً». فأجبته، لا تعبث معي، افعل ما عليك أن تفعله، لكنني أحذرك، إذا آذيتني، فاعتبر نفسك ميتاً. إن ما زرقه في لثتي، كان يكفي لينيم كل أولاد البغايا في القرية التي ولدت فيها. وكما ترى، لا أعرف متى أخرج، لكن يمكن أن أقسم لك أنه بمجرد أن أخرج، «سأذهب إلى ذلك الأحمق وأقطعه إلى نصفين».

في تلك الليلة أعلن عن أن درجة الحرارة ناقص 28 درجة. وناقص 34 درجة مع معامل الرياح. وفي غضون أربعة أيام، سوف يأتي يوم / 25/ ديسمبر/ كانون الأول.. وسيحتفل نيكلسون بعيد الميلاد، محاطاً بكامل أسرته بأسنان سليمة مبيضة، وفقاً للنصائح الأبوية. وستواصل البنت الصغرى ارتداء جهاز تقويم الأسنان، وستعدها والدتها أن تقضي الشتاء الأخير مع كل هذه الخردة في فمها. وستتألق مجموعة كبيرة ومتنوعة من الكرات والأضواء السخيفة وتومض في المنزل، كما هو الحال في جميع المنازل الأخرى في المدينة، وستنشر المتاجر الكبيرة «تراتيل أعياد الميلاد» لشحن بطاقات الائتمان -وفي رقصة باليه غير قابلة للقراءة- كل أنواع الأشياء غير المجدية والمكلفة، المنتشلة من العدم للإتيان بها عاجلاً، وستنتقل من يد إلى أخرى، بينما ستبرمج محطات الراديو المبتهجة في هذه المناسبة «كل ما أريده لعيد الميلاد هو أنت».

هنا، عند حلول الليل، سرعان ما سينشد كاهن من طبقة أدنى قداساً نظامياً لعشاق مظاهر التزلف، ومن دون أن يؤمن بذلك حقاً، سيعد جميعهم بأن يجلسوا يوماً ما على يمين خالقهم، قبل أن ينطلقوا بأسرع ما يمكن، ليستنشقوا الرائحة الشبابية المنبعثة من جوقة الأطفال المرتلين.

أما بالنسبة لنا، نحن الكفار، والعصابات غير المنتظمة، وفئة المجرمين مفتولي العضلات، فيحق لنا الحصول على حصة مزدوجة من صلصة مرق الدجاج البني، مصحوبة بشيء يشبه النخاع بكريمة القيقب العتيقة. وما أن أبدأ بطبقي، أتمنى لباتريك بكثير من الجدية، عيد ميلاد سعيد. فيرد وهو يلوك دجاجته المستسلمة: «لا تتغوط ببذاءتك».



سكاجين، الكنيسة المدفونة تحت الرمال

ولدت في تولوز، في العشرين من شباط - فبراير عام 1955، نحو الساعة العاشرة مساءً، في عيادة تينتوربيه. في الغرفة التي خصصت لي، كان هناك شخصان لم أرهما بعد، يراقبانني نائماً. كانت المرأة الشابة المستلقية إلى جانبي، والتي بدت وكأنها عادت من حفلة، مذهلة الجمال، مبتسمة، مسترخية على الرغم من ألم الولادة، هي آنا مارجريت، أمي. في الخامسة والعشرين من عمرها. وكان الرجل الذي يجلس بالقرب منها، وهو يحاول ألّا يرمي بثقله كثيراً على حافة السرير، والذي يوحي بمكانة رفيعة، بشعره الأشقر وعينيه الزرقاوين الشفافتين المشبعتين بالرقة والوداعة، هو يوهانس هانسن، والدي، الذي يبلغ من العمر ثلاثين عاماً. يبدو أنهما كانا يشعران بالرضا عن الثمرة التي حصلا عليها في نهاية المطاف، في ظروف ربما لم يكونا قد قدرا عواقبها بالكامل في ذلك الوقت. على أي حال، اختار والداي أسمائي الأولى منذ مدة طويلة. وعليه صار اسمي بول كريستيان فريدريك هانسن. كان من الصعب إضافة المزيد من السمة الدانماركية. حق التربة، والدم، وكل ما تريده، وخاصة حق المصادفة، ومع ذلك، سأحمل الجنسية الفرنسية.

ولد يوهانس -مثل إخوته الأربعة- في يوتلاند في سكاجين، وهي بلدة صغيرة يسكنها 8000 نسمة، وتقع في أقصى شمال الدانمارك، ويتحدّثون فيها، منذ الولادة، عن السمك حصرياً. فهم صيادون جيلاً إثر جيل، وأسهمت عائلة هانسن في الازدهار السلمي لهذا الجزء الصغير من المدينة، التي تبدو أنها متمسكة بأرضها، حتى لا تنجرف نحو سواحل كريستيان ساند غير البعيدة، عن النرويج، أو غوتنبرغ في السويد. وبعد أن غير الناس من

عاداتهم وأولوياتهم، تكيف طرف من الإخوة هانسن مع هذا التغيير، وباعوا قوارب صيدهم، ليتخصصوا في إنتاج مسحوق السمك، في حين كان ثور، وهو الأكبر، يواصل الإبحار بين الشعاب المرجانية في تلك المياه الخطرة، التي يحب السياح تأملها من منعطف شريط غرينن الساحلي، عندما تنشط التيارات المرتفعة المتضادة بين تيارات بحر البلطيق، وتيارات بحر الشمال في ذروة الطقس السيئ. كان يوهانس ينتمي إلى مجموعة أقلية من آل (هانسن)، وهي فرع ما يسمى بـ«أولئك الذين يعيشون في الأرض». لقد أدار والدي ظهره للبحر، في وقت مبكر جداً، مفضلاً التفكير في الأضواء الفريدة في شبه الجزيرة هذه التي جذبت أعظم الرسامين في البلاد، الذين ابتكروا مدرسة سكاجين الشهيرة من خلال أسلوبهم وحضورهم ومثابرتهم. وأنتجوا لوحات جسدت المناظر الطبيعية الهادئة، ورجالاً ونساء بسطاء منهمكين في عملهم، وبحر الشمال المتوقد، وقوارب على بحر البلطيق، وأي شيء يمكن أن يهز بالفعل أبواب المتاحف، أو يكسر قوانين الفنون الجميلة. ببساطة لوحات جميلة مرسومة بأمانة، رسمت عن سكان هذا البلد الذين لم يطلبوا منه المزيد.

كان والدي فضلاً عن أنه يعيش في الداخل، في نحو عامه الثاني عشر، يستاء من الدين، والرياضة التي تجاهلتها الأسرة بأكملها حتى ذلك الوقت. بعد ذلك بكثير، أخبرني عن الظروف الغريبة إلى حد ما التي دفعته نحو مهنة القس. إنها قصة رمال، رمال متحركة، أنماها التاريخ، وزجتها الرياح.

في أقصى شمال شبه الجزيرة، بعيداً قليلاً عن المدينة، بنيت في القرن الرابع عشر، كنيسة مخصصة لربابنة البحار على بعد خطوات قليلة من البحر. يبلغ طولها 45 متراً، وبرج جرسها الجملوني بمدرجات على ارتفاع 22 متراً، و38 صفاً من المقاعد، كان مبنى مهيباً وفريداً في جميع أنحاء يوتلاند. ومما لا شك فيه أنها قد تعرضت أيضاً للرذاذ، لأنها قريبة جداً من هبوب الزوابع، وهي عاجزة عن مواجهة العواصف. لقد عانى المبنى وفي وقت مبكر جداً من تصدع الأرض، واجتاحت الرمال نحو عام 1770 الساحة الأمامية، ثم الصحن تدريجياً، وأحاطت الكثبان الرهيبة جدران الكنيسة، وأبعدتها وهي تهمي عليها ليل نهار. في عام 1775، حاصرت عاصفة رهيبة جميع

المداخل، واضطر السكان بعد ذلك إلى حفر الأروقة لدخول معبدهم وأداء طقوس عبادتهم فيه. لقد فعلوا ذلك مدة عشرين سنة أخرى، وهم يواصلون كنس الرمال عن الجدران والمخارج أسبوعاً بعد أسبوع. لكن الرياح لم تتوقف أبداً عن عصفها والرمال عن تراكمها. ذات يوم، وبعد أن انغمرت، تخلى الرب عن الكفاح معترفاً بالهزيمة، وأغلق رجال الدين الكنيسة نهائياً، بعد أن باعوا أثاثهم جميعه في المزاد العلني. واليوم، دفنت الرمال المبنى وغطّته بالكامل. ولم يبق سوى 18 متراً من برج الجرس، لا يزال يخرج من بين الكثبان الرملية.

كان هذا هو مشهد هذه الكنيسة المدفونة، بحطام الإيمان هذا الذي ألهم والدي الرغبة في أن يصبح قساً. «كما ترى، أعتقد أنه في ذلك الوقت لم يكن لدي أي إيمان، لم أكن أعرف حتى ماذا يعني. شعرت بعاطفة جمالية بحتة أمام هذا المشهد الفريد والرائع، الذي لم تره سوى مرة واحدة في حياتك. لوحة حقيقية تنتمي إلى مدرسة سكاجين. لو كنت في ذلك اليوم، وفي هذا المكان، لرأيت محطة مغمورة بالرمال، ولا يزال فيها البرج والساعة مرئيين، ربما كنت سأصبح لاحقاً عاملاً في السكك الحديدية». كان هذا والدي، الذي يعيش في الداخل دون ريب، ولكنه على علم بضرورة الإبحار في ديمومة الشك، تجذبه هشاشة أشرعة الكنيسة المهجورة تارة، وتغويه الحياة القاسية، والحياة التي تنطوي على مغامرات سكك الحديد تارة أخرى.

قامت والدتي آنا مادلين مارجريت برحلة إلى سكاجين مرتين. وهناك قابلت قبيلة هانسن بأكملها، رجالاً ونساءً بنوا مساكنهم بشكل متماثل لمقاومة المناخ القاسي والعيش لقرون عدة. لقد أعدوا لها من السمك المفلطح مع الكشمش المطبوخ والتوت البري، وسمك الأنقليس الملفوف، طبقاً منوعاً من اللحوم والخضار. وبعد أن شربت القليل من النبيذ، قامت بالحج إلى الكنيسة المدفونة تحت الرمال، حيث صورت والدي وكل عائلة هانسن الذين كانوا لا يزالون على قيد الحياة، والذين اصطفوا أمام بقايا برج الجرس. خلال رحلة العودة، تحدثت إلى والدي حول ما شعرت به، عندما رأيت هذا الهيكل الطقسي الذي ينبعث من الأرض. «كيف كنت تريد أن تصبح قساً بعد زيارة شيء كهذا؟» كل ذلك لا يستدعي سوى عجز

الرب والكنيسة وتخليهما واستسلامهما. لو كنت مكانك، لكنت التحقت بإخوتي، وتزوجت من امرأة محلية تشبههم، وقضيت جل وقتي في جرش الأسماك، وتحويلها إلى فتات. يبدو أنه في ذلك الوقت، ووفقاً لأقوال آنا، كان أبي يومئ برأسه لفترة طويلة قبل أن يعترف لها بابتسامة رجل الدين: «أتفق معك، باستثناء مسألة الزواج من امرأة تشبه إخوتي».

ولدت آنا مارجريت في تولوز. كان والداها، اللذين لم أعرفهما مطلقاً، يديران سينما صغيرة، تسمى بشكل متواضع باللاتينية Le Spargo – «أنا أبذر» –، وهي معتمدة في ذلك الوقت بالعلامة التجارية الجديدة «بيت الفن»، وبالتالي لا يقدم فيها سوى ما يسمى بالأفلام النبيلة مثل (الغاليون الزرق أو الانفجار أو تيوريما أو هدف زابريسكي). كانت مشبعة منذ الطفولة بكل هذه الصور، وتربت وسط هذه الأفلام التي لا نهاية لها، ووسط هذه الموسيقى المهيمنة، وهذه القبلات الفظيعة وهذه الدراما المبهمة، حتى أصبحت والدتي موسوعة سينمائية، عارفة بكل شاردة وواردة، وكل خصائص هذا العالم، فهي قادرة على الاستشهاد بمونتير أفلام جورج فيلهلم بابست، ومؤلف موسيقى أفلام هاورد هوكس أو مصمم إضاءة فيلم إبشتاين. بشكل عام، كانت مهتمة بمهن السينما والمصنعين والمخرجين والمنتجين، أكثر من اهتمامها بمهارة الممثلين، التي يمكن التنبؤ بها أكثر مما ينبغي.

في نيسان – أبريل عام 1960، كانت عائلة هانسن في تولوز قد اعتادت بشكل أفضل، بل وأكثر تمسكاً بالأعراف في ذلك الوقت. كان الزوج معتدلاً ويقظاً، مشحوناً بالسحر، وهو يتكلم الفرنسية الصافية ويجتهد فيها، بعد أن احتل مكانه كقسيس ثان في المعبد القديم في شارع باراغامينير، وجمع كلمة الناس في مواعظه كما في ممارسته، على الرغم من أن لهجته مطعمة بلهجة شمالية لطيفة. أما الزوجة التي كانت تبدو مولعة بحب زوجها، فتجمع بين الجمال الطبيعي، الذي كان جميعهم يتفقون على اعتباره جمالاً مذهلاً مقترناً بثقافة راقية مثيرة للإعجاب على حد سواء، وهي تقسم وقتها بين تعليم ابنها، وإعداد برامج السينما الجديرة بالاحترام التي شاركت في إدارتها مع والديها حتى عام 1958. أما الشاب بول كريستيان فريديريك، الذي لم يشتد عوده، فكان يقوم في أوقات محددة بما كان يطُلب منه للقيام به، ويكشف عن قائمة

من المجاملات النظامية، ويرافق والده إلى المعبد كل يوم أحد ليستمع إليه، وهو يلقي خطبه الطويلة حول أوضاع الناس، ونقاط ضعفهم وآثامهم.

إن ما تجاهلته مدرسة سكاجين دون شك، هو الظل الخفيف الوحيد لهذه الطبيعة الساكنة، فأمي التي ترى في أمور الكنيسة والإيمان مسائل لا تفسير لها، بل إنها تقاوم فكرة الخطيئة، لم تكن قد وضعت قدماً أو كعباً في كنيسة لحضور قدّاسٍ. وعليه ووفقاً لهذه الشروط، لماذا وافقت على مشاركة حياة قس بروتستانتي في ريعان الشباب؟ عندما حدث لي لاحقاً أن استجوبت والدتي، كنت دائماً أحصل على الإجابة ذاتها، التي كانت تثير فضولي بقدر ما كانت تطمئنني: «والدك جميل جداً».

في بعض الأحيان كان يحدث لها أن تستشيط غضباً، وترتفع نبرة صوتها أمامنا إلى حد ما، عندما نكون على طاولة الطعام، وكان أبي يوجه لها قرصة من تعويذاته اللاذعة، التي كان مغرماً بها: «هل بوسعك العيش حتى ولو لبضع ساعات بعقل كامل الإيمان؟» فهمت فيما بعد ما كان يمكن أن تشعر به آنا مادلين آنذاك. فهذه الشفقة المعسولة التي لا تطاق والمتعالية باسترخاء، كانت تقف في مواجهتها بصلابة: «كيف يمكنك أن تقول مثل هذا الكلام الفارغ؟».

أعتقد بصدق أن والدي القس هانسن الذي كان في الموقف الأول، حريصاً على إرضاء اتفاق واسع في الرأي ظاهرياً وإثارته، قد أظهر شخصية تقليدية، وسطحية مملة مخيبة للآمال. لكن هل كنا حقاً نسأله شيئاً آخر؟

يمكنني القول: إنه في ذلك الوقت، على الرغم من هذه الخدوش الصغيرة في الحياة اليومية، كان والداي سعيدين، ويعيشان حياة مشتركة بينهما. ولقد تجاهلت دائماً، ولا زلت لا أعرف من أين كانا يحصلان على تواطئهما المبدئي.

على الرغم من بعض الأسئلة التي سرعان ما كنت أشعر بها، والتي كانت تثير إحراجاً وارتباكاً، لم أكن أعلم أبداً أين وفي أية ظروف التقيا، والدي ووالدتي، وبأية نكتة من المصير العاطفي، أخرجت مواطناً من رمال مدينة سكاجين المتحركة، ليلتقي براهبة في السينما الراقية، فيبلغا مرادهما عام

1953، بعد أن قطعا مسافة 2420 كيلومتر، كانت تفصل بينهما، ويتجاوزان حاجز اللغة، للاستمتاع الكامل بهذه الخدعة المقدسة التي مارساها مدى الحياة.

بعد خمس سنوات، أي في العام 1958، تسلل الموت إلى عائلتنا لأول مرة. ففي منتصف ليلة صيفية، تعرضت سيارة والديْ آنا من نوع ستروين DS 19 سوداء اللون لحادث اصطدام عنيف جداً، على أحد أجمل الطرق الوطنية في هذا البلد، هذا الطريق الجنوبي المحاط بأشجار عملاقة مهيبة، تبلغ قممها عنان السماء، وتنسج بتيجانها العريضة مظلة كبيرة رقيقة، للوقاية من الشمس.

كان جداي عائدين من مهرجان سيتي في كاركاسون. وكانا قد ذهبا في مساء قائظ يحبس الأنفاس خلف الأبراج والأسوار، لمشاهدة نشيد رولان La Chanson de Roland، وهو عرض ملحمي يتكون من 9000 بيت شعر، أداه وأخرجه جان ديشامب. «لقد بقي شارل الملك، إمبراطورنا العظيم، سبع سنوات بتمامها في إسبانيا». ربما ماتا وهذه الكلمات في بالهما، وهذه العبارات التي يتردد صداها في جمجمتيهما تحت تأثير الصدمات المتتالية، وهذه المقاطع الشعرية العالقة، تجتاح ذاكرتهما، وهي تدور وتدور مثل أسطوانة مشروخة.

في نحو الساعة الواحدة صباحاً، رن الهاتف، فاجتاحت الشقة فجأة موجة من الألم والحزن. وغني عن القول: إن كل ما أرويه هنا كان والداي، قد رواه لي فيما بعد، لأنني لم أحتفظ بأية صورة، وبأية ملامح فوضى عن هذه اللحظات التي هزت عائلتنا.

***

في نوروز، وهي أعلى نقطة في قناة دو ميدي، حيث تتدفق المياه المتساقطة على الجانب الغربي من هذه النقطة إلى المحيط الأطلسي، وعلى الجانب الشرقي إلى البحر الأبيض المتوسط. انحرفت السيارة DS عن مسارها، واصطدمت بشجرة عملاقة مباشرة، فانفجرت السيارة بالفعل، وألقت بسقفها المتكون من الألياف الزجاجية في خنادق حقل مجاور

وجثّتي جدّي وجدّتي، في جهة مقابلة، على قطعة أرض، من الجانب الآخر للطريق السريع.

في هذا المكان حيث تتدفق المياه وتنفصل، عند هذه النقطة التي ينقسم فيها عالمان، هناك نوعان من الأحجار الضخمة، منفصلة بعضهما عن بعض، بعدة سنتيمترات فقط. وتقول الأسطورة: إنه في اللحظة التي تلتقي فيها هاتان الكتلتان، ستحلّ نهاية العالم.

في تلك الليلة حافظوا على فسحة بين الطرفين، ومع ذلك وصلت أسرة مارجريت عند انتهاء الوقت. فقد دفنا وفقاً للطقوس الكاثوليكية بعد قداسٍ أُقيم في كاتدرائية سانت إتيان، وبالطبع، حضر والدي، وتأثر دون شك، ولكنه كان منتبهاً، وعلى وجه الخصوص، إلى مظاهر التباهي بأبهة التشييع، وبراعة تنظيم الطقس الديني والمراوغة في التنافس.

فقدت سينما السبارغو Spargo مؤسسيها، ولكن ورثتها مديرة جديدة متفرغة، هي والدتي، التي كانت تبدو مستعدة وجاهزة تماماً لكتابة قصتها الجديدة في السينما.

كان عام 1958 عاماً رائعاً بالنسبة لسينما السبارغو. بأفلام «عمي، والدوار، والتعطش للشر، وقطة على سقف من صفيح ساخن»، فقد امتلأت الصالة لعدة أسابيع، ودعت المتفرجين إلى تحمل تلف المخمل وصلابة مساند الكراسي. وركبت آنا أداة جديدة لتسليط الصورة على الشاشة (بروجكتر) من نوع فيليبس، ونظاماً صَوتياً محسّناً وشاشة ذات انعكاس أفضل. وبهذا التحديث، استعادت سينما السبارغوSpargo الصغيرة جمالاً داخلياً. أما العناية التجميلية فستأتي لاحقاً.

على غرار دور السينما الصغيرة، كانت أماكن العبادة تشهد آخر أيامها الجميلة. كان العالم يتغير، وحتى لو كانت هذه المتغيرات قد بدأت للتو، كان على والدي أن يقاتل ويكتب ويعيد كتابة عظاته للاحتفاظ بجمهور، لم يكن يطلب سوى أن يكتشف الانحرافات الأخرى، الأقل تقليدية والأكثر تساهلاً من خلال التجربة ويختبرها. في نحو السنة العاشرة من عمري، كان بوسع أي شخص يبدي انتباهاً خاصاً، يدرك بالفعل تصدع مفاصل العالم

القديم. كنا نسكن في شارع لومبارد المحاذي للنهر، في شقة قديمة ذات سقوف عالية. وكانت نوافذها الكبيرة التي تعلوها فتحات تهوية من الخشب مفتوحة على النهر، والتي تغيرت ألوانها على مر المواسم. في الصيف، تظلل الأشجار العملاقة القديمة مشهد الأماسي، وفي الليل، بالكاد كنا نسمع وشوشة مياه نهر الغارون.

لم تكن مدرسة بيير دي فيرمات بعيدة جداً عن النهر وعن منزلنا، ولكنها كانت قريبة جداً جداً من وجهة نظري من الكنيسة، التي كان والدي يُقيم فيها القداس. لم تكن بي رغبة بأي حال من الأحوال أن يعرف أحد أن هذا الشخص الماجن الكبير، الذي كان ينزل مسرعاً من سلالم تلك الكنيسة المضحكة في نهاية الشارع، بزي رجل دين رمادي لا تشوبه شائبة، كان هو والدي. في المدرسة، يعرف جميعهم أنه كان «مستورداً لدقيق السمك». آمين. كنت قد اعترفت له بهذه الكذبة الصغيرة، وتوسلت ألا ينكرها إذا سئل عن الموضوع بالمصادفة. «لا يجب أن تخجل من عمل والدك. لا يوجد عيب في ذلك. على العكس تماماً. أطفال القساوسة في الدانمارك فخورون جداً بآبائهم».

حتى ذلك اليوم، كانت والدتي هي المسؤولة عن متابعة مواظبتي على الدراسة، والتقت بأساتذتي لتسوية الشؤون الآنية. أما يوهانس فلا شأن له بهذا الموضوع أبداً. ولكن في ذات مساء، وجدت ملاحظة على طاولتي وضعها هناك موجهة لي. كنت لا أزال طفلاً، وبعد قراءتها شعرت بالكثير من الحيرة والحزن الغامض، الذي لم أتمكن من اكتشاف سببه. كان ما كتبه والدي يقول: «أنا مجرد صبي صغير يلهو، فضلاً عن أني قس بروتستانتي، يشعر بالضجر من أندريه جيد».

***

نحو الساعة الثامنة مساء من يوم 31 ديسمبر / كانون الأول، اندلع شجار عنيف، شارك فيه 12 سجيناً، ينتمون إلى عصابات متنافسة في ممرات قطاعنا، فتعرضنا جميعاً لإجراء الحجز في زنازيننا. دخلت سيارات الإسعاف إلى فناء السجن الرئيس، لنقل اثنين من المتشاجرين اللذين أصيبا

بجروح خطيرة نتيجة عدة طعنات. من الواضح أن الاحتفالات البسيطة التي تم الإعداد لها لحفل نهاية العام، قد ألغيت جميعاً. وفي منتصف الليل، عندما التحقنا بمعظمنا بالفعل بأسرنا، سمعنا من مسافة بعيدة طرقات جسم معدني على باب الزنزانة. كانت ضوضاء مزعجة ومرهقة ومنتظمة، يتردد صداها في فراغ الممرات. ومن ثم تراصفت ضربة أخرى قوية مع الأولى. وفي الثالثة، وفي غضون دقيقة، خضع القطاع بأكمله للضجيج قبل أن تخضع له أجنحة السجن جميعها. بدا الأمر وكأن خفقات قلب ضخم من الفولاذ كانت ترتقي نحو السماء، نشيد أمنيات المنفيين. لم أسمع أبداً عن شيء من هذا القبيل. ولقد كان باتريك عازماً، مثله مثل شيطان ممتلئ بالقوة، على اختراق هذا الجدار الذي كان يعلم أنه سوف يقاومه. كان يحدق به، ويبتسم له ويضربه بكل قوته. كنت وأنا أراه وهو في حماس العمل، وسماع هذا اللغط يجعلني أشعر بالقشعريرة. في الحقيقة، كنا نصفق على شكل جوقة باليدين والأقدام على العديد من الأشياء المختلفة، عن المعاناة التي كانت معاناتنا الشخصية، وعن الاحتقار الذي كان علينا أن نتحمله، عن عائلاتنا الغائبة، عن القضاة الوقحين، وأطباء الأسنان المستعجلين، وكل عالم غير محدد المعالم، الذي سيتكفل باتريك هورتون، عاجلاً أم آجلاً، وفي كل الأحوال، بأن «يشطره إلى نصفين». في تلك الليلة الأولى من عام 2010، أصبحنا ببساطة حشداً من السجناء في قفص شبيهٍ بالطبول، في بطن هذا السجن المتخم، السجن المتحجر في الجليد، على حافة النهر المتجمدة.

وشيئاً فشيئاً، كما لو أن يداً غير مرئية، كانت تخفض من مقياس الجهد الصوتي، حتى تلاشت الضربات قبل أن تختفي في الظلام.

في تلك الليلة، لم تكن هناك جولة. وبقي الحراس وحدهم، وبقينا نحن، مع كم من أحزاننا. لسنة على الأقل.

اليوم هو 3 يناير – كانون الثاني 2010. وغداً، سأكون قد أمضيت مدة أربعة عشر شهراً سجيناً في هذا المبنى. وباتريك كان منشغلاً في الرسم من الظهر، يشبه طفلاً منكباً على عمله، مثابراً على إعادة إنتاج جزء من العالم بكل أشكاله وألوانه. وغالباً ما يرسم باتريك مكونات ساذجة ومناظر طبيعية ووجوهاً، وبالطبع، دراجات نارية يسعى إلى إعادة إنتاجها بأكبر قدر ممكن

من الواقعية. في بعض الأحيان، مثل تلميذ المدرسة، ينقل موضوعاته بالورق الشفاف، ويمكنه بعد ذلك قضاء ساعة أو ساعتين في نسخها وتلوينها بأقلام التلوين. بل إن رؤية هذا العملاق القاتل، وهو يعطي أفضل ما لديه خلال هذه المهام الطفولية لها جانب مؤثر، ولكنه أيضاً، مخيف للغاية، لدرجة أنه يستنطق منعطفات النفس البشرية المقرفة.

«لقد فكرت مراراً في قصتك في ذلك اليوم مع الطبيب النفسي. يبدو أنك لم تقم بالأمر بالشكل الصحيح». بينما يتابع باتريك احتياطاته، وسياق خطته الدقيق على ورقته، يرشدني إلى السلوك الذي يجب اتباعه أمام المكلف بالتقييم. «الأمر ليس معقداً. فقط أخبره بما يريد أن يسمعه. أشياء بسيطة. ندمي يمكن أن يقتلني على ما فعلته. وأعترف أنني تجاوزت الحدود. فضلاً عن ذلك، لا أملك أي عذر. كان لدي والدان من النيكل اللعين اللذان لم يربياني هكذا. انظر، أعتقد أن السجن قد أفادني هنا، تعلمت الاحترام، وبدأت أنظر إلى الأمور بوضوح. أعتقد أنني مستعد للخروج، وأقوم بإجراء تدريب حقيقي. أود قيادة الحافلات. إذا كرهتَ الحافلة فاستبدلها بما تريد. المطلوب هو أن يكون الآخر، الشرطي سعيداً، ولديه انطباع أنك خائف أمامه، وأنك مستعد للخدمة. هل ترى الخدعة مناسبة؟ القاعدة في غاية البساطة: عليك أن تقنعه أنك جبان. ارم لي الممحاة. اللعنة، إنني أتحدث، وفي كل مرة يطفح الكيل».

يمضي باتريك هورتون، وهو لايزال شاباً، خمس سنوات رهن الاعتقال عن كل العقوبات مجتمعة. وبالنسبة لي لا أعلم متى سأخرج من هنا. يبدو لي أن عامين في السجن بسبب الخطأ الذي ارتكبته عقوبة متناسبة مع حجم الجريمة. وهي في رأيي، ليست بالغة الخطورة وليست تافهة. لكن في حالة كحالتي، هناك مشكلة كبيرة تمنعني من تطبيق نظرية هورتون. إذا لم تكن لدي أية مشكلة في الندم بشكل صريح أو استنكار لفعلتي، طالما أنها ارتكبت على مواطن عادي، فإنني أجدها بالمقابل متوافقة تماماً، عندما تنطبق على الضحية المحددة التي اعتديت عليها. فالقائم بالتقويم أو سواه، هذا الرجل، لن أحظى منه أبداً بشكر أو مغفرة.

لم يعد خراج باتريك المؤلم أكثر من ذكرى بغيضة. ولكنه في كل ليلة، وقبل أن يغسل أسنانه، يقف ليريني الحفرة التي تركها قلع السن في لثته.

«أتساءل أين السن اللعين اليوم؟ كان سني على أي حال. حتى الفاسد، كان سني. فضلاً عن ذلك كان هناك تاج عليه. كان يجب على الطبيب أن يعيده إليّ. لقد دفعت ثمناً غالياً عن هذا الخزف اللعين. إذا لزم الأمر، يستعيدونه لصنع أسنان أخرى، أو حتى أشياء أخرى. ما رأيك في ذلك؟».

أنا أحب باتريك. لا يمكن التنبؤ بتصرفاته، ويمكنه في بعض الأحيان التعبير عن أفكار غريبة أو التعامل مع مفاهيم طائشة تماماً. وقبل أيام قليلة من عيد الميلاد، رأيته ينخرط في محادثة طويلة وجادة مع أحد حراسنا، وكان يبدو أن هذا الحارس ينتمي إلى نمط تفكيره، موضحاً أن لديه صديقاً قادراً على لوي شوكات الطعام من مسافة. وأمام مستمعه الذي كان يبدو عليه غاضباً ويحاكي المشهد، كان يؤكد أنه رأى بأم عينه السكين تلتوي على الطاولة مثل السباغيتي. «ويسمى هذا بالتحريض النفسي، تحريك الأشياء عن بعد. لقد تعودت البحث عن مثل هذه الموضوعات. وصديقي يمارس ذلك منذ سنوات. في الواقع، لا يمكنه تحريك الأشياء، أعني جعلها تنتقل إلى هذا الجانب أو ذاك. هذا مستحيل. ومع ذلك فإنه يلوي أي شيء. وأخيراً، يجب ألا تكون سميكة جداً أيضاً. الملعقة أو الشوكة، ليست مشكلة. لكن مفك البراغي على سبيل المثال، لا يمكن. فقد رأيته عدة مرات يركز على مفك براغي لعين. يمكنه قضاء ساعة أو حتى ساعتين، ودون جدوى. فضلاً عن ذلك، انتهى به الأمر إلى الإنهاك والإرهاق والتصبب عرقاً. وفجأة أخفت زوجته مفكات البراغي عنه. وقرأت أنه في الهند كان هناك رجل مثله، كان قادراً على فتح أبواب الثلاجة وتدوير عجلات الدراجات».

مع مرور الوقت انتهيت إلى الاعتياد على هذه التلفيقات الهورتونية الغريبة، وعلى هذه الصعقات التي لا يمكن التنبؤ بها، والتي يمكن أن تخمد بسرعة بالقدر نفسه، بسبب نقص الوقود المطلوب أو عدم وجود محاور مقبول.

في هذا الوقت من السنة، يحل الليل نحو الساعة الرابعة والنصف مساءً، وهو الوقت الذي تقدم فيه وجبة المساء، حيث نتناول القليل من العشاء، دون أن يعني هذا أي شيء بالنسبة لنا. ثم تهبط غمامة الكآبة، حيث يبدو في كنفها كل واحد في عزلته. هذه هي ساعات اليوم السيئة، تلك الأوقات المتأخرة ما بعد الظهر التي يهنأ فيها الناس في الخارج، بالعودة إلى منازلهم

بعد مغادرة أعمالهم، وهم يتحدّون الثلوج والبرد. في مبنى «الإكسلسيور»، كان هو الوقت الذي أغادر فيه واجباتي، وأنتظر عودة وينونا إلى الشقة. ثم كنا نتجول أحياناً مع نوك في متنزه أونتسيك. كنا نشعر حينذاك، بعد أن نتخلص من كل قيد، أننا نحلق في الزمن، وأننا نمتلك حياتنا بالكامل، وننشر من حولنا في كل خطوة عدم الاكتراث، ونثار من السعادة، بينما كانت الكلبة تمرغ فروها الأبيض في معاطف الثلج. أحياناً أغمض عيني، وأحاول إعادة بناء هذه الجولات المسائية في جنة عدن، ولكن مع كل محاولة كانت تنطلق أصوات برية من الممرات والزنزانات، تتسبب في انهيار البناء القديم والهشّ الذي كان يحاول تشغيل ذاكرتي. عندها يدرك المرء عقوبة السجن. والعجز المستمر عن الفرار، حتى ولو كان فقط وقت المسير بصحبة الموتى.

قلت كان بإمكانهم زيارتي هنا. لكنني لم أستطع اللحاق بهم خارج السجن.

حان وقت باتريك، هذا الروتين الذي لم أعتد عليه. يزيل قطعة القماش عن الوعاء، ويفتح سحاب سرواله ويرخيه، يجلس ويحدق في وجهي وهو يبذل جهداً ضاغطاً للدفع، يؤدي إلى تضخم الأوردة في وجهه. يعلن صوت حصاة ألقيت في المياه العميقة نهاية الدفعة الأولى. «ما زلت لا أعرف متى أذهب إلى المحكمة من أجل قضيتي. أتساءل عما إذا كان ينبغي علي تغيير المحامي. هذا الشخص الذي لا يعجبني. إنه يشبه صبيّاً في فرقة موسيقية يلبس حذاء مسطحاً تقليدياً -مصنوعاً من لحاء شجر الجوز- أقسم على ذلك. آخر مرة ظهر فيها هذا الأحمق أمام القاضي بأحذية من لحاء شجر الجوز، ويرتدي جوارب رئيس مشجعي الأغاني». وبعد أن ساد الصمت في الدفعة الثانية للحصاة، انتهى التفريغ، وبان على وجهه تعبير من الارتخاء. «سأزيح هذا الرجل من هنا، لا أريد أن أشم رائحته. كلا، ما أحتاج إليه هو محام وحشي من النوع المافيوي، يلقي بظلال من الشك على القاضي فور دخوله الغرفة. أترى كلباً برياً[10] مثل خافيير بارديم أو ذلك الآخر، اللعين... إن تومي لي له شأن آخر. لا أريد راقصة أخرى بأحذية راقصة الباليه».

نهض باتريك، ودار نصف دورة، وأخذ يتحقق من تجانس الحصيات،

10- كلب بري من أستراليا، يصطاد على شكل قطيع، ويهاجم الأغنام أحياناً – م.

وضغط على أداة دفع الماء، فسال بكمية هائلة، وجرف الحجارتين المزدوجتين إلى غياهب أقبية، وحفر مشتركة تحت الأرض.

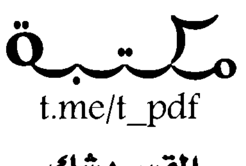
بينما كنتُ جالساً على حافة سريري، حاولتُ التفكير في شيء آخر ونسيان هذه الخروقات الحميمية التي أجبرنا عليها، والتي يبدو أن باتريك قد تعايش معها في نهاية المطاف. أحاول إقناع نفسي أن كل هذا سينتهي قريباً، وأنه في المقابلة التالية، سيكون عليّ فقط الإجابة بكل بساطة عن أسئلة معقدة. وبعد ذلك، إطلاق عبارات الشكر بسلامة نية مراء مخضرم، بقدر أكبر من الوضوح.

في هذه الأثناء، رأيت هورتون يضع مفرشته البيضاء الصغيرة على وعاء المرحاض. كان بودي الاعتياد على ذلك. ولكنني لم أستطع. إنه لأمر مستحيل، على الرغم من مرور الوقت.

في الممرات، لا تزال الأمور تحدث. ويمكنك تخمين ضجة التدافع، وصراخ الغاضبين، والشتائم، ثم عودة الهدوء.

في الليل، تبدأ البنزوديازيبينات[11] الموزعة على نطاق واسع عملها. وسرعان ما تبدأ معدة السجن في الهضم البطيء، يختفي جميع النزلاء على مهل، حتى الذين يسكنون فيه ولو لليلة واحدة، في الزنزانات المشتركة.

11- البنزوديازيبينات: (benzodiazepines) وتختصر BZD، وتسمى أحياناً «بنزوس»، هي فئة من الأدوية ذات التأثير النفسي، التي يتكون هيكلها الكيميائي الأساسي من اندماج حلقة بنزين وحلقة ديازيبين. اكتُشف أول دواء من هذا القبيل، الكلورديازبوكسيد (ليبريوم)، عن طريق المصادفة على يد ليوهستيرنباخ عام 1955، وأصبح متوافراً عام 1960 على يد شركة هوفمان – لا روش، والتي سوقت بنزوديازيبين الديازيبام (الفاليوم) منذ عام 1963. وفي عام 1977 كانت البنزوديازيبينات أكثر الأدوية الموصوفة على مستوى العالم. وهي من عائلة الأدوية المعروفة باسم مهدئات الأعصاب الثانوية – م.



القس يشك

بسبب تأثره، على ما أظن، بالمناخ الثوري في العام 1968، اشترى والدي في ذلك العام سيارة غريبة، مزودة بمحرك صمم تصميماً ثورياً بالكامل، اختيرت في الاحتفال العام «سيارةَ العام». كانت السيارة من طراز NSU Ro 80 – وهي سيارة مجهزة بمحرك دوراني، لا يستخدم المكابس بالطريقة التي يستخدمها المحرك التبادلي الشهير، وهو أول محرك (فانكل Wankel) دوار ذي احتراق داخلي، تجهز به سيارة من هذا النوع. لقد اشترى القس، متأثراً بهذا الابتكار الميكانيكي الألماني، السيارة ذات أربعة أبواب ليأوي عائلة بشكل مثالي في مقصورة متواضعة وبتقنية أكثر تقليدية. ربما كان يوهانس مايزال يضع في اعتباره توسيع دائرة أحفاده، وإرساء أكثر من أثر مميز لعائلة هانسن بشكل أقوى في هذه المنطقة الجنوبية الغربية. على أي حال، وعلى الرغم من قابليتها المدهشة، فقد تبين أن هذا المحرك الدوار NSU كان كارثة حقيقية، بقائمة من الأعطال غير المتوقعة والمتنوعة مثلها مثل السيارات الأخرى. كان من المفترض أن يبشر المحرك الدوراني دون مكبس Ro 80، بتقنية عالم الغد وابتكاره، ويلبي طموحاته، ولكن سرعان ما شهدت انهيار مبيعاتها، وفي وقت لاحق، أدى ذلك وحده إلى الإفلاس، ثم اختفاء العلامة التجارية NSU، التي انتهى بها الأمر إلى أن اشترتها شركة أودي. على أي حال، تزامن وصول هذه السيارة إلى عائلتنا، متوجة بولادة تدهور العلاقات بين والدي وزوجته. وكذلك بين القس وكنيسته.

طوال ربيع عام 1968، عاشت صالة سينما السبارغوLe Spargo، التي تم تحديث واجهتها في فترة وجيزة، تحت أنفاس منشطة من التوتر الجديد. وعلى غرار جميع الهيئات الاجتماعية الأخرى، فإن الإعصار الليبرالي الذي

اكتسح المصانع والجامعات وطرق العالم القديم، التي لا تزال مرصوفة بالحصى، تجاوز عالم السينما الصغير. وبعد أن سمعت جان لوك غودار -أحد أبرز أعضاء حركة الموجة الجديدة السينمائية- يدافع في مدينة كان عن إضراب السينما واندماج النضالات، تحولت والدتي، آنا مارجريت، إلى مستشارة محلية لـ «سينما بيت الفن»، وانضمت إلى النضال الغوداري، وبدلت برامجها، وفتحت صالة السبارغوSpargo لأنواع التجمعات العامة جميعها، من خلال تنظيم مناقشات واسعة النطاق، لم يقيدها سوى أنها تنتهي في وقت متأخر في ضباب ليلة ندية، يفوح منها دخان محفزات النقد.

في فترة ما بعد الظهر، كانت آنا تبرمج أفلام العام، طفل روز ماري - من إخراج رومان بولانسكي -الحفلة- من إخراج بليك أدواردز 2001-ملحمة الفضاء -من إخراج ستانلي كوبريك- قبلات مسروقة- من إخراج فرانسوا تروفو. وفي المساء، كانت صور ماركس ولينين وتروتسكي وماو وباكونين في أعلى الملصق، وكانت الجلسات تنتظم وفقاً لموجة من المجموعات الصغيرة، التي تحتشد متحمسة في الصالة، وتكافح لإثبات قدراتها الخاصة «لتوعية الجماهير».

كانت أمي تصطحبني أحياناً لحضور بعض هذه الاجتماعات. في الثالثة عشرة من عمري، اكتشفت أرضاً غير معروفة، لقد فتنت بهذه اللغة الجديدة المعبرة عن الحرية التي لم أسمع بها من قبل، هذه اللغة الغريبة إلى حد ما المسبوكة بالوقاحة، والغضب، وعدم الاحترام، والفكاهة، التي كانت تقصف الحياة في كل لحظة بعبارات لإيقاظ الموتى. من الواضح أنني لم أكن أفهم عملياً أي شيء مما يقال، أو ما كان يجري هناك، لكنني أدركت منشأ الذبذبة الصوتية للمعنى، وتواترها الأول، هذا الضرب يعود إلى «تشارلز الملك، إمبراطورنا العظيم، الذي بقي سبع سنوات كاملة في إسبانيا». وكان هذا ما يدور في رأسي، ربما، مثل هذه الأبيات الشعرية في رأس أجدادي، بعد تشظي سقف سيارة الستروين19 DS.

في قاعة مدخل السينما، قامت آنا بتثبيت لوحات إعلانية كبيرة مع جدول عروض السينما، وموضوعات المناقشات القادمة، ومجموعة من الشعارات التي كانت تلتهم بعضها الآخر، ورسائل ذات طبيعة إعلامية:

«كيفية صنع زجاجة مولوتوف حارقة: ملء ثلثي زجاجة بالبنزين، وثلثها بالرمل والصابون المجفف، وقطعة قماش مبللة بالبنزين تغرز في العنق». كانت هناك أيضاً عبارات سحرية مألوفة بشكل لا يمكن تفسيره دخلت إلينا، ووجدت مكانها على الفور: «التصق بزجاج النافذة، بين الحشرات». لم أنسها أبداً. ناهيك عن هذه العبارة: «نحن لا نريد عالماً فيه مقايضة الضمان بعدم الجوع بيقين الموت من الضجر». وبعد ذلك، على المكتب الكبير هذا، يمكننا قراءة المزيد من التحذيرات الهادفة، والملصقات، التي تستخدم حروفاً صينية للتحريض مثل «غودار، الأكثر غباءً من السويسريين الموالين للصينيين»، التي تسببت في شجار مثير، في القاعة وعلى الرصيف، بين الشيوعيين المعروفين بالتحريفيين والماويين العفويين، وأبناء عوائل محترمة. وأخيراً، كانت هناك الورقة 21 × 29.7، ربما تكون الأكثر سرية على الإطلاق، المثبتة في الزاوية اليسرى، وهي من أقل اللافتات وضوحاً، ولكن في إحدى الليالي جاء أبي إلينا أنا وأمي، وحاصرنا أمامها، مثل كلب الصيد الهنغاري: «كيف تفكران بحرية تحت ظل الكنيسة؟».

أمام هذا الملصق الصغير، ثارت ثائرة الأب والزوج على الفور، وتعالت أصواتهما، وكان رجل الكنيسة الساخط، المهان، ظناً منه أنه تعرض للخيانة من قبل عائلته، قد أعاد كل مجموعته الصغيرة غير المسؤولة إلى شقته بجوار النهر. بسيارته Ro 80 التي يقودها، المزودة بهذا المحرك الدوار المتقن للغاية، الذي اخترعه فيليكس هاينريش فانكل (1902–1988).

أتذكر كل ما حدث في تلك الليلة، الكلمات التي استخدمها كل منهما لزعزعة يقين الآخر، وحجم جهارة الأصوات المستخدمة لهذا الغرض، وكذلك أتذكر رطوبة الهواء الخانقة، ورائحة الطمي القادمة من النهر، وصوت الباب الأمامي الصاعق، عندما أغلقه والدي بعنف. في تلك الليلة، غادر رجل سكاجين الشقة في منتصف الليل، ليدفن نفسه في مكان ما في رمال غضبه.

ولكن قبل ذلك، كان القس قد عزز نفسه بغضب الله. وبلغته الفرنسية الممزوجة بلكنة سكان يوتلاند: «هل تدركين أنك ما زلت متزوجة من قس؟ سواء يعجبك ذلك أم لا، فهذا هو الواقع. وأذكرك أيضاً في هذا الصدد،

أن تتحلّي بأدنى قدر من واجب الحشمة التي تتمثل في عدم إهانة مهنتي كقس. لقد قبلت دون تردد ألا تطأ قدمك المعبد أبداً، ويعتقد معظم أتباعي أنني عازب. لم أقل شيئاً عندما أخبرتني أنك كنت تفتحين قاعة السينما كل ليلة لعقد لقاءات سياسية، انتهى بعضها إلى شجارات، أوقفتها فرقة الأمن الجمهوري. ولم تنبسي ببنت شفة، أيضاً، عندما تحدث عنك مقال في الصحيفة المحلية، كمناضلة ذات قضية في الحركة، وسينماك على أنها «إحدى البوتقات الفنية للطليعة الثورية». لكن الليلة عندما رأيت «كيف تفكرين بحرية في ظل كنيسة» وتلصقين الإعلانات على هذا النحو، في لافتاتك، وفي سينماك، شعرت حقاً بالخجل والإذلال. لم أستطع أن أفهم هذا، لا أستطيع أن أفهمه. ثم كيف يمكن لك أن تصطحبي معك ابنك البالغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، لحضور مثل هذه العروض، ومثل هذا البوح الذي يقول فيه هؤلاء الطلاب المتمردون كل شيء، وأي شيء، ويشتم بعضهم بعضاً. ما الذي يفعله المراهق في هذا العمر ليلاً في مكان كهذا؟ هل هذا الوضع طبيعي؟ أنا لا أعرف ما تريدين، يا آنا، لم أعد أفهم أي شيء».

لم يتأخر هجوم والدتي المضاد الذي كان مكثفاً كراجمات ستالين، في سقوطها على القس. وبشكل أو بآخر، كان منطق آنا مستمداً من منطق المناضلين الجدد وحججهم، الذين كانوا يريدون استعادة التحكم بحياتهم فقط، والتخلص من أربابهم وأسيادهم، وإعادة السلطة إلى الناس الذين يؤهلون المصانع، ولم لا، في نهاية النهايات، بلوغ المتعة دون معوقات.

بالنسبة لقس في ذلك الوقت، أن يكون دانماركياً من سكاجين، نجل صياد بين الصيادين، يتغذى على سمك الهوشع والأنقليس، وقد تربى تربية تقوم على الاحترام والتسامح، يجب أن ندرك أن الجرعة كانت عنيفة، ووحشية، ويصعب ابتلاعها برشفة واحدة.

لهذا السبب، في تلك الليلة، توقى يوهانس هانسن تبادل الكلام، فضرب بابنا الأمامي بعنف، ونزل بسرعة على الدرج الحجري، وركب سيارته التي هدر محركها المميز ومضى بعيداً عن عائلته، سالكاً رصيف شارع لومبارد، المحاط بالأشجار العملاقة. غير قادر، في الأساس، على كشف خيوط الخير والشر، غير قادر على معرفة ما ستكون عليه عقائد العالم في المستقبل، غير

قادر على الكشف عما خفي داخله. في تلك الليلة، لم يسعه أن يكون سوى عسلوج صغير في شجرة الإيمان.

***

كانت فسحة بعد ظهر اليوم قصيرة. فعند درجة حرارة ناقص 20، يوافق القليل منا على الخروج لاستنشاق الهواء في الفناء. لقد كنت أنا وباتريك على نحو استثنائي، على الرغم من أنني بالكاد أستطيع تحمل درجات الحرارة هذه، التي تحرق القصبات الهوائية، وتجمد الأطراف. من ناحية أخرى، يبدو أن (هورتون) مصمم بمواد عازلة تعزله عن عالم الشتاء. ففي درجات الحرارة المنخفضة، يستلقي على مقعد كمال الأجسام، لقد رأيته في هذا الفناء، وهو يمارس التمارين، كما لو كان يرفع ذوبان الثلوج في الربيع بأذرع عارية. إنه يحب تماماً أن يؤشر هيمنته الذكورية على مقاطعته بهذه الطريقة، ويتباهى بقدراته الجسدية لإثارة الإعجاب وإبعاد الحراس والسجناء، ومعظمهم لا يفهمون سوى الأبجدية البدائية، ولغة التخويف وجهاً لوجه.

اليوم، وللمرة الأولى، أخبرني عن والده، أستاذ الهندسة الميكانيكية في كلية التعليم العام والتعليم المهني. رجل لم يره قط يتمتع بعطلة أو استراحة، كان دائماً منكباً على تدريسه، ويقوم بحماس بتهيئة مئات المراهقين لوظائفهم المستقبلية. ووفقاً لباتريك، يذهب إلى حد نسيان زوجته وأطفاله الثلاثة، الذين اعتاد على تجاهلهم عندما كان يصادفهم في المنزل. «في البداية، عندما كنا أطفالاً، تساءلنا أنا وأخي وأختي، فيما لو كنا قد ارتكبنا خطأً حتى تتم معاملتنا بهذه الطريقة. فذهبنا ذات يوم، وطرحنا السؤال على والدتنا. وهنا أجابتنا الإجابة الأكثر غباء من الإجابات الغبية جميعها: «لديه الكثير من العمل». لقد فهمنا أن الأم لا تريد التحدث عن كل هذا. لذلك تصرفنا مثله، وعشنا متظاهرين، وكأنه لا وجود له بيننا.

وعلى الرغم من كل شيء، ذهبت ذات يوم، واختبأت بالقرب من كلية التعليم العام والتعليم المهني، لأرى كيف كان يتصرف والدي مع الآخرين. وياللعنة، رأيته فيما بين محاضرتين، وكأنني لم أره قط، كان يتصرف تصرف

شاب، يتحدث إلى الطلاب جميعهم، ويمزح مع هؤلاء الطلاب الملاعين وهو يبتسم، ويرعى هؤلاء الأطفال كما لو كانوا أطفاله. وأسوأ ما في الأمر، كان يبدو أنه يحبهم. ولكن في الحقيقة، لقد كان يتحدث إليهم بأمور خلال هذا الفصل أكثر مما فعله لنا طوال حياتنا. لقد بكيت ذلك اليوم، أقسم لك. لم أخبر أخي وأختي بشيء. واصلنا العيش في هذه الخدعة الغريبة، وحالما استطعت هربت من المنزل. اليوم، هذا الأحمق متقاعد. ولاتزال والدتي معه. أتصل بها على الهاتف من وقت لآخر. لم نتحدث عنه أبداً.. وكأنه ميت».

ذهبنا وجلسنا لحظة على مقعد كبير مثبت في أرضية الفناء. لم نقل كلمة واحدة. كانت الريح القارصة تخدش وجوهنا، وتتسلل عبر عقد الخيوط المحاكة لقبعاتنا الصوفية. كان المساء يهبط ببطء، وسرعان ما سيصبح هذا المكان مظلماً مثل قبر. اقترب سجين لا أعرفه، وجلس في الطرف الآخر من المقعد. وقبل أن يتمكن حتى من أن يأخذ راحته، قال هورتون بالضبط، ودون النظر إليه: «اغرب عن وجهي». صُعق الرجل، وقفز. وسرعان ما ابتعد عنا، مثل رجل رأى للتو هوة تنفتح تحت قدميه.

عندما عدنا إلى زنزانتنا، وجدنا في داخلها حارسين، وقد قلبا أشياءنا رأساً على عقب، كانا يفتشان في كل زاوية. كانت منشفة الوعاء ملقاة على المرتبة، وحفنة من القمصان مرمية أسفل المرحاض، بينما تناثرت أنابيب معجون وفرش الأسنان على الأرض. «اللعنة، ماهذا بحق الجحيم؟، ما الذي تفعلانه هنا، أيها السياميان؟». كان التفتيش في كل التفاصيل، فلقد تم العثور على المخدرات في زنزانة من زنازين قطاعنا. عندما كان الحراس على وشك مغادرة الغرفة، أشار إليهم هورتون بالاقتراب. «اللعنة، لم يكن في وسعكما العثور على أي شيء، لقد خبأت كل شيء هنا». وكان وهو يطابق الفعل بالقول، أمسك باتريك قضيبه وخصيتيه من خلال بنطاله، ولوح بهما للحظة أمام أنظار الحارسين. لم يكن لدى أي من «السياميين» الرغبة في التحقق من مزاعم هورتون. وبعد أن رأى أنه كسب الرهان، توسع في استفادته «هنا الكثير من ذلك وهو جيد».

عندما أغلق الباب، كان لا بد من إعادة كل شيء إلى مكانه، وطي الملابس وتنظيف ما تلوث منها. ظل باتريك يتذمر، ويدمدم غضباً، مثل الغوريلا

المحبوس بعيداً عن عائلته، وقد أساء الحراس معاملته. ثم، وبعد أن عاد كل شيء نظيفاً مرة أخرى، بسط كراسته للرسم، وأخرج أقلام الرصاص، وأخذ يرسم يدوياً بعض الخطوط المستقيمة، وبعض الخطوط الأخرى المكسورة بدقة، ثم بدأ يرسم خطوطاً منحنية منتظمة، ومتعرجة تقريبية ومثل تلميذ من مدرسة سكاجين غرق بصمت في عالم الأضواء المثالية، وشبه الجزيرة هذه التي لم يكن فيها للآباء وجود على الإطلاق، وهذا المكان الذي يعرفه هو وحده فقط حيث كان يسعى -وقد فشل في إعادة تشكيل العالم- منذ الطفولة، لإعادة تصميمه.

***

استغرق الأمر بعض الوقت لتضييق الفجوة التي رسمها مايو – أيار 68 في حياة والديّ. كانت والدتي وهي في الثامنة والثلاثين، أول من حشرت رأسها في ماكينة عصّارة التاريخ هذه، بينما على الجانب الآخر من النافذة، كان أبي، يشبك يديه خلف ظهره، ولم يكن لديه خيار سوى أن ينظر إليها، وهي تدور حول نفسها.

في السنة التي تلت الأحـداث، حاول والداي إصلاح الضرر الذي لحق بعلاقتهما الزوجية، الذي سببته معارك الأعياد. في صيف عام 1969، قررت الأسرة بأكملها، بعد أن استقلت السيارة NSU Ro 80 ذات المقاعد المخملية أن تقطع مسافة 2420 كيلو متر، تفصل بين كوكبين ينتميان إلى أنظمة شمسية مختلفة جذرياً. على الرغم من جميع التوقعات، أثبتت تقنية المحرك «الدوار الثنائي» تفوقها، فالتهمت الرحلة في أكثر من يومين بقليل، بينما كان كل من آنا ويوهانس يتناوبان القيادة. كانت هذه هي المرة الأولى التي أقيم فيها في يوتلاند. منذ وصولي، كانت الرياح التي تجرف الكثبان الرملية تهزني، وتغمرني في هذا الضوء الشفاف، الذي كان يترك طبقة فضية على أدمة المياه، محاطاً بعطف عائلة كثيرة العدد مثل جيش صغير، وفجأة انتابني شعور غريب هو أنني أعيش وسط أسرتي. وكنت مثلهم، سرعان ما كنت أتحدث إلى سمك الرنكة، وفك شفرات العواصف، ضمن اثنين آخرين من عائلة هانسن، وبالقرب من صوامع المستودع، كنت أضع فتات السمك أيضاً في أكياس مخصصة لإطعام الأسماك الأخرى.

كان جميعهم يتحدث بصوت عال، والضحك يتفرقع كضربات السياط في كل ركن من أركان الغرفة الكبيرة، التي كنا نجتمع فيها. كانت هناك كل أنواع الأطعمة في أطباق صغيرة، لم تصمد أمام شهية جوع العمالقة مدة طويلة. لم أفهم أنا وأمي الكثير مما قيل، لكن مسك كل منا كأسه بيده بإحكام، وحاولنا جاهدين تجميد ابتسامة أصولية على شفاهنا، مثل سائحين إنجليزيين في إجازة، دخيلين خجولين متلهفين إلى التدخل. في بعض الأحيان، كان أبي يأتي إلينا، ويمسك بنا من خاصرتينا، ويقدمنا إلى أحد أفراد هانسن أضخم من السابق، والذي كان ينفجر من الضحك، وهو يستمع إلى يوهانس، الذي يحكي له حكاية تتعلق بنا، ولكننا أنفسنا لا نعرف عنها شيئاً تماماً. ثم، شيئاً فشيئاً، تفرغ الغرفة من شاغليها رجالاً ونساء، الذين سيجتمعون في الفناء. ومثلما كانوا يتجمعون، في قرن آخر، حول عربة جديدة لفريق من الفريزيون[12]، يشكلون الآن حلقة حول السيارة Ro 80. لقد رفع والدي غطاء المحرك، وكشف لعائلته أسرار المحرك ذي المكبس الدوار (فانكل) Wankel، وهو يشتغل وفقاً لدورة الأشواط الأربعة. كان آل هانسن يستمعون إلى تفسيرات والدي بصمت موقر، وبالكاد كانت تزعجه بعض تقلبات الريح التي تطلق صفيراً بشكل هادئ من حافات المنزل الحادة. بدا الأمر وكأنه تجمع لعدد من المؤمنين الذين سحرتهم موعظة ميكانيكي، وهو يحكي لهم عن صناعة متأنية ورائعة لعالم مثالي.

أدركت في وقت مبكر أن الديانة البروتستانتية كانت رياضة ذات متطلبات قليلة نسبياً، وذات قواعد مرنة إلى حد ما، وتبتعد عن الأطر الجامدة وأغلال الطقوس الكاثوليكية. فكل أبرشية لها الحرية في تنظيم قداسها بالشكل الذي تراه مناسباً، لا توجد مركزية، ولا يمتلك القساوسة أية سلطة حقيقية. يعلقون بشكل أساسي على النصوص الدينية، أو يدعون المتحدثين الفاعلين لإحياء اجتماعاتهم الأسبوعية وتنشيطها. وهكذا في يوم الأحد التالي لوصولنا، وجه هنريك غلاس راعي أبرشية سكاجين، الدعوة لوالدي ليتخذ

12- الفريزيون: نسبة إلى فريزيا أو فريزلاند، وهم أعضاء قبيلة جرمانية تقطن ساحل بحر الشمال في هولندا وألمانيا. ويُعد الفريزيون في ألمانيا وهولندا أقلية، أو جماعة عرقية معترفاً بها – م.

مكانه أمام الميكروفون لقيادة التجمع، حيث يرى ذلك مناسباً. وبالتالي وفقاً لما لخصه، بدأ يوهانس الحديث عن رقصة الرمال، التي دفعتها هذه الرياح القادمة من جميع أنحاء العالم، وهذه العواصف المتجددة والإغراءات التي قوضت حياتنا شيئاً فشيئاً، وزحفت ودفنت كنائسنا وإيماننا. واستحضر الاضطرابات التي كانت تحدث عبر الزمن، والشكوك والأسئلة المشروعة التي ربما يثيرها كل واحد منا، وسبك بعض الاستعارات الأخرى التي نسيتها، قبل أن يختتم فكرته المعتادة، حول الكنيسة المدفونة، والواجب الملقى على عاتقنا، في أن نحفر طوال حياتنا، ونزيح الرمال حتى نتمكن من الاستمرار في أن نكون معاً، كل يوم أحد، في مسكن إيماننا. بدت مداخلته مثيرة لإعجاب السكان المحليين بشكل كبير. ففي فناء الكنيسة، تحلقوا حول أبي ليشكروه ويهنئوه على هذه الموعظة الرائعة. هذا الترحيب الحار جعل والدي يشعر بالخجل من السعادة، حيث كانت النصوص التي أحنى ظهره من أجل كتاباتها تنتهي به دائماً إلى التشتت في عدم اكتراث مستمعيه في تولوز. كنت أنا وأمي، ومن خلال معرفتنا الكلام المكرر عن الرمال عن ظهر قلب، نبقى متخلفين عن الركب في بلد الدانماركيين، ننتظر بأناة أن يهدأ الحماس الشعبي، كي نذهب لتناول الغداء مع العائلة على طاولة الغيلان.

أثناء مغادرتنا، وبينما كنا جالسين بالفعل في السيارة Ro 80، توجه رجل بخطوات مسرعة نحو نافذة والدي المفتوحة. تبادلا بضع كلمات، ورأيت يوهانس، وهو يبتسم أجمل ابتسامة له. نزل من السيارة وفتح غطاء المحرك السخي. واستتبعا حديثاً مطولاً حول المزايا النسبية لمحرك فانكل. كان محاوره، وهذا ما علمنا فيما بعد أنه كان على وشك أن يشتري صندوق الحزن نفسه، يستمع بقدسية لقسه، الذي لا يفوته أن يشهد له على إيمانه بهذه الابتكارات الميكانيكية. وفي ذلك الوقت، كانت تثير المزيد من البذخ الذي يفوق الوصف.

خلال هذه الإقامة في يوتلاند، وفي سن حرجة، أدركت أيضاً أن والدتي تحب الدانماركيين. فأينما نذهب، كنت أرى أن أناقتها ومرونتها وجمال ملامحها مبعث جلب انتباه الرجال. ليس من السهل على مراهقٍ في الرابعة عشرة من عمره أن يكتشف أنّ لديه أماً مثيرة، أصبحت بمجرد حقيقة هذه

الكلمة وحدها، امرأة تهرب من الطفولة، وتخرج عن نطاق شخصيتها، فتجسد شخصية ما مختلفة لم تعد تعرفها، وتمتلك قوة غريبة، وإن كانت زوجة قس، لإثارة الرجال، لأنها تمتلك سحراً إلهياً، وتمتلك هذه الصفات، وهذا الحصيلة السحرية، وهذه المظاهر الخفية التي يحلم بها كل الرجال في العالم. كانت تبلغ من العمر تسعة وثلاثين عاماً، وكانت هي والدتي، ولكن كان عليّ أن أتعرف على هذه المرأة الجديدة التي ستعيش معنا الآن كل يوم في المنزل. كانت الرحلة الدانماركية مثيرة للغاية بالنسبة لنا جميعاً. لقد وجد والدي رائحة أرضه، وصخب بحريه الاثنين ودفء شعبه. أما والدتي فقد اختطفها جمال الطبيعية المتألق. بينما تعلمت أنا بعض الجمل الأساسية مثل Eat tak / «شكراً جزيلاً» وJegerikkesultenlængere / «لم أعد جائعاً»، و Jegersøvnig / «أنا نعسان»، و Hvorer min far / «أين أبي؟» و Det erensmukbåd / «هذا قارب جميل». تعلمت أيضاً على الرغم من تعليمي الفرنسي، دروس أساتذتي ولغتي الأم، فقد كنت في المقام الأول أنتمي إلى عائلة هانسن. وهناك شيء ما لا يمكن تحديده يخطر في داخلي في هذا المكان، ويقودني دائماً إليه.

تعالوا لنكتشف لماذا، وضعت في بالي وأنا في سن الرابعة عشرة، أن أعود إلى هنا، عندما تحين الساعة، لأموت بين العمالقة.

لم تشبه رحلة العودة الرحلة الأولى الخالية من المتاعب التي قادتنا إلى طرف شبه الجزيرة. فقد حدث أول عطل في السيارة في مدينة آرهوس، حيث انبعث صفير طويل، واهتزازات خفيفة، ثم استسلم المحرك إلى قيلولة قصيرة مدة ثلاث ساعات. فقد توقف ناقل الحركة المتحكم بعلبة السرعة شبه الأوتوماتيكية. قام ميكانيكي محلي بمعالجة الأمور باتجاه مواصلة المسيرة، إلى أن تعطلت مضخة الوقود، مما أدى إلى توقفنا في هامبورغ ليلاً. في اليوم التالي، ذهبنا إلى مدينة دورتموند التي فيها وكيل شركة NSU المحلي الذي استقبلنا في ورشته، حيث قام بإجراء إصلاحات للسيارة، بتبديل أدوات احتياطية جديدة. ثم غادرنا في اليوم التالي بعد الظهر، دون معرفة أسباب العطل. حاول الفني الألماني جاهداً أن يشرح باللغة الإنجليزية أصل العطل في الجزء الذي يبدو مختفياً في مكان ما من أسطوانة محرك

الاحتراق الداخلي. وعلى الرغم من أن الرجل كان يكرر «علامات الذبذبة» أو «الصندوق الدوار» وهو يوجه سبابته إلى جزء مرتفع من المحرك، لم نكن نفهم جميعاً أنا ووالدي وأمي، ما كان مختبئاً وراء التذمر ولغة الإشارة هذه. وفي أثناء النقاش، استخدم الميكانيكي كلمة متداولة، ومشتركة بين الألمانية والدانماركية والفرنسية: «الضمان». وهو يضيف عدة مرات بالألمانية: Keine Geld, nein, keine Geld (دون دفع المال، كلا، دون دفع المال) وهذا يعني، بلغة أكثر وضوحاً: «لقد اشتريت سيارة سيئة، وإن شركة NSU الألمانية لصناعة السيارات تدرك تماماً استخدام الضمان، وتتحمل مسؤولية التصليح. ولا يستوجب عليك أن تدفع شيئاً».

لقد قطعنا آلاف الكيلومترات المتبقية دفعة واحدة، مثل ما يتجرع المرء جرعة مريرة. باريس في الليل، الطريق الدولي 20، إتامب، أورليان، شاترو، ليموج، بريف، قاورش، وعند الفجر، في سطوع الفجر الوردي، كان الانحدار البطيء نحو سهول نهر الغارون.

بعد أن أوقف اشتغال السيارة عند توقفها بالقرب من رصيف لومبارد، مسح والدي بيده على وجهه وقال: «يا لها من رحلة مزعجة». أنزلت والدتي زجاج نافذة السيارة، ونظرت نحو النهر. والغريب، على الرغم من الوقت ومعوقات هذه الرحلة المرهقة، لم يكن ليبدو عليهما أنهما في عجلة من أمرهما، لمغادرة هذه السيارة، لاستعادة حياتهما الاعتيادية، وكأنهما يفضلان إطالة القليل من هذا الانطباع في المشاركة التي جمعتهما طوال الرحلة غير المتناهية، وهما يتناوبان خلف مقود القيادة، ليحققا معاً إنجاز عمل مشترك، والعودة إلى حضن شقتهما، حيث كان كل منهما يخشى في الخفاء أن يصفق باب الدرج مرة أخرى في يوم من الأيام. قال والدي: «علامات الذبذبة». ردت والدتي وهي تبتسم: «الصندوق الدوار». ثم ترجلا من السيارة Ro 80.

***

في هذا الصباح، تلقيت رسالة من القائم على تقييمي. يسألني فيها فيما إذا كنت أوافق على المشاركة في ورشة تحرير محضر يشرف عليها طبيب نفسي، يشرح خلالها كل مشارك للآخرين «مسيرة حياته»، والأسباب التي

قادته إلى سجن بوردو. لو فهمت كل شيء بشكل صحيح، فستعقد الجلسة على طراز اجتماعات مدمني الكحول مجهولي الاسم. «مرحباً، اسمي جون، أنا هنا بسبب استخدام العنف المفرط، ولم أضرب أحداً منذ ثمانية أشهر». الكورس: «أحسنت، يا جون». تصفيق

إن القاضي على دراية تامة بأفعالي. لقد سمع الشهود جميعهم، واستجوبني مطولاً. وحكم عليّ بالسجن مدة عامين. لقد قيل كل شيء. إذا أرادوا التوسع في قضيتي قبل الموعد النهائي، فإن الأمر متروك لهم لتحمل المسؤولية. لن أنقر بضعة بذور ندم من أيديهم، للتوسل من أجل شهرين من الحرية.

لن أرد على فيغو مورتنسن. لقد كونت عنه فكرة أخرى. وأراه مخيباً للآمال.

«اللعنة عندما تصادف مثل هذه المكائد، فهذا يجعلك تشعر بالخوف حقاً». هل سبق لك أن قرأت الكتاب المقدس؟ حسناً! أنا أتحدث إليك، اللعنة، الكتاب المقدس. «هذا هو السؤال الأخير الذي كنت أتخيل أن يسألني إياه باتريك يوماً ما. كلا، أنا ابن قس، لم يسبق لي أن قرأت الكتاب المقدس أبداً. ولكنه من أين حصل على هذا الكتاب؟». كانت والدتي هي التي وضعته في حقيبتي عندما ذهبت إلى الحفرة (السجن). قالت لي: «هذا لن يجعلك تصاب بالأذى». اللعنة، لقد فتحت هذا الشيء قبل عشر دقائق، وصدقني إنهم رهبان صارمون، وعندما يتكلمون، أؤكد لك أن الأمر يعني شيئاً آخر غيرنا. سينطلق قضاة وديعون مع طيور من هذا القبيل. استمع لي. قبل النص، أعطيك اسم الرجل الذي كتبه، والرقم المرافق للنص، والذي يبدو لا يشبه أي شيء. (إشعياء 65:12). «فَإِنِّي أُعَيِّنُكُمْ لِلسَّيْفِ، وَتَجْثُونَ كُلُّكُمْ لِلذَّبْحِ، لأَنِّي دَعَوْتُ فَلَمْ تُجِيبُوا، تَكَلَّمْتُ فَلَمْ تَسْمَعُوا، بَلْ عَمِلْتُمُ الشَّرَّ فِي عَيْنَيَّ، وَاخْتَرْتُمْ مَا لَمْ أُسَرَّ بِهِ». أليس كذلك؟، ولكن كيف يقوم الرجل بهذا الدور. الجو حار، اللعنة، إنه حار حقاً. انتظر، هنا أيضاً: (متى 25:30). أَمَّا هَذَا الْعَبْدُ الَّذِي لَا نَفْعَ مِنْهُ، فَاطْرَحُوهُ فِي الظُّلْمَةِ الْخَارِجِيَّةِ، هُنَاكَ يَكُونُ الْبُكَاءُ وَصَرِيرُ الأَسْنَانِ! وآخرها يا للهول: (سفر اللاويين 20:15). «وَإِذَا جَعَلَ رَجُلٌ مَضْجَعَهُ مَعَ بَهِيمَةٍ، فَإِنَّهُ يُقْتَلُ، وَالْبَهِيمَةُ تُمِيتُونَهَا». دون مزاح «إن

الرجال مهوسون بالقتل قتل البهيمة. أجل، ولكن انتظر، البهيمة لا علاقة لها بقصصهم».

يحلق الكتاب المقدس تحليقاً مهيباً في الزنزانة، ومثل طائر أصابته طلقة، واصطدم بجدار مبقع بالملح الصخري، نسمع خلفه هياج القوارض.

في منتصف الليل، أخذ باتريك هورتون يصرخ صراخاً شديداً مفجعاً، لدرجة أنه ألقى بي خارج فراشي، وتسبب في مقدم اثنين من الحراس السياميين، المجهزين بالصواعق والهراوات على وجه السرعة، لإنهاء ما اعتقدا أنّه اعتداءٌ عنيفٌ. «رأيته كان هنا، كان يمشي على بطني وكان ينظر إلي. لا أعرف ما إذا كان الفأر كبيراً أو جرذاً، ولكن، اللعنة، كان هذا الحيوان الصغير يسير فوقي. لقد رأيته، أيها الرئيس، لقد رأيته. لا بد لي من تغيير الزنزانة، لا أستطيع البقاء هنا. لا أستطيع تحمل القوارض، حقاً، لقد سئمت. يجب أن تفعلا شيئاً، تباً، استدعيا المدير، ومن تريدان، ولكن افعلا شيئاً». وبعد أن كنت مندهشاً أمام مشهد انهيار أسطورة سقوط زعيم، حاول الحارسان أن يشرحا له أنه لا يمكن إيقاظ المدير من أجل حكاية الفئران. ويعرف جميعهم أن السجن كان مسرحاً هائلاً لها، فهو يكتظ بكل أنواع الآفات المؤذية التي تتدفق إليه. وعليه على الرغم من إدراكنا للأمور، لم يكن من الوارد استقدام المدير من أجل ذلك.

لقد انتقم الكتاب المقدس. واستغرق السياميان الوقت، ليشرحا الوضع بالتفصيل إلى باتريك، قاتل الملائكة المخيف. في الساعة الثانية صباحاً، تحدث إليه الحرّاس بالرفق ذاته، والتعاطف العقلاني الذي تبديه الأمهات، عندما يتعلق الأمر بتهدئة أطفالهن المذعورين على مشارف كابوس مرعب في منتصف الليل. «لا أستطيع. أكاد أن أجن، لا أستطيع. أخرجوني من هنا. إذا لم تكن لديكم زنزانة أخرى، اسجنوني في المستشفى. دون مزاح، سأصبح مخبولاً. الفئران، اللعنة، لا أستطيع. هيا، تباً لي، خذوني إلى المستشفى». قد يبدو الأمر غير معقول على الإطلاق، فقد قام الحراس بإجراء مكالمة لاسلكية إلى حارس في غرفة العلاج، وأومأوا إلى هورتون. ومثل صبي أعفي من عقاب جسيم، ارتدى سترة وسروالاً على عجالة، ودون النظر إلى إشعيا أو متى أو لي، خرج من الزنزانة كشخص مقتنع أن الموت يطارده.

عمق المضائق

أدركت في وقت مبكر أن والدي لن يكون أبداً فرنسياً حقيقياً، وهو أحد هؤلاء الأشخاص المقتنعين أن إنجلترا كانت دائماً مكاناً للدمار، وأن بقية العالم ضواحي بعيدة تفتقر إلى التعليم.

هذه الصعوبة التي واجهها في العيش في هذه البلاد، في فهمه لها، وفي تحمل عاداتها وتقاليدها، كانت تثير استياء والدتي، لدرجة أن نقاشاتهما المتكررة حول هذا الموضوع غالباً ما كانت تؤجج نقاط اختلاف أخرى. على الرغم من السنوات الست عشرة التي قضاها بالفعل في فرنسا، ظل يوهانس هانسن دانماركياً لا يمكن أن يتزعزع، آكل للسندويتش smørrebrød، رجل من شمال يوتلاند، جاد عند كلمته إذا وعد، ينظر إلى الآخر مواجهة، ولكنها نظرة خالية من هذا المنطق الجاف الشائع في بيتنا، سريع جداً في إنكار الأدلة، والتنصل من التزاماته.

من بلده المضيف، كان يحب قبل كل شيء: اللغة التي كان يستخدمها باحترام غير متناه وبدقة قواعدية بالغة. أما ما تبقى، فكان يبدو أنه يواجه أسوأ المصاعب في العثور على حياة تتناسب وحجمه. كان يقول أحياناً: إن فرنسا من بين جميع الدول التي كان يعرفها، كانت هي الدولة التي واجهت صعوبة كبيرة في تطبيق الفضائل الجمهورية والأخلاقية التي كانت تطالب بها دول أخرى، خاصة في المساواة والأخوة. «إن رؤساءك وماركيزيك الصغار، المتوجين بالمزايا يشبهون الملوك أكثر من ملكتنا البائسة مارغريت الثانية». هذا ما كان يحب في كثير من الأحيان أن يكرره على الطاولة ليثير أمي. كما كان يشعر بكثير من الألم للغطرسة والقابلية على الكذب والخيانة، التي

يقول إنه رآها تقطر من حكوماتنا. أما بالنسبة لساستنا، فلم يكن يستطيع أن يتخيلهم، إلا وهم يتخبطون في حمامات الفساد والشبهات.

وعند ذاك كانت آنا تقطع سيل الملامة المتواصل هذا. «ولكن بعد ذلك، لماذا تعيش هنا؟ أنت حر في العودة إلى بلدك». لم يرد أبي بشيء مطلقاً، لكننا جميعاً كنا نسمع رنين صوته الرقيق: «ابني هنا وأنا أحبك».

على الرغم من إنني ولدت وتعلمت في فرنسا، إلا إنني غالباً ما كنت أشارك والدي وجهات نظره ومشاعره السلبية حول بلدنا. كنت أفهم تماماً أن رجلاً بمكانته، نشأ في عواصف المسالمين والأمميين، يشعر بالمضايقة من الفانيلة السداسية، التي كنا نحاول أن نرتديها. ومن ثم كان ابنه هنا، وعلى الرغم من أن الأمر أصبح أكثر تعقيداً، إلا أنه كان لا يزال يحب زوجته.

استعادت صالة سينما السبارغوSpargo هدوءها الأول، وحلقات مدها وجزرها التي كانت تخضع لإيقاع إصدارات الأفلام الناجحة. في عام 1970، من بينها: فيلم الدائرة الحمراء وهو -فيلم إجرامي فرنسي إيطالي عام 1970 تم تصويره في باريس. إخراج جان بيير ميلفيل- وتريستانا -وهو فيلم درامي يعود إلى عام 1970 من إخراج لويس بونويل، والرجل الكبير الصغير- وهو فيلم غربي أمريكي 1970 من إخراج آرثر بن -والجزار- وهو فيلم إثارة نفسية فرنسي 1970 من تأليف وإخراج كلود شابرول -وفيلم ماش- وهو فيلم كوميدي تم إنتاجه في الولايات المتحدة، وصدر عام 1970. الفيلم من إخراج روبرت ألتمان -وفيلم الاعتراف- وهو فيلم فرنسي إيطالي 1970 من إخراج كوستا غافراس - هذه الأفلام أهدت والدتي واحدة من أفضل سنواتها. كان الإنتاج يحفل بالجديد الرائع الذي يتناسب تماماً مع علبة مجوهراتنا الصغيرة «سينما بيت الفن» التي كان صداها لا يزال يتردد. وسرعان ما أصبحت رائجة في المدارس الثانوية، بفضل موقف أمي والهوس السينمائي، الذي كان يجتاح الشباب في ذلك الوقت.

من ناحيتي، رأيت كل هذه الأفلام التي تعرضها صالة سبارغو، الواحد تلو الآخر. في بعض الأحيان، بمرور الأيام -ولكن غالباً في وقتٍ متأخرٍ من فترة الصباح- وبمناسبة خاصّة، ولمشاهدة فيلمٍ مؤثّرٍ، كانت أمّي تنظّم

عرضاً «عائلياً». ولذلك كانت لنا صالة خاصّة بنا. نجلس فيها جنباً إلى جنب أنا ووالدي ووالدتي، ونشاهد فيلماً روائياً طويلاً يعرض على شاشة كبيرة. كنت أعيش هناك لحظات لا تنسى، في الوقت الذي كانت فيه صور بكرات الأشرطة السينمائية تمنحنا، في هذه الصالة الفسيحة، كل ملامح الأسرة الموحدة.

كان والدي يتحدث قليلاً جداً عن الكنيسة، وما كان يؤديه فيها. كان يبدو، وبعيداً عن أدائه الدانماركي المتوج بالخطب النارية، أنه لا يقدم هنا سوى الحد الأدنى من الخدمة دون مبالاة مهذبة. كان يكتب دائماً خطبه بجدية، ولكن يبدو أن هناك شيئاً ما في داخله مخيباً للآمال. لم تتردد والدتي إلى كنيسته أبداً، أما أنا، فلم أزرها منذ وقت طويل، لأستمع إلى كلامه الفارغ الذي كان يدور، على غرار كلام زملائه ومنافسيه، على مدار قرون حول قصص الأنبياء.

في بعض الأمسيات، وفي أثناء انتظار والدتي، كان يوهانس يعد لنفسه كأساً من الكحول، ويجلس أمام النافذة الكبيرة قبالة النهر. وفي الصيف، عندما تمطر، يفتح الأبواب على مصاريعها للاستماع إلى صوت المطر، ورائحة الحياة الرطبة المنبعثة من الأرصفة. ربما يعتقد المرء أن رجل كنيسة من هذا النوع، بإيمان مثير للإحباط، ومخيب للآمال أحياناً، أنه كان سيختار باخ أو هاندل ليعفر هذه الأمسيات المنعزلة. في الواقع، في لحظات خيبة الأمل هذه، كان والدي يستمع إلى تسجيلات يبدو أنها سقطت من الرف، على شكل مبعثر: لي كونيتز –مؤلفُ موسيقى الجاز وعازف ساكسفون ألتو الأمريكية– فرقة إيمرسون ليك وبالمر –وهي فرقة موسيقية إنجليزية تشكلت في عام 1970، على يد غريغ ليك وكارل بالمر وكيث ايمرسون– ستان جيتز –و هو عازف ساكسفون، وعازف جاز أمريكي– والمغني الأمريكي كيريسمايفيلد، وفرقة الروك الانجليزية لد زبلين، كانت هذه هي التسجيلات التي تتوالى على نظام ستيريو مارانتز المقترن بمكبرات صوت JBL التي اختارتها والدتي شخصياً. كان الصوت، في زمن والديّ، يحظى بأهمية قصوى لم يحظ بها اليوم. كان هناك شوط مذهل للأداء، للارتقاء بشوائب القرص، ومخرجات السرعة وحشرجة الدورات الثلاث والثلاثين

المحروثة بأخاديد من الماس. بالنسبة للقس، كانت هذه الموسيقى تأتي من السماء دون شك، عبر قنوات غامضة من مكبرات الصوت، وعبر وسائط روحية وجيل طفرة المواليد، ابتكرها جيمس بولوغلانسينج (JBL) أحد رواد مهندسي الصوت ومصمم مكبر الصوت الأمريكي، وتم تجميعها في نورث ريدج، كاليفورنيا[13] لو كان يوهانس لا يزال من هذا العالم، ويكتشف مآسي حياتي المثيرة، فلا شك أنه سيكون على الأقل راضياً عن قراءة هذا التدوين غير المجدي، ولكن الدقيق حول أصل مكبرات الصوت عندنا. «اليوم، أصبح العالم أكثر تعقيداً من أن يكون راضياً بتقديرات تقريبية أو تفسيرات ضبابية أو ملاحظات غامضة. وأعتقد أكثر من أي وقت مضى، أنه يجب علينا أن نسعى جاهدين، من أجل الصواب والدقة وتسمية التفاصيل. في الماضي، كان بإمكانك إغراء روح رجل له صورة تقية، دون طلب أي شيء غير البركة. أما اليوم، للحصول على ما جئت لتطلبه، سيكون من الضروري مرافقة هذا الراهب، والإجابة عن أسئلته، وتهدئة مخاوفه، والاحتفاء به بإيماءات واعظ متأنية، أتعبه مدمنو الكحول المجهولون».

هكذا كان يتكلم أبي. عندما كان قد أنهى كأسه الأول أو الثاني، في مواجهة المطر، يحدثني أحياناً عن هوسه، وعن تلك الساعات التي «أمضاها

13- أنشأ باحثان أمريكيان نيل هاو و يليام شتراوس عام 1991 ما يسمى بـ«نظرية الأجيال» وأساس هذه النظرية - قيم الطبقة المتوسطة، حيث يتم تشكيل جيل من القيم، بدلاً من العمر. ويجمع المجتمع الحالي بين عدة أجيال: جيل طفرة المواليد (1943-1961) جيل X (من 1961-1982) جيل Y أو جيل الألفية (1982-2004) وجيل Z ابتداء من 2004 تم استخدام المصطلح طفرة المواليد منذ أواخر القرن العشرين، للإشارة إلى الزيادة المؤقتة الملحوظة في معدل المواليد. ووفق قاموس أكسفورد للغة الإنجليزية، فإن أول استخدام مسجل لمصطلح «طفرة المواليد «baby boomer» كان عام 1970 في مقال في صحيفة واشنطن بوست. ومن بين التعريفات الأخرى لطفرة مواليد الأطفال الحقبة التي تبعت الحرب العالمية الثانية، والتي تقع في الفترة بين 1946 و1955.

وقد اكتشف الأطفال الذين ولدوا في طفرة المواليد أن الموسيقى الخاصة بهم، وأهمها روك أند رول، كانت تعبيراً آخر عن هويتهم فيما يتعلق بالأجيال. وكانت أجهزة الراديو الترانزستور أجهزة شخصية سمحت للمراهقين بالاستماع إلى فرقتي ذا بيتلز وذا موتاون ساوند. وهم من جسد التغيير الثقافي في ستينيات القرن العشرين - م.

في منتهى الإيمان» فذات مساء عندما كانت والدتي ترتقي السلالم على مهل، ربما في هذه المرة يكون في أعقاب احتساء كأسه الثالث، وبينما كان المطر لا يزال يلعق نوافذ الشقة، تخلى فجأة عن الكأس، وفتح الجدار الحاجز الذي كان عليه أن يتشبث به منذ مدة طويلة. لم يعد لدي إيمان، ولا حتى ليوم واحد، ولا حتى لبضع ساعات بهذه الطريقة أو تلك. لم يعد الأمر يتعلق بالكمال بعد الآن، بل لا يتعلق بشيء. ثم قال لي بعد قليل: «لكن يوهانس، أنا ليس إلاّ، لم يعد لدي شيء، أي شيء على الإطلاق، باستثناء زجاجة الخمرة سكوتش التي أجددها عندما تكون فارغة. هذا إيمان هش، يقوم على التعبير ثلاث مرات تافهة مثل خدعة سحرية. فما الذي يتطلبه الأمر لتكون ساحراً جيداً؟ بالتأكيد ليس أكثر من أرنب وقبعة. في وقت ما، كان لدي كل هذا في راحة يدي. واليوم، لم تعد هناك أرانب، ولا المزيد من القبعات، ولا المزيد من السحر. هذا هو بالضبط يا بني. لا شيء. أنت وأمك على حق في عدم القدوم مطلقاً لرؤيتي، وعدم الاهتمام أبداً بكل ذلك. إنني أحسدكما. أما أنا فمن أجل كسب لقمة العيش، يجب أن أستمر على ارتقاء المسرح لأداء دوري القديم، والوحيد الذي تعلمته. ومن دون زوجة أو أرنب أو قبعة».

في ذلك المساء، أعدّ لنا والدي طاجناً من الباذنجان للعشاء. وكان ينتظر الفرن حتى يبرد. وحين عادت والدتي، متجنبة الطرق على الباب الأمامي. كان يوهانس يغط في النوم.

***

في الصباح الباكر، وكأن شيئاً لم يحدث أثناء الليل، عاد باتريك هورتون إلى زنزانتنا. ولكنه كان ما يزال يتقدم على أطراف أصابعه، وعندما عدنا من الإفطار في وقت لاحق، دس أحد الحراس رأسه في مدخل الباب. «أخبرت الرئيس عن قصتك. وقد استجاب، سيأتي رجل لمقابلتك في غضون ساعة». في الواقع، عند الظهيرة، دخل عامل إلى الشقة ومعه مجرفة لسان القط [مالج]، وأدوات معدنية للتكسير، ونوع من الجص سريع الإعداد. ومن أجل إعداد خلطة، قام بتخفيف المسحوق بقليل من الماء، وأضاف إليه برادة الحديد، وبدأ بسدّ كل الشقوق المفتوحة في الجدران. وفي أثناء ما

كان يقوم بعمله، كان هورتون يتابعه مثل ظل خانع، وهو يتحقق من فاعلية الانسداد في كل مرة. «هل أنت متأكد من وجود ما يكفي من المعادن في الخليط؟ هل هي قاطعة؟ ينبغي أن تقطع أرجلها إذا مرت فوقها، وإلا فلا جدوى. كم يستغرق من الوقت حتى يصبح صلباً حقاً؟ أربع وعشرون ساعة؟ اللعنة، ألا توجد طريقة لتسريع ذلك؟ أمضى عامل السجن ساعة ينقر في الشقة، ويسد كل شق فيها. وكان عليه أن يذهب ليأتي بكيس آخر من الجص، وبرادة حديد أخرى. وعندما انتهى، غسل يديه في حوضنا، ونظر إلى المنشفة على وعاء المرحاض، ثم حدق فينا للحظة». من منكما يخاف من الفئران؟ استغرق هورتون بعض الوقت ليشير إلى نفسه. رتب الرجل أشياءه مبتسماً. «اللعنة، كنت متأكداً من ذلك».

يُعد شهر يناير - كانون الثاني أحد أبرد شهور السنة في مونتريال. انخفضت درجة الحرارة هذا الأسبوع إلى 32 درجة تحت الصفر. في الزنزانات، على الرغم من التدفئة، بالكاد تبلغ 14 درجة. أعطونا بطانيات إضافية. مصنوعة من الأكريليك، لها رائحة غريبة تذكرنا برائحة المطاط من أصل صيني المعاد تدويره من الإطارات القديمة. في الليل، ننام ونحن نرتدي ملابسنا. وخلال النهار، نرتدي سترتين أو ثلاث سترات لمقاومة البرد. ولذلك لم تعد الفئران والجرذان تزورنا مرة أخرى، ومما لا شك فيه أنها متجمدة في ممرات السجن الضيقة، وحرمت من مخارجها المعتادة. من الواضح أن مزاج هورتون قد تأثر بذلك. فقد استعاد كل بهجته ورغبته في تقسيم جزء من الإنسانية إلى قسمين. «أعرف أحد الرجال الذين وصلوا اليوم. إنه شرير حقيقي. ليس هناك واحد آخر في مونتريال يستطيع أن يموه لك الدراجات المسروقة بسرعة. إنه يؤدي لك المهمة في عصر يوم واحد. تذكّر قولي هذا. عندما ترى ما يطلب منك تدرك بسرعة أن الرجل لا يعمل في جيش الخلاص. بخلاف ذلك، فهو وحشي يتنزه على الدوام ويحمل معه شيفرة. لن أمهله أربعاً وعشرين ساعة، حتى يتمكن من صنع واحدة هنا. كما ترى، لست مضطراً حتى إلى التساؤل، أعرف أنه سينتهي بشكل سيء. في يوم من الأيام، أقول لك، سيقع الرجل على حد سيف وسيقطعه إلى قطعتين. كما يقولون في الكتاب المقدس: من يهددك بالخنجر، سينتهي بالساطور».

ومع ذلك، فإن مفسر النص المفضل لدي تدثر ببطانيته، وبدأ جولة حراسته، للتحقق من أن مخارج دخول الآفات بعد أن غطاها بروحه المعدنية، لا تزال تمنع تسللها.

بغض النظر عن الطقس، فإن الطعام الذي يقدم لنا بائس دائماً. وفي هذا اليوم قدموا لنا شرائح دجاج بنية مع البازلاء التي حلت أجهزة الميكروويف تجميدها بشكل جزئي. في كثير من الأحيان، وفي هذه اللحظات من اكتئاب الذوق - في السجن، تُعد الوجبة واحدة من اللحظات المهمة في اليوم. لم أكن أفكر بأطباق والدتي التي لا أتذكر أنني رأيتها تطهو منتجات طازجة، ولكنني كنت أفكر بأطباق سكاجين اللذيذة التي أعدها جدي من سمك الهوشع المفلطح مع التوت البري، الذي كان يزاوج بين عصارته الحلوة والمالحة في الفم.

في هذه الليلة الجو بارد جداً لدرجة أنني لا أستطيع النوم. أستمع إلى تصدع الأنابيب وسعال الرجال. في بعض الأحيان تأتي نوبات سعال طويلة من زنزانات في طابق آخر. هذه الأصوات المشوهة، والتي تخف حدتها بسبب بعد المسافة، تحيل إلى التفكير بصراخ الوحوش البرية أو تذمرها.

لقد توفي أبي لاحقاً. لقد تحدثنا عن أشياء وأشياء أخرى، تم فيها إدخال السيارة الـ Ro 80 بمهارة في مجرى محادثتنا. كان يتساءل، وعلى وجه الخصوص، عما كان يحدث لهذه السيارة عندما غادر تولوز في نهاية عام 1975. كنت أعرف الجواب لكنني فضلت الاحتفاظ به لنفسي. كنت أعلم أنها كانت ستؤذيه. التحقت بنا وينونا ونوك بعد ذلك بقليل. لقد كانت لحظة سلام. بقينا جميعاً معاً، موتى وأحياء، مشدودين بعضنا إلى بعض، جنباً إلى جنب، في مسعى منّا لأن يجلب كلّ منّا للآخر ما كنا قد افتقدناه على نحو قاس، مع قليل من الدفء والارتياح.

للسجن رائحة كريهة. عفونة من نقيع الأفكار الرديئة، وأنفاس الآراء القذرة التي اصطحبت في كل مكان إلى حد ما، تلميحات لاذعة من الندم القديم. إن الهواء الطلق، بحكم طبيعته، لا يدخل هنا أبداً. نحن نتنفس أنفاسنا في فراغ من العزلة، أنفاس مبتذلة ممزوجة بشظايا الدجاج البني وبرامج العمل القاتمة. حتى الملابس والأغطية والجلود ينتهي بها الأمر

إلى امتصاص هذا الزفير الذي لم نعتد عليه. عند العودة من المشي، وعندما يتوقف الهواء الخارجي عند عتبة الباب الدوار، يكون التحول وحشياً في كل مرة، ويكون الغثيان الغامض مسؤولاً على الفور عن تذكيرنا أننا نعيش ونتنفس في جوف بطن يحملنا باستمرار، ويهضمنا مدة طويلة، وقبل -عندما تحين الساعة- أن يطردنا لنتحرر بدلاً من أن يمنحنا الحرية.

***

إن الحصول على شهادة البكالوريا في سن الثامنة عشرة لم يكن يخلو من مشكلات. إنني لم أدن بخلاصي إلا لجلسة إنقاذ من الرسوب التي أحصي فيها عدداً كبيراً من الذين أخفقوا. وبعيداً تماماً عن سخاء 68 مايو - أيار عندما حصل جميعهم على شهادته عند تقديم وثيقة الإقامة، قامت أكاديمية تولوز، خلال السنوات التالية، بمعالجة متطلباتهم ومعايير قبولهم بشكل ملحوظ. أتاحت لي مواهبي المواتية في الرياضة، والجغرافيا، فضلاً عن قليل من حسن التدبير في بعض المواد المجاورة، أن تأذن لي بتقديم (بطاقة هويتي) المدرسية الأخيرة إلى القس، وأن يسمعني أتحدث، بلغة الكاتب والشاعر الدانماركي هانس كريستيان أندرسن، وبطريقة احتفالية: «Minsøn, jegerstoltaf dig»، والتي يمكن ترجمتها: «يا ولدي، أنا فخور بك».

في الحقيقة، لم أكن أعلم حقاً ماذا كانت الولادة الخلاسية، للشاب ذي الشعر البني التي أشعر أنها تتجسد في عيني والدي في بعض الأحيان، لم تكن تشعره بالندم على عدم الزواج من امرأة من أصول سكاجينية، فالذي يفكر دانماركياً، يحب دانماركياً، ويأكل دانماركياً، ويسبح دانماركياً، ويقبّل دانماركياً، وينجب أطفالاً دانماركيين أقوياء، كل واحد منهم يتباهى بالقوة والجمال، ولكنه مع ذلك بمجرد أن يفتح عينيه، بوسعه أن يهمس لأقربائه المعجبين: «Smigerersomenskygge: den gør dig hverkenstørreellermindre..» «الإطراء مثل الظل: لا يجعلك أكبر أو أصغر».

كان بوسعي أن أفهم تماماً أن يوهانس، القس الذي كان يتحدث دون خشية من الله، يحلم أحياناً، في المساء، وهو يتأمل هطول المطر، بهذا الفسيلة الصغيرة [النابتة حول الشجرة من أصلها] التي لم يسبق له أن امتلكها.

استقبلتني الجامعة كمهاجر فائض، ورأى الاتحاد الجغرافي الأوروبي من المناسب أن يعلمني أن الدانمارك، بمساحتها البالغة 42924 كيلومتراً مربعاً، هي أصغر دولة بين الدول الإسكندنافية، وإذا ما أضفنا إليها ما نسيناه من توابعها، غرينلاند وجزر فارو، التي تعود إليها، عند ذاك تزيد مساحتها على 2210579 كيلومتراً مربعاً.

أنا أحب علم جغرافيا الرحلات، فالجغرافيا التي نعيشها سيراً على الأقدام، وعلى مستوى الإنسان، تدرس من خلال المنحدرات، وتعب السيقان ونزوات السماء. أقل بكثير من جغرافيا الكتب المزينة بالرسوم البيانية والمعلومات. لذلك، تحددت إقامتي في الحرم الجامعي في سلسلة من المواعيد والرحلات العفوية، والتحقق من الأمور التي تحتاج إلى المعرفة، وجلسات الاستنساخ التي تتخللها أيام لا نهائية من السينما، والتي كانت تعيدني، في المساء، إلى أيامي المتوهجة، على الرغم من أنها أيام مرهقة.

في المنزل، كانت الأمور تأخذ مجراها، مما أدى إلى تآكل صبر هذه، وحب الآخر شيئاً فشيئاً مع مرور الأيام. كانت شقة شارع لومبارد تمتلئ بهذا الجو الذي تنتهي فيه علامات عدم المبالاة إلى الذوبان في طبقات الغبار. وكان القس يواصل إعداد وجبات الطعام، وأمي تعود متأخرة. وفي معظم الوقت، كانا يتناولان طعام العشاء كل منهما بمفرده، وفي ساعات متباينة.

كانت آنا تحتفظ بعوائدها، وتتطلع إلى خطط برامجها، وتستفيد من الفرص كلما سنحت لها دون تكلف. أما يوهانس، فكان يبذل قصارى جهده في الحفاظ على منزلته، والكتابة بصمت حول كلام الله، من خلال ترقيع مظهر الأوهام، والارتجال بخفة اليد بما يملك، ولكن دائماً دون أية قبعة، ولا حتى أصغر أرنب.

كان عام 1975، وهو العام الذي بلغت فيه العشرين من عمري، بمنزلة نهاية عالم، عالمنا، عالم هانسن، وعالم هؤلاء الناس من الشمال والجنوب، الذين عمروا العديد من الكيلومترات، وقدموا الكثير من التضحيات الحميمة ليتصاهروا، وتعلموا لغات غير معروفة، وقد اشتروا سيارات بعيدة الاحتمال، ومارسوا الجنس كيفما اتفق، كل بطريقته الخاصة، هناك من يغض الطرف، والآخر لا، أنجبوا الأطفال دون معرفة لمن أو لماذا، ألقوا

المواعظ نيابة عن الله، وبرمجوا عظاتهم عن الشيطان، وكما وعدوا، جرفت الرمال التي كانت تتراكم أمام أبوابهم كل يوم، كل هذا، حتى قاسوا الأمرّين، لينتهي بهم المطاف منفصلين، متباعدين، مفككين، ممزقين، منقطعين.

في الرابع والعشرين من أبريل - نيسان من ذلك العام، وفي وقت متأخر من الصباح، خرجت آخر سيارة DS من مصانع ستروين في شارع جافل. ضحية صرعة الذوق الرديء، ولكن بتزامنها مع التعديل المفاجئ لأسعار النفط على وجه الخصوص، فقد كانت جنازة صناعية، ومراسم طقس عادة ما يثير ذرف القليل من الدموع. كان مسؤولو الشركة ومسؤولو الدولة والمسؤولون الصحفيون، وأجدادي دون أدنى شك، حاضرين أو كان هناك من يمثلهم، يقفون في مكان ما في هذا المصنع الذي كان ينتج هذه السيارة، وقبلها، كان ينتج كميات كبيرة سامة من مادة الهيبوكلوريت الصوديوم. لقد أصرت عائلة مارجريت على حضور هذه الجنازة لتشهد اختفاء آخر، لما اعتبروه ممثلة لسلسلة طويلة من السيارات القاتلة. لم ينسوا حادث عتبة نوروز -وهي أعلى نقطة في قناة دو ميدي- ناهيك عن أدنى اعتذار عن أي شيء.

في وقت لاحق، عندما فكرت مرة أخرى في حادث تصفية عائلة هانسن، دون أن أتمكن من تحديد التشابه، كنت دائماً أقرن ذلك بفشل سيارات السيتروين، وبيع علامتها التجارية. وإبعادها عن حي جافل.

ومع ذلك، إذا كنا قد اختفينا من رصيف شارع لومبارد ومن دليل العائلات، فذلك يعود إلى حد كبير إلى جيرار داميانو -وهو مخرج أفلام، ومنتج أفلام، وكاتب سيناريو، وكاتب، ومونتير أمريكي- هذا المواطن من حي برونكس، أحد أحياء نيويورك الخمسة - وهو كاثوليكي القناعة، ومساعد سابق في عيادة للتصوير الشعاعي، وأصبح فيما بعد حلاقاً في الحي، جمع 25000 دولار من المتبرعين المنتمين إلى أبرشيات الجريمة المنظمة، ووضع في ذهنه في يوم من الأيام إنتاج الفيلم الثاني الإباحي بالفعل من إنتاج السينما الأمريكية المحترفة. اعتمد السيناريو والحوارات على نثار قصاصات دائرية من الورق الملون، واستندت القصة حصرياً على معجزات شرايين البطلة البلعومية، ليندا لوفليس، محاطة بالممثلين الهواة المستعدين لتقديم أدوار سخية. تم الانتهاء من التصوير، الذي تم التعامل معه فريق استأجر سيارة كوكسينال (فولكس

فاكن)، في ستة أيام خلال فصل الشتاء في ميامي. عندما ظهر الفيلم في الولايات المتحدة في ربيع عام 1972، طاردت العدالة أحد الممثلين، ويدعى هاري ريمس، الذي لم يمثل حتى ذلك الوقت إلا في مسرحيات شكسبير، والذي قام بالتدريب على (الحلق العميق) كممثل لعب دور (الدكتور يونغ) فضلاً عن أنه مصمم إضاءة. بوصفه «ينقل البذاءات في البلاد». وقد منع الفيلم من العرض في سبع وعشرين ولاية، ووصفته ولاية نيويورك أنه «فاحش تماماً»، فقد أثار أعاصير من الفضائح، ووابلاً من النقد، وتشويشاً للفضائل. لكن الصالات التي يسهل الوصول إليها والتي يسمح فيها بالمشاهدة، كانت تكتظّ بالمشاهدين. وخلال مسيرة عرضه، جمع فيلم (الحلق العميق)، وهو فيلم قصير، أكثر من 600 مليون دولار. لكن ينبغي أن نلاحظ هنا: إن داميانو، الحلاق المخرج وكاتب السيناريو، تماماً مثل الممثلين المتدربين لم يلمسوا في ذلك الوقت، لقاء ستة أيام من العمل، سوى بضع حصى من هذا الجبل الذهبي. لقد كانت الإيرادات العظمى التي تم تحصيلها، في الواقع، نقداً، يوماً بعد يوم، من شباك التذاكر في دور السينما، في جميع أنحاء البلاد، كانت من نصيب حامية من الجباة التي تديرها مافيا لنتف ريش الممثلين وريش الحلاق.

غير أن جيرارد داميانو عاد مرة أخرى في العام التالي من خلال كتابة فيلم (الشيطان في الآنسة جونس) وإخراجه وإنتاجه، والذي درّ 7.7 مليون دولار من الإيرادات، وحقق أكبر نجاح عام 1973. وبعد اثنين وثلاثين عاماً من حياته المهنية، توقفت لائحة أفلام هذه الشخصية المدهشة عند 48 فيلماً، تشهد لها عناوينها الرائعة مثل فيلم (الروعة في المؤخرة 1989)، التي لم تترك أي شك يحوم حول كتابة السيناريوهات وطبيعتها ومحتواها.

إذا كنت ما أزال أتذكر هذه التفاصيل، فذلك بسبب أسلاك الرقابة الشائكة، لم يعرض فيلم (الحلق العميق) في فرنسا إلاّ في السابع والعشرين من أغسطس – آب عام 1975. وخلال هذه الفترة الطويلة من الانتظار، كانت المناقشات بين حركة الإصلاح وبيت السينما حادة في المنزل.

لقد مرت ثلاث سنوات منذ عرضه الأمريكي. ثلاث سنوات كان خلالها أطباء الأنف والأذن والحنجرة والنقاد يناقشون على نطاق واسع خصوصيات الجزء الخلفي من الحلق، وسيرة كاتبه، وكاثوليكيته المرنة،

وإيراداته التي اختفت مثل الكثير من الأرانب في القبعات الصقلية. وصلت كل هذه الحكايات على شكل موجات متتالية من جميع أنحاء المحيط الأطلسي، ذلك أنه عندما عرض فيلم (الحلق العميق) في دور السينما عندنا، شعر جميعهم، وكأنهم قد شاهدوا الفيلم سابقاً.

لقد ظلّ اليوم السابع والعشرون من أغسطس - آب عام 1975 بالنسبة إليّ تاريخاً لا يُنسى، وهو اليوم المصيري الذي اهتزت فيه حياتنا، من خلال إضفاء الطابع الرسمي على ما كنت أتوقعه من مدة طويلة.

وابتداءً من يونيو - حزيران، رفع وزير الثقافة ميشيل غي الحظر الذي يمنع وصول هذه الأفلام إلى فرنسا. وقد تبوأت والدتي، كمستقلة، كموزع لشركة ألفا فرانس Alpha France من أجل أن تكون قادرة على عرض الفيلم الظاهرة في صالة سبارغو. وعندما شاع خبر الإعلان عن الفيلم حتى وصل رصيف شارع لومبارد، ثارت ثائرة القس، وكشف عن جانبه المتدني الضئيل والمحافظ وهو يجهر بكلامه: «أتظنين أنني لا أعير اهتماماً لقصتك البائسة، ولبظرك السخيف، ولتلك النماذج التي تمص بعضها بعضاً مدة ساعة؟» هل تعتقدين أن هذا يصدمني؟ هل تصدقين ذلك حقاً؟ كلا، يا آنا، ما يزعجني هو أن زوجة راعي أقدم كنيسة لم تفكر ولو لثانية واحدة في التداعيات التي كانت ستخلفها خياراتها السينمائية الغبية بالنسبة لي. إذا عرضت هذا الفيلم في صالتك السينمائية، فهذا يعني نهايتي، ولم يعد بإمكاني الذهاب إلى الكنيسة. من الواضح أن الناس والصحافة وأتباعي سيربطون العلاقة بين هذه التي تشيع الفضيحة من خلالها، وبين من يعظ لهم في يوم الأحد مزايا أهل كورنثوس[14]: «الْجَسَدَ لَيْسَ لِلزِّنَا

14- الإشارة هنا إلى الرسالة الأولى إلى أهل كورنثوس: هي إحدى رسائل العهد الجديد التي تنسب إلى الرسول بولس، وهي موجهة من بولس وسوستانيس إلى المسيحيين في كورنثوس وفي عموم اليونان، يتوقع أنها كتبت بين 55 م إلى 60 م، فتكون بذلك قد كتبت قبل تدوين الأناجيل الأربعة، لهذا تستخدم عادة لإثبات أصالة روايات تلك الأناجيل في ما يتعلق بتأكيد حقيقة يسوع التاريخية، وظهور البذور الأولى للعقيدة المسيحية إلى الوجود. والمكان المحتمل لكتابة هذا السفر هو أفسس، استناداً إلى ماورد في نصها في (16:8) (ولكنني أمكث في أفسس إلى يوم الخمسين)، بينما يرى بعض الباحثين أنها قد كتبت في فيلبي - م.

بَلْ لِلرَّبِّ، وَالرَّبُّ لِلْجَسَد». هل تدركين القرف الذي وضعتني فيه؟ وحتى دون مناقشة الأمر معي، ولم تسأليني عن رأيي. أعرف ذلك مصادفة عن طريق اتصال هاتفي. يخبرني رجل مما يسمى ألفا فرانس: «أليست السيدة هانسن هنا؟ هل أنت السيد هانسن؟ لدي أخبار جيدة لك. تمت الموافقة على فيلم «الحلق العميق» سيكون بإمكانك استثمار الفيلم عند إصداره. سنقوم بإعلامك بتواريخ وصول البكرات. وأنبهك، إن هذا الفيلم سيغير من برامجك المعتادة». «إذا عرضت هذا الفيلم، ستتغير حياتي كلها، حياتنا كلها، يا آنا».

فجأة نهضت أمي، وضربت الطاولة بيديها. «إنك مجرد قس صغير في مقاطعة، وبروتستانتي منغلق، ومحافظ وأعمى أمام المتغيرات. أنت لا ترى شيئاً، ولا تفهم شيئاً، أنت تقرر وتحكم، بكتابك المقدس الذي تلوح به كقانون جنائي. ما زلت تعيش في القرن التاسع عشر في حكاياتك عن مسحوق السمك، وشبه الجزيرة الرملية. أنت تثير غضبي، يا يوهانس هانسن. كل الناس، وفي كل مكان، على وشك أن يشاهدوا هذا الفيلم الذي هو دون شك هراء، ولكنه يمثل نقطة تحول في المهنة التي أمتهنها. لا أدري حقاً ماهو، لكنني على يقين من أنه يمثل تطوراً. لذلك أقول لك: لن أتخلى عن كل هذا من أجل تهدئة القلق المهني للزوج الذي لا يتحمل مسؤولية مهنة زوجته. سأعرض الأفلام، يا يوهانس، وأنت تدرك ذلك، أن هذا هو عملي. عندما أحصل على فيلم لبرغمان، أولتاركوفسكي، أقدم الميتافيزيقيا والتصوف. وعندما يكون الفيلم لداميانو، أعرض القضبان، وممارسات الجنس الفموي. وأنني لآسفة حقاً إذا كانت هذه الأشياء التافهة في داخل الحلق، يمكن أن تضعك في مثل هذه الحالة».

وعندها، غادرت آنا الغرفة وصفقت باب هبوط درجات السلم بعنف، وهي تخرج من الشقة.

في ذلك المساء، أدركت أنني ووالدي كنا آخر نوع من سيارة طراز DS تغادر خط التجميع ومعنا، وأمامنا وخلفنا، هاوية من العزلة وعدم اليقين. حتى لو كنت أشارك في هذا الصراع العائلي، بكل وضوح، وجهة نظر أمي الليبرالية والبراغماتية والحداثوية، فقد كنت أصطف على الفور إلى جانب هانسن. ودون شك من خلال نوع من التضامن الدانماركي الحميم، ولكن

لأن مشهد هذا الأب العاجز كان يزعجني أيضاً، الأب الذي يفتقر إلى الإيمان، بعد أن نسي كل شيء من خدعه السحرية، وتجرد من لغته، وهو يتأمل زخات المطر تتساقط أثناء انتظار والدتي. كانت حياته تمضي عكس كل الأفلام التي كنت أشاهدها، وعكس الناس الذين كانوا من حولنا أيضاً.

كان يدور حول نفسه مثل محرك فانكل الذي طورته شركة NSU للسيارات، دون أن يتقدم فعلياً إلى الأمام، ودون أن تتعاشق التروس بما يكفي للخروج من المأزق.

وما كان يجب أن يحدث قد حدث. فقد أدرج منشور مجاني متخصص في الإعلان عن العروض السينمائية وإصدارات الأفلام المقبلة صالة سينما سبارغو في قائمة دور السينما المؤهلة لعرض فيلم «الحلق العميق». تضاعف الكلام المثير للجدل في الصحافة عن قرب موعد عرض الفيلم، وانتقدت بعض روابط الفضيلة بشدة الاستخدام المخالف للطبيعة لهذا الحلق المتسع. ففي الوسط البروتستانتي، حيث انتهى جميعهم إلى العلاقة بين نشاط صاحبة صالة العرض السينمائية والقس هانسن، فكنا نشعر بالحرج أكثر فأكثر للعثور على إجابة مناسبة عن التساؤلات الملحة من الهامش الأقل تقدمية في المجتمع.

في الثاني والعشرين من أغسطس، آب 1975 –وكان يوم جمعة– استدعى المجلس الكهنوتي والدي الذي أوضح له أنه بسبب وضع خاص إلى حد ما يمكن أن يضعهم جميعاً في موقف محرج، فقد تقرر تعليق منصبه بصفة مؤقتة، وإن هذا الإجراء له أثر فوري.

كان الرجل عاجزاً عن الكلام، غائباً عن نفسه، هكذا كنت أراه في الشقة.

في صباح الأحد في الرابع والعشرين من أغسطس – آب، بقي يوهانس في المنزل. نزل ومضى يتمشى على امتداد أرصفة نهر الغارون، ثم أجرى بعض المكالمات الهاتفية، بما في ذلك مكالمة باللغة الإنجليزية. لم يتصل بأي رقم في الدانمارك، ربما كان يريد أن يدع عائلته بعيدة عن كل هذه الاضطرابات، ويتجنب الاضطرار إلى إرباك والدتي، ليشرح لها حظه العاثر. حتى يوم الجمعة، بعد مقابلته، كان والدي يعرف أن تسريحه من العمل يُعد

نهائياً، وأنه لن يذهب إلى كنيسته أبداً. وإلا كيف يمكن أن يبرر عودته، وبعد ذلك استمراره، إذا كانت حداثة آنا قد دفعته فيما بعد إلى برمجة فيلم (الشيطان في الآنسة جونس) في العام التالي، وفيلم (الروعة في المؤخرة) في العام الذي يليه؟

من الواضح أن عروض الخامس والعشرين من أغسطس - آب كانت متكاملة، ومثلها عروض الأيام والأسابيع التالية. بطبيعة الحال، لم يكن الفيلم مرضياً، بل كان قذراً، فبعد أن شاهده ناقد محلي وصفه أنه فيلم مخصص لمن يسمون بـ «الشرهين بصرياً».

نادراً ما كان أبي يغادر رصيف شارع لومبارد. ويبدو أنه قد قبل هزيمته. لاحظتُ أنّه يقضي وقتاً لا بأس به على الهاتف، يتحدث مع أشخاص، تارة باللغة الفرنسية، وتارة باللغة الإنجليزية. أما مع والدتي، فقد أغلق المناقشات ولم يعد يتصل بها إلا لتسوية بعض الأمور الاعتيادية والمنزلية، التي يمكن أن تعكر الحياة اليومية. لم يتطرق أحد بكلمة عن داميانو أو ليندا لوفليس. وانحسرت الضجة شيئاً فشيئاً. وبعد عار زوجها الموجع الذي عطلها بعض الوقت، سرعان ما استعادت آنا وسامتها، وهي سعيدة تمتطي صهوة النجاح وبإيرادات لم يأت أي محصّل محتال ليطالبها بها.

في منتصف سبتمبر - أيلول، وعند العشاء، بينما كانت تضرب في الخارج عاصفة رعدية تخللتها رياح عاتية، لم يكن صوت والدي الهادئ الوقور يواجه مشكلة ليلقي بظلاله على صخب الرعد. «هنا، أريد فقط أن أخبرك بأمرين: أولاً، استقبلني مجلس الكهنة قبل أسبوع ليؤكد لي أنني لن أعود إلى منصبي، وذلك دون الخوض في أسباب هذه التنحية. والخبر الآخر هو أنني وجدت عملاً جديداً، حيث سيتم تعييني راعياً كبيراً للكنيسة الميثودية [أو المنهاجية] في مدينة ثيتفورد ماينز. إنها بلدة صغيرة في كندا، في مقاطعة كيبيك. وسأتولى واجباتي الجديدة في الأول من نوفمبر - تشرين الثاني. سأستقر هناك نحو منتصف أكتوبر - تشرين الأول. من هنا حتى ذلك الوقت، سأحاول أن أمحو إدارياً -أعلم أنكم، أنتم الفرنسيون، مغرمون جداً بهذه الرياضة- جميع آثار مروري في هذه المدينة وهذه العائلة. في هذه الظروف، يبدو لي يا آنا أن طلاقنا أمر حتمي. أترك الأمر لك لاختيار الشروط

وسأوقع بكل تأكيد _ قبل مغادرتي_ جميع المستندات التي ستحتاجينها. وغني عن القول: إن كلاكما سيكون موضع ترحيب دائماً في هذه البلدة الصغيرة، التي لا أعرف عنها شيئاً عملياً، سوى أنها تستمد ثروتها من مناجم الحرير الصخري».

نهضت والدتي من على الطاولة بإصرار امرأة دانماركية حقيقية من شبه الجزيرة، وغرست نظرتها الوقحة والغاضبة في عيني يوهانس هانسن الزرقاوين، الذي كان لابد أن بدا لها في تلك اللحظة كقس ضئيل. «أوراق الطلاق جاهزة بالفعل. ستجدها في درج خزانة الملابس في المدخل».

***

ما الذي تفكر فيه أيها الأبله twit؟ لم أكن أتخيل أبداً أن هورتون قادر على أن يطرح عليّ هذا السؤال، أو يعاملني بطريقة ودية بكلمة أبله «twit»، التي تقابلها كلمة «crétin» الفرنسية بمعناها الأقرب. كان بإمكاني أن أخبره أنني كنت أتسكع في عالم مدفون لسنوات عدة، عالم قديم حيث يمكننا أن نفترق بسبب فيلم رديء، عالم كنت أعيش فيه بالكاد مدة عشرين عاماً، وحيث لاأزال أتخذ فيه مكاني، أجلس على الطاولة، بين أبي وأمي، اللذين كنت أراهما في ذلك المساء مجتمعين في إحدى المرات الأخيرة. لم يبق شيء من هذا العالم اليوم. كان القس يموت أمام عيني. وتوفيت آنا، بعد أن عاشت في علاقة حرة مع منتج سويسري صغير مدة طويلة، قبل خمس سنوات بجرعة زائدة متعمدة من العقاقير. أما السيارة NSU، وبعد تعرضها للسرقة وتحطمها بالكامل في حادث طريق، بعد وقت قصير من رحيل والدي، أنهت مشترياتها من لدن بائع قطع الغيار. بينما شهدت صالة السينما سبارغو قدراً يتماشى مع اتجاهات السوق، وهي تنهار ببطء، ثم باعتها والدتي إلى مستثمر شاب من مرسيليا، أخذ على عاتقه التخلي عن علامتها التجارية «سينما بيت الفن» ليحول صالتها إلى علامة إباحية، باسم لو برادو، التي سميت فيما بعد Zig – Zag قبل أن يحل محلها بكل بساطة امتياز بائع نظارات، لم يبد الكثير من الاهتمام إلى ماضي المكان.

هذا ما كان يفكر فيه الأبله «le twit» في ذلك المساء من يناير – كانون

الثاني، الذي كانت فيه درجة الحرارة مستمرة بالهبوط. ولن تكفي بطانياتنا الإضافية لتؤمن لنا الحد الأدنى من الدفء في غضون بضع دقائق. وعلى الرغم من إن أجهزة التدفئة تدفع بكل طاقتها، إلا أنّها كانت قديمة جدّاً ولذلك عاجزة عن التخفيف من قسوة الشتاء.

«هل رأيت ما حدث بالأمس في نيويورك وكذلك في العديد من المدن الأخرى حول العالم؟ قام 3000 شخص بنزع سراويلهم في الوقت ذاته. 3000 مرة واحدة، هل تصدق ذلك؟ قيل إنه كان عيد «يوم دون بنطلون»[15]. لقد أوضح المذيع شيئاً من مثل إن «أعضاء هذا النادي يفعلون ذلك ليشعروا بحرية أكبر دون بنطال، وكذلك، يستمرون خلال هذا اليوم في ممارسة حياتهم الطبيعية في العمل وفي الشارع، ولكن بالملابس الداخلية»... دون مزاح، تبدو أنك تحلم. تخيل حارساً، يرتدي مئزراً، ويقتحم عليك الشقة ويصرخ بك: «هانسن في ردهة الزيارة!» أو القاضي في المحكمة يعاقبك بالحجر عشرين عاماً بملابسك الداخلية. اللعنة سيكون الجو حاراً في «يوم دون سراويل». قلت لك ذلك يا صديقي، نحن نعيش في عالم من كلاب الدنغو الأسترالية. من ناحية أخرى، لا أمانع إذا كانوا يريدون جعلهم يدورون حول أنفسهم بملابسهم الداخلية في الهواء الطلق. ولكن في شهر يناير – كانون الثاني، مع الطقس الذي يكون عليه الجو، تتحول هذه الرياضة العاهرة إلى رياضة متطرفة للغاية».

شيء ما قاتم ومحرج، شال كثيف من الحزن يلتف حول كتفيّ. كان هورتون يواصل بث العناوين الرئيسة من إذاعته الثقافية الجديدة، لكن رسائله كانت تتشوش، حتى قبل أن تصل إلي.

غالباً ما كان يحدث لي أن أشعر بهذا الغياب، وهذا القلق ذاته. خاصة، بعد أن أخرجت كل هؤلاء الأموات من طيات النسيان، فأدركت عزلتي. وبت آخر شخص من عائلة هانسن الجنوبية.

15- يُعد «يوم دون بنطلون» حدثاً سنوياً في مختلف البلدان. يقام في أول جمعة في شهر مايو. يتطلب ارتداء الملابس الداخلية العلنية فقط على الجزء السفلي من الجسم – م.

مدينة ثيتفورد ماينز

بعد أن غادر والدي، لم تبذل آنا أي جهد للاقتراب مني، واستمرت في ممارسة حياتها وكأن شيئاً لم يكن، متجاهلة في الظاهر ظل القس، الذي كان مستمراً في الطواف في شقتنا. في ذلك الوقت، أعربت عن استيائي من أمي لعدم تنازلها بأي شيء ليوهانس، وتركته يرحل كزائر عابر. لم يُجبر هذا الكسر أبداً. وهذا ما دعاني إلى السفر إلى كندا في بداية الصيف التالي، للانضمام إلى والدي.

لا تزال ثيتفورد ماينز اليوم عبارة عن انحراف جيولوجي، مقترنٍ بمعلم جمالي غريب. باستثناء الاسم الذي يفضي إلى الدلالة، لا يوجد شيء رائع من وجهة نظر واقعية بحتة. يبلغ عدد سكان المدينة (‘06 °45 شمالاً/ ‘18 °71 غرباً) 25000 نسمة، مشتتين في المتوسط، كل حفنة من 100 نسمة لكل كيلومتر مربع واحد، على مساحة إجمالية تبلغ 225.79 كيلومتراً مربعاً. يجتازها نهر بيكانكور الهادئ، وهي على بعد نحو 100 كم جنوب غرب مدينة كيبيك، وعلى مسافة قريبة من شمال شرق شيربروك. وهي ملحقة بمنطقة شوديير أبالاش Chaudière – Appalaches. ومن علامة ازدهارها النسبي، أنها تحتوي على مستشفى عام، وكلية تقنية جامعية CEGEP، ومركز مؤتمرات ومسبح داخلي. وفي كل عام، تنظم مهرجان بروموتويل دي لا ريليف للموسيقى، وعرضاً للسيارات القديمة. وكذلك تنظم دوري فرق الهوكي والبيسبول، والتزلج والغولف.

عندما تصل إلى هناك، يتبخر هذا الكاتالوج الاستدلالي للسلع والخدمات أمام أعمال الحفريات الاستثنائية التي تحيط بالمدينة،

وتخترقها حتى تصل إلى مركزها. إنه عالم ما بعد (أرمجدون). فقد حفرت العديد من المناجم، في فضاء مفتوح، مناجم عميقة، غائرة حتى باطن الأرض، فوهات قمرية عملاقة، وحفراً مريخية غير متناسبة، مصممة على شكل سلالم، مخططة بطرق متعرجة، وكانت هناك أكوام من الصخور والحصى تحيط بالحُفر، ملفوفة على شكل كرة، تشبه حيوانات ضخمة نائمة[16]. وهنا وهناك، البحيرات العظمى، ويبدو أنها سقطت من السماء، وامتلأت بماء زمردي رفيع، وبحر صغير من المجوهرات، يكاد يكون خارقاً تقريباً متلألئاً، وسط هذا المشهد المتدهور بالندب والحزن والنشوة.

ويتحدث آخر اسم للبلدية الصغيرة (اميانت) التي ضمتها مدينة ثيتفوردماينز، كثيراً عن طبيعة الأقبية. وسميت جارتها القريبة هذه باسم أسبستوس.

هذا هو المكان الذي كان يعيش فيه والدي، في هذا المرجل من الألياف والغبار، في بيئة التعدين المذهلة، في هذه المدينة المحفورة، والمقطعة، والتي تعرضت للتفجيرات، المدينة غير الواقعية، التي كان يتربع على عرشها الكريسوتايل -كأفضل أنواع الأسبست- ملكاً منذ عام 1876.

كان مخترع الحقل، الذي يدعى جوزيف فكتو مزارعاً، له أصابع تشبه المقص[17]. جاء بعده، روجر وارد، والأخوة جونسون، وعمال آخرون من صنف جديد، اضطلعوا بحراثة التربة حتى العظام، وتدمير المناظر الطبيعية، وتوسيع ما تحت الأرض، وبعثرة هذه الأكوام من ألياف صخور الأسبست البيضاء بالمتفجرات، هذه الألياف التي وصفها الجيولوجيون من

16- لعل الإشارة هنا إلى فيلم أرمجدون (Armageddon)، وهو فيلم خيال علمي أمريكي 1998، من إخراج مايكل باي، وإنتاج جيري بروك هايمر. يتابع الفيلم مجموعة من عمال الحفر، يرسلون إلى الفضاء من قبل ناسا، لإيقاف كويكب عملاق من الاصطدام بالأرض. واجه الفيلم مراجعات سلبية من النقاد، لكنه أصبح أعلى الأفلام دخلاً عام 1998 – م.

17- ذو أصابع مقصات، عبارة مأخوذة من فيلم بعنوان «إدوارد ذو الأيدي المقصات» وهو فيلم رومانسي وفانتازيا مظلمة، تم إنتاجه في الولايات المتحدة وصدر عام 1990. والفيلم من إخراج تيم برتون – م.

جامعة مونتريال، المتخصصون في العصر الرباعي[18]، في نشرياتهم حول «المتواليات الثلاث الستراتيغرافية بأنها تشكل سلم العناصر الأقرب للعصر الحديث لمنطقة ثيتفوردماينز». لذلك كان القس يلقي خطبه الدينية في قلب العصر الحجري القديم. لقد عبر العالم للعودة إلى أصوله، إلى تلك الأزمنة، التي ظهر فيها أول بشر مجهزين بمجموعة من أحجار حادة. وتجثم سلالاتهم اليوم على بقايا أصولهم، وهم يجلسون على حفارات آلية قادرة على شطب السماوات، ويكشطون أطوار التاريخ المتراكمة، مثل كلاب معدنية متكالبة من أجل العثور على عظم مدفون. غالباً ما تحمل الآبار المفتوحة أسماء الشركات التي كانت تستغلها، وتمنح ألقابها إلى الشوارع المجاورة لها من خلال عمل الخاصية الشَعرية.

تسمى هذه الشركات كنغ وبيل وبيفر وجونسون، وغيرها الكثير. في بعض الأحيان تقترب منازل السكان من التجويف، ومن هذه الحفر التي تشقها شاحنات المناجم العملاقة التي تشكل ساقية ناعورية بين قاع العالم، وأحواضه الليفية، وبين سطحه الذي لا يلهم ضوءه المنبعث من الأماكن المغبرة أية مدرسة للرسم.

في عام 1975، كانت مدينة ثيتفورد ماينز واحدة من أهم مواقع الأسبستوس في العالم، من خلال ما أنتجته دون رحمة أو كلل، ولم يكن أحد هناك مهتماً بجدية بالدراسات الصحية الستة والعشرين التي نشرت بالفعل بين عامي 1934 و1954، والتي أبلغت عن مخاطر التليف الأسبستي وسرطان الرئة لدى المرضى العاملين في قطاع الأسبست في بنسلفانيا أو بلاد الغال أو كيبيك.

18- العصر الرباعيّ هو أحدث فترة زمنيّة جيولوجيّة، ويمتدّ منذ 2.6 مليون سنة، مضت إلى يومنا هذا. ويُعد هذا العصر جزءاً من الحقبة المعاصرة، وينقسم عادة إلى فترتين جيولوجيتين هما: العهد البلايستوسينيّ الذي استمرّ في الفترة بين ما يقارب 2 مليون سنة إلى نحو 12.000 سنة مضت، والعهد الهولوسينيّ الذي بدأ منذ نحو 12.000 سنة مضت. شمل العصر الرباعيّ تغيراتٍ مناخيةً هائلة، تركت آثارها على الموارد الغذائية، وأدت إلى انقراض العديد من الفصائل. وشهدت هذه الفترة أيضاً ظهور مفترس جديد، ألا وهو (الجنس البشري). تم تحديد العصر الرباعي من خلال النمو الدوري، وانحلال الصفائح الجليدية القارية المرتبطة بدورات ميلانكوفيتش، وما يرتبط بها من تغيرات مناخية وبيئية – م.

في باريس عام 1975، وهو العام الذي استقر فيه والدي في أحشاء مدينة ثيتفورد ماينز، اندلعت فضيحة الأسبستوس في كلية جوسيو. فقد اكتشفوا أن هذه المواد الموجودة في المباني، وبعد أن باتت قديمة، كانت تنثر غبارها، ويمكن أن تلوث الطلاب. لذلك تم إغلاق الجامعة. وقد عملت مجموعة من العمال المجهزين بتجهيزات تشبه تجهيزات الغواصين، ولعدة سنوات بإزالة القشرة الخشنة، حتى الوصول إلى لبها لجعلها صحية.

في العام نفسه، كانت مدينة ثيتفورد ماينز تحقق أرقامها القياسية من إنتاج آبارها، وبات الأسبست من مشروع KB3 في كل مكان، في الهواء والماء والأرض والحدائق والمنازل والمدارس وحصباء الشوارع، وحتى في كنيسة يوهانس هانسن.

بنيت كنيسة ثيتفورد ماينز الميثودية، وبيت الكاهن، عام 1956 من قبل رجل الأعمال ديفيد سكوت وتقع في حي ميتشل، وهي واحدة من أكثر الكنائس تواضعاً وأكثرها تعرضاً أيضاً لفورات المنجم، كانت تمتلك عقد بناء محرر: «نسبياً من الخارج: الطلاء الغالب من الأسبستوس. والجدران من الأسبستوس. والسقف من صفائح الواح الأسبستوس». شكراً.

ولكن ماذا كان يفعل الرب ويوهانسن هانسن في مثل هذا المكان؟

وصلت إلى كندا عام 1976، على متن رحلة لعدد من السياح الودودين، كنت أحمل معي حقيبة سفر من قماش الكاكي، وست وحدات دراسية بائسة من معهد الجغرافيا في تولوز، والتي لم تكن حتى كافية لإثبات ما يعادل السنة الأولى، وقليلاً من المال حصلت عليه عن طريق الرهان، لأول مرة، في يوم محظوظ، على بؤس سباق الخيول.

تشممتني الكلاب في المطار للتأكد من إنني لا أحمل معي مساحيق أو بذوراً أو أية مادة أخرى قد تتعارض مع قوانين الحماية الصارمة لوزارة الزراعة. لا بذور جيدة أو فاسدة، لا شيء قابل للنمو، وعندها ركبت الحافلة، في المقعد D1، بالقرب من النافذة. في نهاية الطريق 112، وبعد ثلاث ساعات ونصف الساعة من الرحلة، وصلت، نحو آخر المساء، إلى مضائق الشيطان العميقة. كان القس ينتظرني في المحطة. وقد استعاد حيويته، وبدا في مظهر دانماركي سعيد في منتجع.

لقد عانقت هذا الرجل كما لم أفعل من قبل. قادني في سيارته، وهي عربة نوع فورد برونكو طراز عام 1966، والتي يبدو أنها هي أيضاً استخرجت من طبقات العصر الجليدي، ولم يعهد ببنيتها الميكانيكية للدكتور فيليكس هاينريش فانكل. ومع ذلك، قادتنا إلى منزل كاهن الكنيسة الميثودية في ثيتفورد ماينز، حيث كان يقيم والدي. كان المكان مليئاً بأشجار التنوب، التي كانت تظلل الواجهة الأمامية، وتمنح المبنى مظهراً عملياً، وجانباً أكثر انسجاماً مع فكرة أن المرء يصنع مكاناً للأداء الروحي.

لم يسألني والدي عما إذا كنت قد أمضيت رحلة ممتعة؟ أو إذا كانت زوجته السابقة لا تزال على قيد الحياة؟ وما إذا كانت صالتها السينمائية مستمرة في عرض ميولها الحلقية؟. كلا. كانت كلماته الأولى: «هل رأيت هذه الحفر؟ لا يمكنني التعود على ذلك». في وقت لاحق، بعد العشاء، وبعد تفكير في هذه الملاحظات الافتتاحية، سألته السؤال الوحيد الذي يستحق أن أسأله، وهو السؤال الذي كان يجب أن أطرحه في الليلة التي أعلن فيها لنا عن قراره بالمنفى إلى كندا. بدلاً من البحث عن وظيفة جديدة في هذه الأراضي البعيدة، لماذا لم يلجأ إلى وطنه الأم، شبه جزيرة يوتلاند؟. «فكرت في ذلك، بالطبع. لكنني أدركت أنني لم أعد الدانماركي بما يكفي لذلك. أمضيت كثيراً من الوقت في فرنسا، وأمضيت كثيراً من الوقت مع والدتك. وأمضيت كثيراً من الوقت أيضاً في تعلم الكتابة بشكل صحيح، وتمييز كل هذه الكلمات التي تبدو متشابهة في بعض الأحيان، وحفظ كل هذه القواعد النحوية حتى لا أتوقف عن الممارسة، وينتهي الأمر إلى نسيان أنه «عندما يتتابع فعلان يتحول الثاني إلى صيغة المصدر «أو أن»صيغة اسم المفعول تتطابق عندما يقع المفعول به قبله». هنا، أجد قليلاً من كلا العالمين، فمن جهة لغة بلدك، ومن جهة أخرى مناخ بلدي، والطابع الأخوي بين النساء والرجال الذين يعيشون فيه. في ليلتك الأولى، كنت أعتقد حقاً أنه يمكننا التحدث عن شيء آخر. وعلى وجه الخصوص أن تخبرني بمزيد من التفصيل عن نوع الذبابة التي لسعتك حين ذهبت تلعب السباقات، وفوق كل ذلك تفوز بالجائزة الكبرى».

من الناحية الشكلية، لم يكن يوهانس يحب اللعبة، لكنني مع ذلك كنت

أشعر بسعادة غامرة بفكرة أنني ابنه، من خلال اعتماده على الحظ المواتي وحده، استطاع أن يفوز في بضع ثوان بما يعادل ثلاثة أشهر من راتبه. ولكن عندما كنت أقترح عليه الذهاب معاً للتسوق، كان يغمض عينه وكأنما أغلق عليّ باب الصالة. «لا يَقْدِرُ خَادِمٌ أَنْ يَخْدِمَ سَيِّدَيْنِ، لأَنَّهُ إِمَّا أَنْ يُبْغِضَ الْوَاحِدَ وَيُحِبَّ الآخَرَ، أَوْ يُلاَزِمَ الْوَاحِدَ وَيَحْتَقِرَ الآخَرَ. لاَ تَقْدِرُونَ أَنْ تَخْدِمُوا اللهَ وَالْمَالَ».. (لوقا 16:13–14). كان هذا هو الجانب الجامد والدقيق في تدويناته، ناهيك عن شخصية القس المزعجة والمملة.

***

في الليلة الماضية حدثت حالة وفاة في السجن. طعن سجين سجيناً آخر في زنزانته. أخبرنا بذلك أحد الحراس عن الأحداث. كان القاتل، ويدعى دوسان، قد وضع وسادة على وجه رفيقه وذبحه من حنجرته، في انتظار أن يتوقف عن الحركة وينزف دمه. وعندما عاد الهدوء، طرق باب الزنزانة ليخبر الحراس بذلك. ولم يكن لديه أي حائل في تمالك نفسه. وأوضح أنه جهز سكيناً عن طريق شحذ مقبض ملعقة بالأرض لعدة أيام. كان الضحية يدعى سيلفسترأوريل. «كنت أحبه، حقاً، كنت أحبه، ولكن كان عليّ أن أفعل ذلك. إنه رجل من هايتي وقد تغير كثيراً في الآونة الأخيرة. في الليل كان يقول لي أشياء ويمارس طقوس فودو مهدداً إياي بالتعاويذ. كان يقول لي: إن المارد الذي يقاتل اللصوص والمجرمين، اكسيفيوزوXêvioso، سيأتي قريباً ويصعقني. حذرته مرات عدة، قلت له «توقف عن هذا ياسيلفستر وإلا سأقتلك». لكنه لم يصدقني»[19].

19- Heviossô أو Hebiosso أو Kheviossô أو Xêvioso أو Xêbioso – إنه فودو إله السماء الذي يتجلى في شكل رعد وبرق. وهو الابن الثاني لـ Mawu. ويُعد عقيدة العدالة التي تعاقب اللصوص والكذابين والمجرمين والأشرار (بما في ذلك السحرة وأولئك الذين ارتكبوا بعض المظالم). ورموزه هي البرق، والحمل، والنار، وشعاراته حمراء («حجر البرق») و(فأس بشفرة على شكل رأس كبش). وفودو هايتي هو دين أمريكي من أصل أفريقي، تطور في هايتي بين القرنين السادس عشر والتاسع عشر، نشأ من خلال عملية التوفيق بين الأديان التقليدية في غرب أفريقيا والشكل الروماني الكاثوليكي للمسيحية. لا توجد سلطة مركزية تسيطر على الحركة، والتي تضم

كنت أكره هذه القصص. وعندما كانت تقع، تذكّرني بالمكان الذي كنا نعيش فيه، وطبيعة الرجال الذين كنا نشاركهم وجبات الطعام، وأحياناً نشاركهم لحظات من التواطؤ، في الفناء أو الأماكن المشتركة. وفي الأيام القليلة التي تلت، كنت أتساءل أثناء مصادفة زملائي خلال التمشي، عما لديهم بالفعل خلف رؤوسهم أو ما في جيوبهم.

«أنا أعرفه جيداً دوسان هذا. إنه ليس شخصاً سيئاً، ولكن جميعهم هنا يعرف أن لديه أبناء على اتصال وثيق فيما بينهم. عندما كنت أنا من يوزع الحبوب، كنت أعطيه منها حفنة لا بأس بها كل ليلة. وهذا يعني إذا كان الأطباء يعطونه كل هذا، فذلك لأنهم يعرفون أن لديه مساً من الجنون. ولكنّهم مثل أطباء الأسنان، لا يهتمون، ولا يفعلون أي شيء. وغداً، بدلاً من أن يشرحوا كلّ هذا لرجال الشرطة، ويُظهروا أنّ هذا الرجل محدود القدرات بالفعل، سوف يسدّون أفواههم. وصدقني، سيحملون دوسان المسؤولية. على أي حال، لا يعول على قصته، مثلما كان سيلفستر يريد أن يربطها به وغيرها من هذه الأمور. كان سيلفستر واحداً من ألطف الرجال في السجن، ولم يكن عدوانياً دون جدوى، وكان يقضي وقته معتذراً. بالتأكيد، كان هايتياً، وما في ذلك؟ الهايتيون لا يقضون جلّ وقتهم، وهم ينفخون مؤخرات الدجاج. على أي حال، سأذهب غداً إلى الرئيس، وأخبره أن كل ما يبتلعه دوسان ليس طبيعياً. وهذا وإن لم يغير من الأمر شيئاً، ولكنني مع ذلك سأبلغ عنه الرئيس».

بينما كان يتحدث عن وجهة نظره حول الطب النفسي في السجون، كان باتريك هورتون يتصفح مجلة إباحية قديمة مهترئة، ربما يرجع تاريخها إلى سن المراهقة. لا أعرف كيف كان هذا النوع من المجلات المحظورة بموجب لوائح السجن، يمرّ عبر عمليات تفتيش الزنزانات، إن لم يكن بفضل تعاطف الحراس المتواطئ، الذين كانوا يغضون الطرف عن أثر يعود إلى زمان آخر. بعد التردد في اختياره، ركز باتريك على صورة قديمة رائعة

أتباعاً معروفين باسم الفودويين أو (خدم الأرواح). و يؤمن الفوديون بإله خالق بعيد ومجهول، وهو *بونديه* (Bondyè) ونظراً إلى أن بونديه لا يشفع في أمور البشر، فقد وجه الفوديون عبادتهم تجاه الأرواح الخاضعة لبونديه، وتسمى اللوائية. تكون كل لوائية مسؤولة عن جانب معين من الحياة – م.

الجمال، وكأنه كان على علاقة طويلة الأمد معها. ثم فتح سحّاب سرواله، وارتجل «لا سروال اليوم»، وتكلم بصوته الخفيض كصوت قاتل مرتبك: «أعتقد أنك لاتمانع أن تدير وجهك دقيقتين، سأستمني».

يطيل الاحتجاز من الأيام، ويمط من الليالي، ويمد من الساعات، ويمنح الزمن كثافة ثقيلة، وغموضاً مثيراً للاشمئزاز. كل شخص يقاسي شعوراً بالتحرك في وحل كثيف، من الضروري أن يخرج منه في كل خطوة، وهو يقاتل خطوة إثر خطوة حتى لا يغرق في مستنقع كراهية الذات. يدفننا السجن ونحن أحياء. ويمكن للعقوبات قصيرة الأمد أن تجعل المرء يأمل بشيء ما. أما الآخرون فهم موجودون بالفعل في المقبرة الجماعية. وإذا ما أنعموا عليهم إعفاء من العقوبة بالمصادفة، فسوف يذهبون بعض الوقت، ليستنشقوا الهواء الخارجي، لكنهم سيعودون إلى هنا، إلى منزل المنبوذين، وفيه ينادونهم بأسمائهم، وفيه يعاملونهم، كما يعاملون الحيوانات في الحقول.

أفتقد حياتي السابقة إلى درجة أنني أجد نفسي مندهشاً في الليل، وأنا أصك بأسناني وأصر صريراً.

كانت حياتي السابقة، تلك التي كنت أعيشها عندما كنت أقف على دفة مبنى «الإكسلسيور»، عندما كانت وينونا متحزمة بملابسها، مثل رائد البريد الجوي، تهبط بطائرتها سي – 2 بيفر ذات المحرك الواحد على بحيرات لورنتيد، وعندما كانت نوك، كلبتي الأبدية، التي تسبح في برك الماء وتعدو في المروج، وتتحاور معي في محادثات طويلة، لأنها الوحيدة التي كانت تعرف ما فيها. هذه الحياة لم تعد موجودة، وعندما تفتح لي أبواب السجن مرة أخرى، سأجد نفسي على الرصيف، أمام الرقم 800، شارع غوين، وأضطر إلى اختيار الاتجاه، ومواصلة عقوبتي المطلوبة في السجن بشكل آخر. وهذه المرة لن تكون لدي حتى مجلات باتريك هورتون المعنية بسن ما قبل المراهقة، والاستماع إلى أصوات تقلصات أمعائه، وهو يضغط ليتبرز بعد الأكل لأسلي نفسي.

ذهبت في يوم الأحد، إلى القداس الذي يقيمه قسيس السجن. وفي غرفة

مضاءة بالنيون تفوح منها رائحة مطهر الكريزيل، كان العشرات من السجناء الجالسين على كراسي المقصف يحدقون في الوغد المسكين، الذي يعاني من فرط السمنة، ومع كل حركة منه، كان يوحي بانطباع بالرغبة في التخلص من الملابس الكهنوتية، التي كانت تشده إلى درجة أنها كانت تحد من مدى إيماءاته. وخلال رفع القربان، أرادت الفرقة الأوركسترالية من الذي يتلو الصلاة أن يرفع الإناء المقدس، ويمسك به في الهواء على امتداد ذراعه، أثناء التغني بالتلاوات. ولكن في الحالة التي تهمنا، كان كاهن الخدمة، وهو سجين بدانته، وصلابة درزات أكمام أذرع ثوبه التنكري، لم يتمكن من رفع الكأس فوق مستوى ذقنه. من الواضح أن الحركة كانت تفتقر إلى اللباقة، وتشبه التماس زبون، وهو يهز كأسه الفارغ أمام عيني النادل.

لقد بدت لي الطقوس الكاثوليكية وبشكل دائم أنها تنبثق من عصر آخر، وعالم آخر، وعصر مظلم.

ويتمتم القساوسة المحتفلون، وهم يرتدون ملابس مثل ملابس أباطرة شعوب الأنكا، بتعويذات مبالغ فيها بلغة مندثرة، ويمزجون الماء والنبيذ، ويباركون كسرة من الخبز، ويزعمون خلال ما يسمى بترتيلة «الاستحالة» بتحويل قطعة الخبز القديمة من العجين إلى حمامة إلهية. حتى لو لم يغادر طائر هذه الغرفة قط، فإن جميع السجناء الذين شاهدوا هذه المشاهد سيخبرونك أنهم رأوا الطائر محلقاً، لأنهم لا يريدون مناقشة كل هذا، ولأن الأمر كان كافياً ليفتحوا أعينهم في اللحظة المناسبة، لأنهم بحاجة إلى الإيمان بهذه الحكايات القديمة مثلهم مثل من سبقهم، من آبائهم وآباء آبائهم الذين تمسكوا بها، فضلاً عن ذلك، فقد أسدي لهم النصح العملي، للتخلص من كل شكوكهم، وذلك ما يسمى بالإيمان.

الإيمان، هذا الشيء الكمالي المهني الذي اعترف لي والدي أنه فقده في يوم من الأيام، الذي طالما أثقل سمع أمي به، وفي داخله كان يقول: تذكر، أريد فقط أن أبقى، لحظة فقط، نعم، فقط «بضع ساعات في كمال الإيمان.

«ماذا كنت تفعل هناك بحق الجحيم؟ منذ متى وأنت تذهب للقداس؟ لا مزاح، أنت تفلت وتسقط، أيها الرجل الطيب، تفلت وتسقط. فضلاً

عن ذلك في مكان مماثل، رث ورائحته كرائحة البول. في الكنيسة، ولمرة واحدة، أقول: لا فقط، لمشاهدة العرض، والزخارف، واستنشاق عشبها، والاستماع إلى الموسيقى، مرة واحدة، حسناً، ولم لا؟. ولكن هنا، مع جوقة الخاسرين، كلا. هل رأيت الكاهن؟ اللعنة، لم أشعر به. لديه عقل يسمر به أطراف القطط. إذا أرسلوه إلى هنا، فلا تقلق، لأن أحداً لا يريد المزيد أيضاً. كلا، صدقني، هذا الشيء لم يعد لنا، يا رجل. عن ماذا تحدث موسى؟».

عندما كان موسى يلتفت إلى قومه الضعفاء كان يخلص بمزمور عن الحالة. «ثُمَّ صَرَخُوا إِلَى الرَّبِّ فِي ضِيقِهِمْ، فَخَلَّصَهُمْ مِنْ شَدَائِدِهِمْ. أَخْرَجَهُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ وَظِلاَلِ الْمَوْتِ، وَقَطَّعَ قُيُودَهُمْ. آمين». لم يكن ذلك يلزمه بالكثير، بل كان له على الأقل ميزة الإيجاز. كنا بعيدين عن السعة الأبوية العظيمة، حيث كنا ندرك عند نهاية كل خطبة دينية إحساساً بوخزة الربيع، وهمهمة الطبيعة الدائمة، وحفيف الرياح في العشب الطويل، وحماسة تبرز الشحارير السوداء التي تجثم على الأغصان المنخفضة. كان جوهر مواعظه، مثله مثل كل الثرثرة التوراتية، يغرق في سيفون syphons العقل، لكن أسلوبه كان فريداً، وبهذه الطريقة البسيطة جداً والشمالية إلى حد بعيد، حتى تجعلك تشعر أن كل شيء حولنا هو مجرد حياة، وأن لكل شيء معناه وما يقابله من قيمة، وهذا يكفي أن يلفت اهتمامه ونظرته لنفهم أننا جميعاً جزء من سيمفونية عملاقة، في كل صباح، ترتجل استمراريتها في نشاز مبهر.

لم أتحدث غالباً عن والدتي. ربما لأنني لا أعرف أبداً لماذا غادرت الأوركسترا قبل الأوان. على طاولة سريرها، توليفة علاجية طويلة، ومقطوعة موسيقية موجهة بمهارة لتهدئة نبضات القلوب، ولا شيء آخر، ولا حتى حاشية موجهة إلى رفيقها السويسري، أو زوجها الدانماركي السابق أو ابنها الفرنسي. لقد انتحرت آنا في الحادية والستين من العمر في الرابع عشر من مايو – أيار عام 1991، في ذات اليوم الذي أنهت فيه جيانغ كينغ، أرملة ماو تسي تونغ حياتها شنقاً.

لقد تساءلت عما إذا كانت أمي مريضة، أو كانت حزينة، وحيدة للغاية، عما إذا كانت قد سلكت سلوكاً خاطئاً مع السويسري، أو عما إذا كانت تفتقد

السينما، أو كانت تفكر في كثير من الأحيان بسيارة والديها الـ DS، عما إذا كانت تخجل مني، وعما إذا كانت تحب والدي، أو كانت تخدعه في الغالب، عما إذا كانت تشعر بالخوف، أو شعرت بالندم بمجرد ابتلاعها كل هذه الحبوب، عما إذا كانت تتذكر صرير ألواح أرضية شقتنا الخشبية، وعما إذا كانت تأتي إلي في الليل، وتقبلني عندما كنت رضيعاً، وعما إذا كانت تأخذني بين أحضانها لتطمئنني، وعما إذا كانت تعلم أنني أراها جميلة جداً، وأكثر إشراقاً من والدي، وأنني أحببت كل أفلامها، وعما إذا كانت تتذكر رحلتنا إلى الدانمارك، وعما إذا كانت تعرف دائماً ما تعنيه عبارة Jegelsker dig min søn، وعما إذا كانت لا تزال قادرة على ترجمتها إلى: «أنا أحبك يا ولدي»، وعما إذا كنا نشعر بأي شيء مشترك بيننا، بيني وبين آنا، يربطنا إلى الأبد، وعما إذا كانت تعلم أنه في مايو – أيار عام 1968، قمت بتقطيع الملصقات الكبيرة المكتوبة بخط اليد بالرموز الصينية وحفظها، والتي من المحتمل أنها أثارت سخرية جيانغ كينغ وهي في حبل المشنقة: «غودار، أغبى السويسريين الموالين للصين».

ومع مرور الزمن، عندما أفكر في كل هذا، أقول في نفسي: كان من الممكن أن تصبح والدتي أباً رائعاً. كان من الممكن أن تفعل العجائب لتسحبنا في أعقابها، وتحملنا بأقصى سرعة على متن قاربها الصغير القادر على تبديد السأم، والتسلل بين التحديات، والوقوف في وجه المزعجين. كنت أظن أن آنا، على العكس من والدي، الذي لم يتمكن من التعامل إلاّ مع شيء واحد في كل مرة، كانت تمتلك عقلين. واحداً، رصيناً، متأملاً، مكرساً للتحليل، والبحث، والتصور، والآخر، المسؤول دائماً، وبالكامل، عن معالجة معطيات متعددة دون توقف، والاضطلاع بمهام عديدة في آن واحد، ويتحرك في كل مكان، ويقود القافلة بأكملها إلى قبر مفتوح. وعلى العكس من والدة باتريك هورتون، لم يكن بوسع والدتي أن تدس إنجيلاً في حقيبتي قبل رحلتي إلى السجن. كنت أعتقد عوضاً عن ذلك أنها ستقول لي على عتبة الباب شيئاً مشجعاً وشيئاً ساخراً للغاية مثل: «يشعر الأشخاص الذين يعملون بالضجر، عندما لا يعملون. والأشخاص الذين لا يعملون، لا يشعرون بالضجر أبداً».

كانت كنيسة والدي الصغيرة في ثيتفورد ماينز ذات كلفة متواضعة، وذات تصميم ميثودي. وبجوار بيت الكاهن الذي كان يعيش فيه، شيدت عام 1957 وفقاً لمخطط المهندس المعماري لودفيج هاتشيك. ووفقاً للشروط المناسبة، كان فيها صحن أحادي الوعاء، ومقعد مستطيل، ومسرح جوقة بارز، وصدر مسطح، وقبة مقوسة بتاج أسقفي. وبعبارة أكثر وضوحاً، كانت هذه الكنيسة بهياكلها المنتظمة التي تمنح السقوف شكلاً مميزاً، تذكرنا بشكل غريب بحوض القارب الذي انقلب، بزجاجها الملون المنير الهادئ، ونوافذها ذات الأقواس الحادة، وممرها المركزي المليء بالسجاد الأرجواني، وصفوف مقاعدها المزدوجة من خشب أشقر، وجدرانها المطلية بلون القشدة، وثرياتها مثل الجرار الكبيرة المليئة بالعسل. كانت كنيسة أبي الميثودية على شاكلته، فسيحة، هادئة، رقيقة ومتينة للغاية. تقع في حي ميتشل، وهي بالأحرى أنكلوفونية، لكن الخطب التي تلقى «بفرنسية فرنسا» لم تكن لتبدو تشكل مشكلة لدى أي شخص. لقد نجح يوهانس في غضون بضعة أشهر، في التغلب على هذه العقبة البسيطة، ألا وهي التكيف مع مجتمعه الجديد، ودور هذا المجتمع في تبنيه. لقد كان يملأ قاربه – الكنيسة– كل يوم أحد، وخلال الأسبوع، وكان يشارك في المدينة في جميع أنواع الأنشطة التي تتجاوز في بعض الأحيان إطار كهنوتيته. ويبدو أن الرجل ولد في بعض الحفر، وحفنة من الفوهات هنا. فقد أضاف إحدى الخدمات الإضافية، مرة كل شهر، في يوم الأحد، أطلق عليها تسمية «الاحتفال بعمال المناجم». وكما هو الحال في فيلم مؤثر من أربعينيات القرن الماضي، رأينا رجالاً، وقد أصبح شعرهم رمادياً بالأسبستوس، وهم لا يزالون في ملابس العمل، يرتقون الآبار، ويصعدون القارب، وينطلقون في سيل هادئ من الكلام عن ذلك، الذي لم يكن يعدهم سوى باستراحة قصيرة، وقليل من الراحة على سطح الأرض.

بعد بضعة أشهر قضاها في الكنيسة، بدا لي واضحاً أن القس وجد مكانه هنا. في عالم يتكون من أشخاص لم يكونوا مختلفين في نهاية المطاف عن أولئك الموجودين في شبه الجزيرة، يتقاسمون المودة المتبادلة. كان عالمه يتلخص بجدول صغير من الحياة الحالية، وسيارة فورد برونكو 66

البسيطة، والجبال البعيدة، والحفر السحيقة بالقرب من المنزل، وانشغاله طوال الوقت في كتابة مشاريعه الصغيرة، والحفاظ على قاربه، والاحتفال بما يجب أن يكون، وربما يفكر بين الفينة والأخرى بامرأة من الحي، في منأى من أشجار الصنوبر التي تحيط به.

هكذا كانت حياة القس يوهانس هانسن في بداية عام 1977.

من جهتي، استأجرت شقة في شارع نوتردام، ووجدت وظيفة في شركة بناء عامة صغيرة، حيث أصبحت فيها رجلاً بارعاً في غضون بضعة أشهر. لقد تعلمت معظم الحِرَف بسرعة، وسمح لي التنوع الواسع في مواقع البناء التي تعاملت معها الشركة، أن أتعلم تحت الإشراف، بينما أقدم أفضل ما لدي. كانت شركة دولورييه تنقل جميعهم بسيارة من نوع فورد إيكونلاين الخاصة بالشركة. يجلس بيير دولورييه، الأب؛ على عجلة القيادة، وإلى جانبه الابنان زاك وجوزيف. وفي الخلف، أنا المتمرن، وجو شميت المساعد الرئيس مع الماكينات والمعدات.

كنا نكرس أنفسنا خلال الأيام المشمسة، قبيل الثلج والصقيع، لإنجاز جميع الأعمال الخارجية والهيكلية. وعندما يحل الشتاء نعود إلى المنزل، لنحمي أنفسنا من خلال إنشاء أرضيات خشبية، ونحكم الألواح الزجاجية ذات الطبقات الثلاث، والألواح الجصية وبراقع المدخنة وضبط شبكة الأنابيب المتباينة، التي كانت لا تتطلب سوى توجيهها في كل الاتجاهات. كانت يداي تنزفان، بينما كانت ركبتاي متورمتين، وظهري يؤلمني، لكنني كنت أحب هذه الوظيفة. بمجرد الانتهاء من الحمام، كنا نقفز إلى منزل آخر لبناء مرآب في لمحات، أو إعادة بناء شبكة كهربائية تضررت من قبل عصابة من السناجب. كان كل من زاك وجوزيف يحترمان والدهما بعمق، فهو لا يرفع صوته عندما يريد أن يأمر جو بأمر، وإنما يصفر له بشكل دائم بأنغام يعرفها هو وحده. من ناحيتي، كان يشير إلي في بداية الصباح ما كان عليّ القيام به، وكيفية القيام بذلك، مع تجنب حرمان المنطقة بأكملها من الكهرباء. وكنت أتصدى لهذه المهام المتعددة، دون أن أطرح الكثير من الأسئلة، وذلك وفق جدول الأيام.

لم تكن تشغلني فكرة العيش في بلدة محشوة بالأسبست، ومعفرة بالسموم، ويتربص بها الأسبستوس، أكثر مما يشغلني سكان ثيتفورد ماينز، الذين كانوا يولدون، ويترعرعون، ويتعلمون، ويتغازلون، ويتبادلون القبل، ويتزوجون، ويطمأنون، ويعملون، ويطلّقون، ويتشاركون، ويمارسون الحب، ويشيخون، ويسعلون، ويموتون بين الجبال والفوهات، وأكوام الأنقاض إلى جانب المناجم والحفر.

كنت أنا والقس نقوم برحلات إلى بحيرة ميمفريماغوغ، وفق فصول السنة، التي تتقاسم مياهها كل من كندا والولايات المتحدة، أو إلى بلدية نورث هاتلي ومنازلها التراثية. كنا نتوقف دائماً في شيربروك التي كان يعيش فيها جيرار ليبلوند، عازف أرغن الكنيسة الميثودية. وكان في كل يوم أحد، يقود سيارته إلى ثيدفورد ماينز، ليضفي لوناً ذا طابع حيوي على الكنائس بموسيقاه المقدسة بشكل أو بآخر. لكن هذا الرجل الذي كان يتمتع بملامح هوليوود المغرية في أربعينيات القرن الماضي، والذي كان من المؤكد أن جميع أبناء الأبرشية في سن ارتكاب خطيئة الحواس قد حلموا به، كان عازف أرغن استثنائياً، وموسيقياً استثنائياً بأصابع عنكبوتية، تنسج شبكات لا نهاية لها من الأنغام. لقد وجد والدي، على لوحات مفاتيح الأرغن المتراكبة من نوع هاموند Hammond B3 بدواساته الخشبية، ومجموعاته من أشرطة السحب، وعجلاته الصوتية، وواحد وتسعين ترساً، ومكبر الصوت ليسلي، مع تسليمه مع الكنيسة، أن هذه الأداة المدهشة والدنيئة بشكل مطلق التي تستخدمها بشكل عام بروكولهاروم –وهي فرقة موسيقى الروك الإنجليزية– وفرقة الروك الأمريكية ذ دورز، وذي أنيملس –المجموعة الموسيقية الإنكليزية– بيرسيسليدغ –وهو مغنٍ أمريكي من أصول أفريقية– وجايمز جوزيف براون – وهو مغنٍ وموسيقي أمريكي. ولكن عندما تمركز جيرار ليبلوند على لوحات المفاتيح، قبل القداسات بوقت قليل، بدا الأمر، وكأن عازف الأرغن الأمريكي جيمي سميث وروودا سكوت – المغنية وعازفة الجاز الأمريكية وإيرول باركر – عازف الجاز وعازف البيانو الفرنسي – قد اجتمعوا ليجعلوا الرب يندم، لو كان موجوداً، على عدم منح القداسة للورينزهاموند، مخترع هذه الآلة الرائعة. في هذه الكنيسة الفارغة، عندما

كان ليبلوند يجلس على طاولة العمل، وعندما كانت أصابعه تستحضر كل شياطين موسيقى الجاز والبلوز والسوينغ، كان القارب القديم يحلق فجأة، وتتحول السماء إلى اللون الأزرق، وتغمر السعادة صحن الكنيسة وطبلة الأذن، ويدخل يسوع في قبره ثانية، ويسود جيرار، كاردينال شيربروك، على أنه المهيمن الوحيد في أعالي السماوات.

ومن ثم بعد الإيقاعات والعواصف، كان كل شيء يهبط على الأرض ببطء، ويحتل مكانه المخصص له ثانية على الأرض. وكأن شيئاً لم يحدث، وكان الميثوديون الأوائل يدخلون في الساعة المحددة على صوت مقدمة باخ (المزاج جيداً)، الذي كان يجلس هو نفسه، على ما يبدو، كل يوم أحد، بين المؤمنين، ليسمع التالي.

لقد أدرك والدي تماماً التأثير الذي كان يمكن أن يحدثه التألق الاستثنائي لهذه الموسيقي على شعبية قداساته؛ لدرجة أنه بعد بضع سنوات كان من الصعب القول ما إذا كان الناس قد أتوا هنا للاستماع إلى كلمة الله، أو لنبرات الشيطان. كنا نأتي لنرى أيضاً، لأن المؤمنين كانوا يصلون في وقت مبكر للحصول على أفضل المقاعد، مقاعد الصفوف الأولى التي من خلالها يتوفرون على نقطة استشراف جلية حول دقة انسيابية أصابع الفنان، وعلى حركات أقدامه الراقصة العجيبة وهي تستدير وتعود، وتثب، وتقفز من نغمة إلى أخرى على دواستي الأرغن. من الظهر، كان أداء ساقيه يشبه مسار رجل ضائع يتردد في الاتجاه الذي يتخذه، وهو يخطو خطوة إلى اليمين، ثم ينقلب عن اختياره، فيستدير إلى اليسار، ليلقي بنفسه في المركز قبل إعادة إنتاج رقصاته غير المنتظمة التي كانت تبدو أنها لا تؤدي إلى أي شيء، والتي كانت مع ذلك، تتابع مسارات تكييف اللحن خطوة إثر خطوة. لقد أصبحت براعة أصابع أقدام ليبلوند أسطورية مثلها مثل مفاصل أصابع يديه. وقد أطلقوا عليه في هذا المجتمع لقب («جيرار ذو الأيدي الأربع»).

كان والدي فخوراً جداً بهذا الشريك الساحر، الذي أصبح صديقه شيئاً فشيئاً، ونقطة جذب رئيسة لقداساته. وليقتنع بذلك، في أوقات الظهيرة تقريباً، لم يكن هناك إلاّ وترى الحشد يسرع ويتجمع حوله في الساحة الأمامية، بينما كان يوهانس يتراجع وراءه قليلاً، ويصافحه بعض من بليدي

الذهن الذين لم يسمعوا أبداً أدنى موسيقى خارج المتاجر الكبيرة، وغرف الانتظار والمصاعد.

عندما كنا نلتقي لنتناول كأساً من الشراب، لم يكن بوسع جيرارالكف، وفي كل مرة عن تزويدنا، أنا ووالدي، بالمعلومات عن أسرار صنع الأرغن هاموند B3.

«إنه شيء مميز. آلة جهنمية. تخيل واحداً وتسعين مسننة، لكل منها عدد أسنانها الخاص. ثم تقوم بتدويرها في المجال المغناطيسي للمغناطيس. هناك، يصبح الملف المثبت على كل مغناطيس نفسه المستشعر للمجال المغناطيسي المتغير الذي تعيده العجلات، وهي نفسها مصنوعة من مادة مغناطيسية. ذلك هو سر لورنس هاموند، كيمياء بين المسننات والمجالات المغناطيسية وأجهزة الاستشعار. ومن خلال هذه التحالفات الكهروميكانيكية ومن خلال العزف على «أشرطة السحب»، بوسعك أن تعزف لبيترسون - وهو معلم موسيقى وعازف بيانو أمريكي - وجورج فريدريك هانْدل - المؤلف الموسيقي الكلاسيكي الإنكليزي من أصل ألماني، عاش الفترة الباروكية الأخيرة، تميز بأعماله في فن الأوراتوريو. كانت لغته الموسيقية تمثل خلاصة الأساليب الموسيقية في أوروبا، فلاقت أعماله نجاحاً في كامل القارة - وتشارلز إيرلاند - عازف موسيقى الجاز الأمريكي - وباخ، عن طريق ضبط أشرطة السحب أو تحاشي «النقرات». كان لورنس بالفعل رجلاً فريداً. لقد قرأت أنه أمضى جزءاً من شبابه في فرنسا، وفيها عرض على شركة رينو، وهو في سن الخامسة عشرة منظومة ناقلة للحركة الأوتوماتيكية لسياراتها. ثم في أمريكا، اخترع في عام 1922 نظام رؤية ثلاثي الأبعاد، وصنع ساعات غريبة، واشترى بيانو مستعملاً لتفكيكه، وبمساعدة مسؤول حساباته الذي كان يقدس على لوحة المفاتيح في الكنائس، صنع أرغناً بقطع من الأسلاك، وعجلات مثقبة، ومغناطيسات، ولفائف متصلة بكل ماله علاقة في الرأس. هكذا ولدت العلامة التجارية. وفي أعقاب ذلك، أنتج أيضاً عام 1932 أول مركب متعدد الأصوات (نوفاكورد) - جهاز كهروصوتي قادر على تعديل عناصر صوتية أو تركيبها انطلاقاً من مكونها الأصلي - كان هذا الرجل مذهلاً. قضى جل وقته

في اختراع النظم. وبعد الموسيقى، قدم براءات اختراع للجيروسكوبات الجديدة - لحفظ التوازن والاتجاه - واخترع قبل وفاته، منظومة جديدة للجيش لتوجيه الصواريخ».

ما العلاقة بين حادث دوي قنابل مكنمارا والصوت المزمر الخافت المنفجر من الأرغـن B3 فيما يخص المقطوعة الموسيقية تي ديوم [ايتها الالهة] لبروكنر؟ لا شيء، باستثناء أن هاتين النوتتين المتنافرتين والمتناقضتين كانتا قد ظهرتا في الوقت ذاته في رأس واحد، وفي الرجل ذاته، مثل أشياء تتزاحم بغير انتظام في عقل دون وعي، وهو يضغط، بشكل عشوائي، على دواسة المعرفة الهائلة[20].

كانت حياتي تنتظم شيئاً فشيئاً في هذه البلدة الصغيرة الغريبة دون ضجة أو إثارة. ويمكن أن تمنحني أيام الربيع الجميلة في مركز ثيتفورد جواً أنيقاً، وتوفر لي المساكن الجميلة ذات الطراز الإنجليزي مزيداً من السحر. كنت أعمل، وألتقي بنساء في مثل عمري، وأركب الزوارق للتجديف على سطح البحيرات، حتى إنني اشتريت من جوزيف، نجل صاحب العمل، سيارة هوندا سيفيك صغيرة طراز 1974، تزن نحو 600 كيلوغرام، تتمتع بميزة محركها الذي يدور في اتجاه معاكس لعقارب الساعة، فضلاً عن تفرده الشائع بين كل تصاميم العلامة التجارية.

بعد عمل غزير ومكتمل بسلاسة، كان بيير دولورييه يأخذنا جميعاً لتناول العشاء في المطعم. في فصل الشتاء، كانت قائمة الطعام تقتصر على طبق

20- جوزيف أنطون بروكنر: مؤلف سمفونيات وموسيقى كنيسية نمساوي. يعرف أكثر بتأليفه لتسع سمفونيات كبيرة ومؤلفاته الدينية. عين كعازف أرغن في دير رهبان القديس فلوريان عام 1849، وفي لينتس عام 1856. وفي عام 1867 أصبح عازف الأرغن في محكمة المصلى في فيينا. وبعد أربع سنوات لاحقة أصبح أستاذاً في معهد فيينا للموسيقى. ومكنمارا هو وزير الدفاع الأمريكي بين عامي 1961 و 1968 في عهد الرئيسين جون كينيدي وليندون جونسون، قام بدور رئيس في تصعيد تدخل الولايات المتحدة في حرب فيتنام. ومذهب ماكنمارا أو مذهب الرد المتدرج، هو استراتيجية الدفاع التي اختارتها الولايات المتحدة، لتأسيس مذهبها النووي الذي ظهر عام 1962 – م.

فرنسي كندي، وهو نوع من الطاجن، الذي يتكون من اللحم المفروم، وحبوب الذرة، مكسو بالجبن المبروش. وفي الصيف، على المائدة ذاتها: سلطة الكرنب الأبيض، والجزر المبشور المتبل بالمايونيز، ودجاج بالعسل ورقائق البطاطس. خلال هذه اللقاءات على الطاولة، كان دولورييه يعيد تشكيل عالم أعمال البناء، «ويصفع صفعة في وجه» واحد أو اثنين من محترفي السياسة، ويعدنا أننا سنتوسع في العام القادم ونوظف آخرين، ثم كان يدع نجليه يضحكان بلطف على سيارة الهوندا الصغيرة التي تخلوا لي عنها: «إنها مريحة وفيها مكان، شرط ألاّ ترتدي ساعة».

مع مرور السنين، كنت ألاحظ تراجع حماسة القس الروحية، وتعبه، وصعوباته في التحدث باسم الكتب المقدسة، وعدم قدرته على الصلاة، وإعطاء ما كان يدفع له من أجله. لكنه كان يواصل العيش وفقاً للقاعدة، ويحتفظ ببيت الكاهن والقارب الكبير - الكنيسة - الذي أوكل إليه. كان جيرار، يقوم بواجب تأمين المشهد في كل يوم أحد، وعلى الرغم من تأثير بارنوم Barnum[21] لم يعد يعنيه شيءٌ، كان يواصل الكتابة، وربما باهتمام أكثر مما لم يقم به أبداً، لسرد قصة البشرية الأبدية، والعالم وحيواناته الذي يحيط بها، وغالباً ما يقتبس من الإنجيل وفقاً لكونراد لورينتس - عالم حيوان وطيور وسيكولوجي حيوان نمساوي. يعده الكثيرون واحداً من مؤسسي الإيثولوجيا الحديثة - أو موريس ماترلينك - المعروف أيضاً باسم الكونت ماترلينك منذ عام 1932، وكان كاتباً مسرحياً بلجيكياً، وشاعراً، وكاتب مقالات فلمنكياً، لكنه كان يكتب باللغة الفرنسية، ويكرر كل شيء في كل

21- تأثير بارنوم، ويعرف أيضاً بـ تأثير فورير نسبة إلى مقولة بي تي بارنوم: « لدينا كل شيء *لكل واحد من الجمهور*» هو ظاهرة نفسية تشير إلى ميل الأفراد إلى رؤية كلام المنجمين على أنه دقيق، وأنه وصف شخصياتهم التي يفترض أنها صممت خصيصاً لهم، ولكنه في الواقع عادة ما يكون غامضاً وعاماً، لدرجة أنه يمكن أن ينطبق على طائفة كبيرة من الناس. ويشرح تأثير فورير على ما يبدو، ولو جزئياً، سبب تصديق الكثير من الناس للعلوم الزائفة. كالأبراج والتنجيم وكشف البخت والكهانة، لأن هذه الممارسات تعطي تحليلاً دقيقاً للشخصية. وتشير الدراسات العلمية أن العلوم الزائفة ليست أدوات صالحة لتحديد الشخصية، لكن مع ذلك كل واحدة من هذه العلوم الزائفة لها زبائن راضون عنها، ومقتنعون بدقتها - م.

مرة، من البداية، كل شيء، منذ ذلك اليوم عندما كانت السماء والأرض تتقاسمان النفوس، وحيث كان على جميعهم الاختيار بين الخير والشر.

عندما كان والدي يريد أن يتجاوز عدم الارتياح من وضعه وحالته، كان يرتدي ملابس المدينة، ويذهب إلى زيارة الأماكن المنافسة الفخمة، وكنيسة سانت الفونس، التي تقع في 34 شارع نوتردام، على بعد مبنيين من مكتب البريد ومحطة الحافلات. كان يحاول الوصول إلى هناك خلال ساعة الهدوء فيستكشفها، وهو يضع يديه خلف ظهره، بالوتيرة ذاتها التي يتنقل فيها المرء في متحف. ولقد أدرج هذا الصرح - وبكل محتوياته - بوصفه تراثاً ثقافياً في كيبيك، واشتهر أنه واحد من أغنى الصروح في البلاد وأجملها. وهنا، من الواضح، ليس هناك أدنى أثر للأسبست، ولا شيء غير المواد النبيلة. ثريات بمئات الشموع، ومذابح ضخمة، وتماثيل مرسومة، وأعمال خشبية مشغولة بدقة، ومنحوتات حجرية، ولوحات مذهلة، وإضاءات، في كل مكان، تشهد على ثراء هذا الإكليروس الكاثوليكي الذي حكم مدة طويلة، متسلطاً على أجساد الناس وأرواحهم، في هذا البلد الذي فيه النساء، وغالباً العشرات من الأمهات، اللواتي كن يغذين مرجلاً لايخمد، لكنيسة تقول: هل من مزيد؟. كل ما رأيناه، من الأرض حتى السقف، وما كان يقرع أو يلمع، لم يبن للاحتفاء بالله، بل ليكون شاهداً على عمل رجال الدين، وسطوة روما وغطرستها وجبروتها.

وعليك أن تعترف، لقد كان عملاً متقناً: (قبة مدورة، وعديد الحجر المقولب والمجوف المستخدم لتزيين السقوف والأقبية، وجناح بثلاثة صحون، وكل مكان فيه مرصوف بالحجر والخشب الصلد، مقاعد سميكة مثل الأشجار، عملت بشكل متطابق تماماً، بزخرفة باروكية بالكامل). تجد الفن في كل مكان، وبكل أشكاله، في لوحات وأقمشة مطرزة، ومذابح مذهبة بالذهب السويسري، وأعمال خشبية مطلية باللون الأخضر الفاتح، والرائحة، رائحة المنازل حسنة المظهر. إلى كل هذا كان علينا أن نضيف ثماني محطات تطهير، وثماني صالات للزوار، يتعامل فيها الرهبان أو الراهبات مع من هم خارج الدير، وثماني صالات مرهبة - يسمع فيها الكاهن المؤمنين في جلسة الاعتراف - حيث يدعو حجمها وعددها إلى

التفكير أن الشيطان كان يأتي ويتناول العشاء في المدينة كل ليلة. وأخيراً، يجثم على الشرفة الأخيرة من الساحة، من خلال هيمنة نحاسياته على كل كوة المؤمنين، أرغن شركة كاسفان بضغط معياري 150 درجه، تم تجميعه في عام 1902، بواحد وعشرين وظيفة، وسبعة وعشرين صفاً، إضافة إلى وظيفة البومبارد بالدواسة[22]، وأنابيب أكثر مما كان ينبغي.

في هذا الكون المغطى بالجص، كان كل شيء يدور في رأس والدي، القارب المنقلب، والأرغن B3 مع الدواسات، والعجلات التي تصدر أصواتاً مغناطيسية، وأقدام جيرار، ومقاعد الصنوبر، والجدران المسلوخة، وجيمس براون وجيمي سميث اللذان يتسلقان إلى السقف، وكل هذه الفوضى اللعينة التي كانت تبدأ بالتمايل والتأرجح، بينما كانت مقصورة ليزلي ترفع القلم الأسود، وفي الخارج، كانت حتى أشجار التنوب البلسمية تمايل هياكلها على إيقاع الريح. كانت أنفاس هذه المسرحية الموسيقية تحيي فيه القليل من الإيمان بنفسه، وكذلك الرغبة في محاولة العثور على الأرنب، والقبعة، ومن يدري، ربما القليل من السحر.

وبعد أن اقتنع أن مكانه كان بين الإنجليز في حيهم، حي ميتشل، قفل راجعاً نحو بيت الكاهن وهو يطلق صفيراً، بعيداً عن روما، وتفاهاتها وأفعالها.

في طريق العودة، وهو يخطو هذه المرة بخطوة حاج، كان يفكر في كنائس المصرفيين التي بنيت كمقرات اجتماعية، دون تدبير أو تحفظ، واجهات مخصصة لعرض كل الذهب من سبائك ومجوهرات، والحلي الزجاجية للإتجار بها، حيث كانت تستخدم في السابق لشراء الأراضي وذاكرة الهنود.

***

لم ينته شهر يناير – كانون الثاني، ولم يرخ البرد من إحكام قبضته علينا جميعاً. انخفضت درجات الحرارة في الليل أكثر، ولكن في الزنزانات، استقر مقياس الحرارة بين 15 درجة و16 درجة. كل الأنهار تجمدت وتحولت شلالات نياغارا إلى بلّور من الجليد. وعرض عليّ باتريك صوراً

22- البومبارد: اسم آلة نفخ هوائية، قديمة من أوائل نماذج آلة الأوبوا، وتسمى أيضاً المنفرد solo – م.

منشورة في إحدى الصحف. «يبدو أنه رقم قياسي، لم يكن قط سميكاً جداً. إنه هائل. يشبه كتلاً ثلجية ضخمة متدلية. ستلاحظ أنني لم أقل صواعد. لقد كان معلماً علمنا شيئاً لنحدد الفرق بين الاثنين: كتلة هابطة وكتلة صاعدة، إنها رائعة. أليس كذلك؟ حملتني الصورة، إلى الأبعد، وجعلتني أفكر في النافورة الموجودة في الحديقة الصغيرة في بيتي، ولكنها أكبر. كان هناك في الحديقة تمثال لفتاة شبه عارية، تحمل على كتفها مايشبه المزهرية، ومنها يتدفق الماء. عندما يتجمد الماء، يبدو أنه لا شيء، باستثناء الذي اسمه نياغارا، ولكنه أصغر حقاً. عندما ترى حجم السقوط، والوزن، تتساءل كيف صار واقفاً. وفي رأيك، متى سيذوب، ويسقط الجليد مرة واحدة أو على شكل حزم صغيرة؟».

كانت تلك هي التلافيف النموذجية لعقل باتريك، والتي كانت تنتهي دائماً بسؤال هورتوني مدوي. مربك مثل صفيحة من الجليد. ماذا تقول بعد ذلك؟ ماذا ترد؟

قضيت أمس وقتاً ممتعاً في صالة الزيارة. وهذه الزيارة الجديدة هي الثامنة لكيران ريد، الشخص الوحيد الذي انشغل بقضيتي لأكثر من عام، وهو الشخص الوحيد الذي دافع عني من البداية إلى النهاية، من خلال اعتراضه بشدة على فصلي من العمل، مدافعاً عن موقفي الهش ضد صاحب العمل، وبالقناعة ذاتها التي أظهرها بعد ذلك أمام القاضي في المحكمة. كان عناده عديم الجدوى، باستثناء التأكيد له بالعداوات القوية داخل المبنى.

يُعد كيران ريد واحداً من بين ثلاثة وستين مالكاً مشاركاً، يمتلك شقة في مبنى «الإكسلسيور» في مونتريال، حي أونتسيك، والذي عملت فيه مدة ستة وعشرين عاماً، المشرف، والبواب، والمستخدم، والممرض، وكاهن الاعتراف، والبستاني، وعالم النفس، وفني الإلكترونيات، والسباك، والكهربائي، والطباخ، والكيميائي، والميكانيكي، باختصار كنت الوصي المشرف على هذا المعبد الصغير، الذي كان لدي جميع مفاتيحه تقريباً، وأعرف كل أسراره.

تقع شقة السيد ريد رقم 605 في الطابق السادس والأخير، وتطل على

المسبح والحديقة، وينبعث منها، في ساعات المساء تقريباً، ضوء، وتتيح لإطلالة مثيرة للإعجاب على باقة واسعة من أشجار القيقب ذات القمم الكثيفة. قضى كيران ريد، وهو كيبيكي من أصل إنجليزي، شطراً كبيراً من حياته المهنية في الولايات المتحدة، وفيها مارس قبل تقاعده وظيفة غريبة للغاية، وهي تقييم تعويض الموتى. ووفقاً للغته الأم، فإن نشاطه يتمثل كـ «خبير في تقييم الخسائر». وبالأساس عمل السيد ريد بشكل مستقل، إذ ينادى عليه عند الحاجة، مثلما ينادى على سيارة أجرة عند الملمات، استأجرته شركات التأمين الحريصة على حماية مصالحها، والتفاوض على خفض تعويض المتوفى، عندما تحدث مأساة، وعليها تعويض عائلة الضحية.

كان كيران ريد واحداً من أقدم السكان، يعيش حياة مبهمة. فيها من السرية، كما يقول منتقدوه. لم يحتفظ بعلاقة وثيقة مع جيرانه، ونادراً ما يندمج اجتماعياً في الأماكن العامة، أو بجوار حمام السباحة. كما أنه لم يكن مثابراً كثيراً في اجتماعات مالكي الشقق، مكتفياً بتسوية مبلغ نفقاته المطالب بها مجرد تلقيه إشعاراً بذلك. ولقد فوجئ السكان كثيراً باكتشاف هذه الشخصية، التي كانوا بالكاد يتعرفون عليها، وقد اعتادوا على رؤيته يتسلل إلى هذه الحياة بصمت وتراجع، وهو يتحول إلى مدافع عنيف عن خادم المبنى الأكثر تواضعاً.

عندما كان يعود من مهمته، وغالباً ما يكون في وقت متأخر من الليل، يقرع السيد ريد جرس شقة عملي، لمجرد الدردشة بعض الوقت، وتناول كأس من الشراب. كنت أعرف أنه لا يريد أن يصعد مباشرة إلى الطابق السادس، وأن يختلي بنفسه وهو يتصفح ملفه، الذي يضم صورة شخص ميت لا رأس له، أو صورة طفل دهسته شاحنة. لذلك كان يقرع جرس باب شقتي، ويجلس على الأريكة، ويروي لي عن رحلته، وعن تطهير المتوفى من الذنب، في إجراءات الصعود، وصخب ضجيج رحلة الطيران، ومقاعد شركة طيران اليونايتد غير المريحة، ثم بعد مناقشة قصيرة عن مخاطر النقل الجوي، ولأنه كان من الضروري أن يذعن لذلك، يسلمني المحتوى المحزن لتوكيله الجديد، وتوغله ثانية في الحزن والألم والذهول. في كل مرة كان يروي لي قصصاً رهيبة لا تصدق، كان عليه إدارتها واستيعابها، وهو يفتش

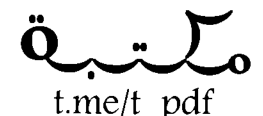
في جيوب المتوفين وحافظاتهم. في بعض الأحيان كان الموتى يكذبون ويخدعون ويخونون ويموهون. وكان عمل ريد بالضبط هو أن يجعل الموتى يتكلمون. وعلى الرغم من أنه كان مشكلة بالنسبة له منذ مدة طويلة في ممارسة هذه المهنة، أخبرني كيران أنه على مر السنين، انتهى به الأمر أن يعتاد على العيش في هذا الكون، حيث الحقيقة غالباً ما تقف في منتصف الطريق بين الأحياء والمفقودين، في طي النسيان من المحاسبة البشعة. على أي حال، عندما كان (المخمن) يعود من رحلته، كانت الكلمات الأولى التي يوجهها إليّ عند دخول منزلي هي نفسها دائماً تقريباً: «اليوم، يا بول، كما ترى، أنا متأكد من شيء واحد: لم أجعل أحداً سعيداً».

كما هو الحال في كل مرة، تسعدني زيارته. وتجعلني متصالحاً مع العالم الخارجي. فالثقة التي يوليني إياها في نفسي تخفف عني، وتهدئني، وتطمئنني. بالأمس تحدثنا عن مبنى «الإكسلسيور»، ماكان عليه من قبل وما كان عليه في البداية، وما نعرفه عنه اليوم إلا الأقل القليل. كانت الحديقة بأشجارها الهزيلة، وكتلتها الصغيرة، وأجماتها المبتدئة، وعشبها الخجول الذي يعاني من الضمور، لا تزال مجرد ميدان للخبرة، تتطلب الاهتمام والرعاية، وما يلزم من الماء حتى تستقر الحياة بشكل مستدام. «هذه الحديقة، يا بول، نحن مدينون لك بها. عندما أرى الروعة المكتنزة التي أصبحت عليها في ثلاثين عاماً، وأنا، الذي رأيتها عند نشأتها، لا أستطيع أن أصدق ذلك. كان والدك قساً، أليس كذلك؟ لقد أورثك أصابع الله. لكن الشخص الذي حل مكانك، هذا الشخص لا يعرف شيئاً عن النباتات. فهو يقص ما ينمو، ويقطع ما ينتأ. وفي نهاية المطاف، لا يعرف كلّ شيء عن الأمراض التي تؤثر على النباتات، واحتياجاتها الخاصة من المياه، والأنواع التي تحتاج إلى التقميط في فصل الشتاء. إنه مختلف عنك تماماً. لا يمتلك ذوقاً في هذه الأشياء، ويعاملها دون مراعاة. المرة الوحيدة التي يبدو فيها حيوياً، ويسكنه شكل من أشكال الحساسية، عندما ينزل إلى المرآب للتحقق من مستوى زيوت سيارته الشيفروليه. أنا لا أخبرك حكايات طريفة يا بول. هذا الرجل مهووس بهذه اللحظة الدينية تقريباً عندما يسحب المقياس من ماسورته، للتأكد من أن المستوى مطابق. ذات يوم، شاهدته أثناء قيامه بهذه

العملية، وكان واضحاً: كان هذا الصبي يصل إلى درجة اطمئنانه. ميزة أخرى، لاحظت ولعه بإطارات سيارته. يقضي الكثير من الوقت، ليس فقط بتنظيفها بالفرشاة، ولكن بعد ذلك بطلائها بنوع من شمع التلميع، الذي يمنحها مظهر «لباس سهرة» مثيراً للسخرية تماماً. ودون أدنى شك بالنسبة لي، هذا الرجل يحب إطاراته حقاً. هل تتصورني سأقرع جرس بابه للدردشة، كما كنا نفعل، ولكن هذه المرة، في مقارنة مزايا إطارات كوديير Goodyear الفصول الأربعة مع إطارات فاريرستون Firestone الأخيرة «الخاصة بالشتاء»؟ كما ترى، لن أغفر لرئيس المالكين الذي طردك. ناهيك عن استبدالك بمهووس بزيوت التشحيم والإطارات الهوائية».

وأنا أستمع لصوت ريد مرة أخرى، وإلى هذه النبرة الإنجليزية المستهزئة على نحو مرعب، هذه المجاملات النباتية المرتبطة بسلوكيات شيطانية ضئيلة معلقة على ظهر خليفتي، جعلتني أستفيد بشكل هائل، إلى حد أدركت أنه يمكن تحمل روتين السجن، وتحمل جلسات البرد القصصية، وجلسات العصر والدفع الهورتونية المسلية تقريباً.

منذ قليل، وبعد أن اتخذ مكانه، بذل باتريك جهداً طويلاً تكلل بالنجاح. وطوال العملية، كان يحدق بي، وهو يتباهى بهذا المظهر القبيح والمربك، الذي تتخذه الكلاب في كثير من الأحيان في إكمال حاجتها.



وتوقف الأرغن عن العزف

كانت السنوات تمر، واحتراماً لشروط تفويضه حرفياً، كان القس يتمسك برجاله الإنجليز، الذين كانوا يترددون على الكنيسة، من أجل رؤية كعبي ليلوند الراقصين على الدواسات. أما أنا، فقد ارتقيت خطوة في عصبة البنائين، حيث إن بيير دولوريه كان يعهد إليّ بمواقع بناء صغيرة، فضلاً عن تدريبات موجزة لممتهن مبتدئ، وكان بوب وودوارد، يرفض بعناد التحدث بلغة أخرى غير الإنجليزية. طوال اليوم، كانت كلمات «النكاح» و«القرف» تحلق أسراباً، وهي ليست علامة جيدة أبداً. لكن بوبي، كما يسميه رب العمل، على الرغم من عيوبه الهائلة وشعوره بالرضا عن الذات، كان يبدو، وكأنه يتمتع ببعض الحصانة.

كان عليّ أن أعترف وأنا في سن السادسة والعشرين، أن الثيتفورديين ما كانوا يتدافعون عند بابي، وكنت أعوض عن هذا النقص من خلال الممارسة المكثفة للتجديف، بمجرد أن يسمح الموسم بذلك. كنت أضع قاربي في الماء في الصباح، ولا أتركه إلا في المساء، وأنا أتجول طوال اليوم على أديم مياه بحيرات ماجوجوماساويبيوأيلمر وسانت فرانسوا المظلمة. كانت جميعها مختلفة، بروائحها الخاصة لكل واحدة منها، وأنماط رياحها، وعروق تياراتها غير المرئية. لكنها كلها كانت الحامل لهذه القوة الحيوية، وهذه السعادة الأساسية التي كانت تمنحني هذه الرغبة، التي لا تقبل الجدل للوصول إلى الطرف الآخر، ولتحقيق ذلك، مهما كلفني الأمر، وأينما وجد.

بينما كنت أجدف، وأبي يلقي مواعظه، وجيرار يدوس على دواسة الأرغن، والأسبستوس يهترئ، كان هناك شيء ما يحدث في هذه المقاطعة،

حركة أرضية تهز الدولة الفيدرالية، وترعب عرش إنكلترا. بدأت كيبيك عملية استفتاء من أجل الحصول على استقلالها، وأعلمت أوتاوا أن الوقت قد حان، بعدم الانحناء إلى لندن، والعيش بين المقاطعات بقية حياتها. وقد قام السياسي رينيه ليفيسك والحزب الكيبيكوي بالتعبئة لدعم موضوع الاستفتاء المتعلق باستقلال المقاطعة، وطرحه ضمن النظام الفيدرالي الكندي في العشرين من ديسمبر - كانون الأول 1979، ولكن أيضاً في سياق حكومة بيير إليوت ترودو، الذي عارض بشدة فكرة الانفصال، التي تدعو إليها حركة «رابطة السيادة» التي أسسها ليفيسك، على الرغم من أنه كيبيكوي. وعلى أي حال، كان جميعهم يعرفون الطريق إلى المستقبل الذي لابد أن يختاروه من خلال اتخاذ قرار، اعتباراً من نص وضعه المتشددون في الحزب الكيبيكوي، والذي اشتبه في أن أحدهم كان فيما بعد موالياً للدولة الفيدرالية. «أعلنت حكومة كيبيك اقتراحها التوصل إلى اتفاق جديد مع بقية كندا مبني على مبدأ المساواة بين الشعوب؛ وستسمح هذه الاتفاقية لكيبيك بالحصول على السلطة الحصرية، لوضع قوانينها وتحصيل ضرائبها وإقامة علاقات خارجية، وهي ذات سيادة، وفي الوقت نفسه، البقاء مع كندا على شراكة اقتصادية، تنطوي على استخدام ذات العملة؛ ولن يتم تحقيق أي تغيير في الوضع السياسي الناتج عن هذه المفاوضات، دون موافقة السكان في استفتاء آخر؛ وبالتالي، هل توافقون على منح حكومة كيبيك تفويضاً للتفاوض على الاتفاقية المقترحة بين كيبيك وكندا؟».

حتى منزل دولورييه، كان سيرفض بناء أي شيء اعتباراً من خطة خرقاء، فضلاً عن ذلك، عندما استخدم المهندس المعماري لهذه الأشياء المكدسة، وفي أوج قصوره، الفاصلة المنقوطة[23] في نص واحد ولثلاث مرات، علامة التنقيط التي تعني الإحراج والشك، ليكشف عن عقل حذر متردد بين الإغراء لوضع نهاية للجملة مرة واحدة وإلى الأبد، أو مواصلتها لمعرفة إلى أي مدى تقودنا.

23- الفاصلة المنقوطة (؛)علامة من علامات التنقيط، وتؤسس اتصالاً وثيقاً بين جملتين. كأن تكون الجُملة الأولى سبباً للثَّانية، أو العكس. يُمكن استبدالها بأحد حرفي العطف (و) أو (لكن).

في يوم الثلاثاء في العشرين من مايو - أيار 1980، بعد حملة قاسية وصلت إلى حد إنشاء خطوط ترسيم الحدود داخل العائلات، وضع سكان كيبيك 2187991 بطاقة معنونة «لا شكراً!» في صناديق الاستطلاع ورفض ما نسبته 59.56% فكرة إسناد مستقبله لثلاث فواصل منقوطة.

من الواضح أنا ووالدي كمقيمين دائميين، لم نشارك في التصويت. من ناحية أخرى، كان أفراد عائلة دولورييه الذين كانوا يصدحون بأمل في الاستقلال، يجلسون أمام التلفاز، باستثناء وودورد، الذي كان منشغلاً على الأرجح بالاحتفال بفوز أنصار الفيدرالية مع عدد قليل من أتباع التاج. في وقت ما من المساء، ظهر رنيه ليفيسك على الشاشة. هل كان متعمداً وهو ينطق عبارته، أم كانت مستوحاة من كبرياء وحزن وغضب مؤيديه؟ أولئك الذين كانوا يشاهدون تلفزيوناتهم في تلك الليلة لم يسألوا أنفسهم السؤال. عندما سمعوا هذا الرجل يقول لهم: «إن فهمتكم بشكل صحيح، فأنتم من يقول لنا: نراكم في المرة القادمة!» نظر كل منهم إلى الآخر، ورأوا أن عيونهم جميعاً مليئة بالدموع.

استثمر والدي الأيام الخمسة التي كانت تفصله عن إلقاء موعظته القادمة لكتابة نص خالٍ من الفواصل المنقوطة، مستلهماً إلى حد كبير رسالة أمل ليفيسك. كان هذا الخطاب الطويل يشيد بالدور الأساسي الذي يقوم به الإيمان، عندما نبدأ في معركة الحياة، هذا السعي المستمر والصعب دائماً لقهر النعمة، وليكن الاستقلال، هنا، هو المضمون.

لم يسبق لوالدي أن تحدث عن الإيمان بالقدر نفسه الذي كان عليه منذ أن فقده. «حتى عندما تجد نفسك على الأرض، فأنت تؤمن أن كل شيء قد انتهى، وتشك، وتستيقظ وتؤمن، وتؤمن قبل كل شيء وضد كل شيء، لأن الرب قريب منك، وصوته هو الذي يقول لك: ستكون هناك مرة قادمة، وإذا لزم الأمر، مرة أخرى، ثم، في نهاية النهايات، في نهاية المسار ستدخل الدار أخيراً». لا شيء جديد، كانت الأمور عادية وتقليدية، ولكن بعد خمسة أيام من رسالة ليفيسك القصيرة، كان هذا الأمل العنيد الذي أعرب عنه والدي سبباً في إثارة رجاله الإنكليز الذين لم يتأخروا، في يوم الأحد وقتاً طويلاً في الفناء الأمامي.

في عام 1980، كانت المناجم لا تزال تعمل، والرجال يضخّون من دون عائق في العصر الجليدي. ولكي يغوصوا في في أعمق الأعماق، كانوا يحفرون المزيد من الآبار، فيكتشفون عروقاً جديدة، والشركات تستخدم الديناميت. والانفجارات الهائلة تهز الأرض بانتظام والمدينة التي نحن عليها. مع مرور الوقت ومع عمليات قضم الأرض، كانت الحفر تقترب من المنازل والأحياء المأهولة. وكان من المألوف أن يتساقط وابلٌ من شظايا الأرض والصخور والحصى، متناثرة بهذه التفجيرات، في سماء مفتوحة على المنازل المجاورة، وعلى الرجال الذين يعيشون هناك، وعلى السيارات التي كانت متوقفة.

في نهاية الستينيات، حدث هنا حدث عنيف من شأنه أن ينبئ بالأساليب الجديدة وأولويات العالم المستقبلي، وبذريعة الرغبة في حماية السكان من التداعيات، ولكن في الحقيقة بسبب اكتشاف فلذ معدني جديد تحت مساكن حي سان موريس، ليس بالهيّن التخلّي عنه، قررت الشركات التخلص من كل شيء، حيث قاموا بنقل المنازل واحداً تلو الآخر، ثم المرائب، والمصارف، والشوارع، والرجال، والأثـاث، والبضائع والممتلكات، والذكريات، لقد وضعوا كل مكونات الحي بعيداً في أرض شاغرة مبهمة على شكل مجموعات وبكميات كبيرة، ولم يتركوا للهدم سوى هيكل كنيسة معقدة للغاية، لا يمكن تفكيكها، إضافة إلى سلسلة من المباني الإدارية القديمة، التي تم تدميرها. وعندها أعد المكان للانفجارات بعد أن صار ممسوحاً، حتى لو لم يكن استغلال هذا الموقع فعالاً أبداً، بسبب التأخير في إجراء دراسة في مجال الخبرات المضادة.

لقد ظل حي ميتشل حيث ما كان عليه، وكان عليه أن يعتاد على الغبار والتفجيرات. على الرغم من أنه كان على تماس مغ ماتقذفه آبار شركة كنغ وبيل بيفر وجونسون، لم تكن تتوقف أبداً هذه المنطقة المجاورة التي تعمل وكأنها في حرب، حتى لو انهار نصف سقف في يوم من الأيام تحت تأثير نيزك قوي يشبه الألياف، يخرج من مركز الأرض. عندئذ أدرك جميعهم تماماً خطر إمكانية العيش في خط تسديد هؤلاء القناصة العميان المجهزين بكميات كبيرة من العيارات.

لقد عقدت اجتماعات على عجل، وفي ضوئها أوعدوا بإبعاد نقاط الاستثمار وعمليات كشط التربة عن المساكن قدر الإمكان. وثمة تدبير أمني رمزي آخر هو تشغيل صافرة إنذار قوية جداً، قبل التفجير بربع ساعة. وسرعان ما انتهى هذا الإجراء، ولكن كان لي شرف مشاهدة بعض حركات الذعر الناجمة عن نفخ أبواق الموت هذه.

بدأت هذه الأحياء، التي عاشت حتى ذلك الوقت في عدم المبالاة وتجاهل المخاطر، تنتابها سلوكيات من الذعر لسبب غير مفهوم بعد تثبيت الإنذار وإطلاقه. فمع كل إنذار، كان العديد منهم يهرعون بسرعة، ويدخلون إلى منازلهم، ويغلقون أبوابهم ونوافذهم، ويخفون كل ما يمكن أن تطاله أيديهم، حتى إنهم بدوا أكثر رعباً بسبب عواء وحش اليوم الوقائي من الانفجارات نفسها في العام الماضي. كان والدي أحد أولئك السكان الذين كانوا يتدبرون أمورهم، عندما يسمع طلائع أصوات نهاية العالم.

كان يحدث في بعض الأحيان تفجير الآبار صباح الأحد، لتيسير الرصد الجوي أو العمليات. وقد ذهب والدي عدة مرات إلى الشركات، يشتكي من هذا الإزعاج الذي كان يعيق حسن سير قداسه. وقد وعدوه بدراسة الأمر. ولكن في عطلة نهاية الأسبوع التالية، تضاعفت التفجيرات، مصحوبة بولولة التحذيرات المرعبة. ذات يوم عندما ذهبت لمقابلته في الكنيسة، وصلت تحت الهيكل في منتصف إلقاء موعظته، بينما كان جيرار ليبلوند يدير أشرطة السحب لتنسيق «أرغن متكامل». وللدقة لم يكن القس في تعامله مع الشك والإيمان ذا فائدة، لأن هذين الموضوعين يمثلان تسعة أعشار مداخلاته. وفي ذلك اليوم، كان في عمله، وفي صميم منطقه، وهو يثير مشاعر المستمع، متملقاً له على أحسن وجه، ويكيف تأثيراته، ويهمهم بالمديح، ويتباهى بالخطأ، ويسبح في كلماته كمن يطفو في الماء. أتذكر أنه في مرحلة ما في القصة التي تتناول روح التسامح وقبول الآخر، آثر بعض الوقت من الصمت الطويل، وبدا يحدق بكل فرد من أتباعه. وكنت قد رأيته في تولوز، في بعض المرات يستخدم هذه الحيلة لجذب انتباه جمهوره. عندما شعر أن جميع الشروط مستوفاة، أرسل رسالة لم يكن يتخيل دون شك أن يكون لها مثل هذا التأثير: «في صمت الحجارة والغابات نسمع أحياناً همس الآلهة».

فما كاد أن ينطق الكلمة الأخيرة من عبارته، حتى بدأت صفارات الإنذار بهدير يشبه التجديف. لم يذهب إلى أبعد من ذلك، ولم يكن أحد يعرف ما قالته الآلهة حقاً - بصيغة الجمع التي يجب أن تأتي على أكثر من واحد - عندما كانت تسرّ في أذن مستأجري الحياة. طوى ملاحظاته بسرعة، وطلب من جميعهم النهوض، والذهاب بسلام، ولكن المضي بسرعة، قبل أن يسقط العالم على رأسه. لقد سعى معلم الأرغن، وهو لا يفتقر إلى الفكاهة أو حسن التوقيت، للبدء بموسيقى الذعر الأصغر، التي كانت تلامس النزوح الجماعي، ثم عزف بيديه: «أقرب، يا إلهي، إليك»، وهو نشيد كورالي مسيحي، استوحته الشاعرة سارة فلاور، واشتهر من خلال عزفه حتى آخر نوتة منه أثناء غرق سفينة البريد الملكية تيتانيك.

في ذلك الأحد، وبعد خمس عشرة دقيقة من التنبيه، وقع الانفجار، وتساقط علينا جميعاً ببطء ثلج ناعم من ندائف الأسبستوس، إضافة إلى بعض الحجارة الصغيرة والحصى، التي خدشت حتى قشرة الهيكل الصلبة.

***

إن مشاهدة مباراة هوكي في السجن هي رياضة في حد ذاتها، تتطلب بعض الاستعدادات، طالما أنها تمارس جنباً إلى جنب مع باتريك هورتون. في هذا المساء شاهدنا للتو فريق الكنديين أمام فريق تورنتو مابل ليفس، وهما فريقان متنافسان، نادراً ما تنتهي مبارياتهما دون مشاجرات بأعقاب المضارب مع إخفاقات مدوية. في هذا المساء، بدا لي أن اثنين من لاعبي فريق ليفس، وهما فانوف وآرمسترونغ عدوانيان للغاية، على الرغم من أنهما أسهما في انتصار فريقهما. «عدوانيان؟ عدوانيان؟ كلا، هل أحلم؟. أنا أتساءل لماذا أتحدث عن الهوكي معك، كنت لا تعرف أي شيء عن ذلك. إذن لا تسخر. فانوف هو أكبر وغد يمكنك مقابلته، فانوف قطّاع. يجب ألاّ تلعب معه بالعصا، وإنما بمضرب بيسبول أو بساطور. الليلة هو الذي أشعل كل الفتائل. الشيء ذاته بالنسبة لأرمسترونغ. إنه النصل الثاني. إذا أخطأك فانوف، يخوزقك أرمسترونغ، لذا ينبغي إرسال هذين الرجلين إلى الطرف الجليدي ليلعبا مع الدببة، وليس إلى حلبة التزلج على الجليد، أو إلى دوري الهوكي الوطني».

لقد شاهدنا أيضاً في فترة الاسترخاء بعد المباراة، فيلماً وثائقياً عن رياضة السلتيين، ورمية شجرة الأرز. كان عدد من الأشخاص يلقون الجذوع بأقصى قدر ممكن من البعد بين 5 إلى 7 أمتار، يزن كل جذع ما بين 100 و110 كيلوغرامات. «بدلاً من التطفل على الأشجار، كان من الأفضل التخلص من فانوف وأرمسترونغ».

أتذكر مشاهدة الكثير من مباريات الهوكي عام 1969 مع والدي خلال كأس العالم في السويد، والتي تم بثها على شاشة التلفزيون. لم تكن هذه الرياضة بالطبع شائعة جداً في تولوز، لكن جذور يوهانس الإسكندنافية، التي لم تفوت أية مباراة، أتاحت لي التعرف على قواعد اللعبة الأساسية. كان هناك لقاء استثنائي بين اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية وتشيكوسلوفاكيا، وذلك بعد أقل من عام على اجتياح الدبابات الروسية لبراغ. وبعد مباراة مذهلة، حرب جليدية حقيقية، فاز التشيكيون بـأربعة أهداف مقابل ثلاثة، ولكن بسبب حاصل معدل الأهداف، أصبح الروس هم أبطال العالم. وعلى عكس ما كانت تتطلبه القاعدة، رفض اللاعبون المصافحة في نهاية المباراة. وفي وقت تقديم الميداليات، حيث كانت المباراة دولية، أوقف التلفزيون التشيكي الصوت. وعندما صعد السوفييت إلى المنصة، اختفت الصورة تماماً.

في وقت سابق، حاولت أن أخبر زميلي هذه القصة الملفتة للنظر. «لماذا تتحدث معي حول هذا؟ أنا لا أهتم برجالك الروس 69. أعرف كل هذا. ثم ما علاقة هذا الأمر بفانوف وأرمسترونغ؟ من أين جاء والدك، سابقاً؟ من الدانمارك؟ اللعنة لا يمكن أن يكون مصادفة. هل تعرف من الذين لعبوا أول مباراة رسمية لهم أمام الدانماركيين عام 1949؟ الكنديون، يا رفيقي. هل لديك فكرة عن مجموع النقاط؟ 49 نقطة مقابل صفر. لذلك لا تعبث بدباباتك الروسية هذا كل ما في الأمر. في التاريخ والسياسة، حسناً، أعرف أنني كرة صغيرة. وفي المقابل، كنت أعرف في الهوكي جميع نقاط كندا وكل الجوائز، وكل اللاعبين. هيا، هيا، اسألني سؤالاً. كم مرة حصلت على بطولة العالم؟ حتى اليوم حصلت على البطولة أربع وعشرون مرة. والألعاب الأولمبية؟ سبع مرات. وأكبر انتصار؟ لقد قلت لك ذلك، ضد

مهرجي عجوزك. وأكبر هزيمة؟ في العام 1977، ضد عاهرات السوفييت 11-1. أفضل هداف في كل العصور؟ واين غريتزكي. أيكفي؟ هل يكفيك؟ هل رأيت؟ اذهب ورتب غرفتك». ثم جعل هذه الإيماءة المثيرة للسخرية إلى حد ما، قيد الاستخدام في المجال الرياضي، هذه الإيماءة التي تعطي انطباعاً، أن اليد اليمنى تسحب مقبضاً غير مرئي لإشارة التنبيه، بينما يرسم صاحبها تكشيرة، وهو يعض شفته السفلى. «الهوكي، يا رفيقي لكي تفهمه حقاً، عليك أن تولد فيه، أن تجمد البكرات في سن الخامسة على حلبة التزلج في ركنك، وحتى لا تشعر بأصابعك عند عودتك إلى المنزل، تمضغ إحداها عندما تترك مضرب الهوكي في المدخل، وعندما تلعب، عليك أن تعرف كيف تمسكه وكيف تناوله أيضاً، وقبل كل شيء عندما تريد كسر الجليد في كل مرة، عليك أن تتكئ على زلاجاتك. هل سبق لك أن تزلجت على الجليد؟». لم أجرؤ على إخباره بالحقيقة، ومثلما طلب مني، واصلت ترتيب غرفتي.

***

من كان بوسعه أن يتصور أن الأمور ستتطور بهذه الطريقة في ثيتفورد ماينز، بأن القس هانسن سيواجه إخفاقاً لا يمكن التنبؤ به، فضلاً عن أنه وحشي، لدرجة أنه تم استدعاؤه بشكل عاجل في يناير - كانون الثاني 1982 من قبل أرباب العمل، وكنيسة كيبيك وشيربروك المشيخية لمؤتمر مونتريال وأوتاوا لكنيسة كندا المتحدة؟ لقد قدت والدي إلى هذه المقابلة، لدعمه في المحنة التي كان سيخوضها، والتي كنت أشعر أنها جزء من مسؤوليتي، فأوقفت السيارة في مكان ليس بعيداً عن المبنى الذي فيه نوع من المحكمة الكنسية، التي كان لها أن تطلع على أعماله وتقرر مصيره. خلال الساعة التي استغرقتها جلسة الاستماع، كنت أجلس خلف مقود القيادة أستمع إلى الراديو، وأنا أتساءل كيف وصلت الأمور إلى هذا الحد؟ وكيف تراكمت على يوهانس الكثير من الديون في عام واحد؟ وكيف حطم مستقبل منصبه إلى هذه الدرجة؟.

عندما رأيت والدي يعود إلى السيارة، كان يسير بالقرب من المبنى، محاذياً للرصيف، كما لو كان يريد أن يحتمي من شيء ما. صفق باب السيارة، ومرر

يديه على وجهه، وملس جفنيه. «أنا سعيد لأنك جئت معي، لأنك رافقتني». وكما كان يفعل ذلك في بعض الأحيان أثناء تقديم مواعظه، استغرق مدة طويلة من الصمت. لكن هذه المرة، لم تكن مناورة منبرية أو مغازلة خطابية، ببساطة كانت رئتاه تفتقران إلى الهواء، وقلبه للقوة، وروحه لمتابعة الأفكار. التفت إلي. «لقد أمهلوني ستة أشهر لتسديد ما أدين به، وتسوية حسابات الكنيسة جميعها، وإعادة المفاتيح. بعد هذا الوقت، سيقدمون شكوى». ثم رفع راحتيه إلى السماء. «ماكان بوسعهم أن يفعلوا أي شيء آخر».

بدأ كل شيء قبل عام، على ما أعتقد، في أوائل شتاء عام 1981. بعد تساقط أوائل الثلوج، بدأ البرد يصدّع الطرقات والنهارات تقصر فجأة، كما لو كانت في عجلة من أمرها لتتلاشى. خلال هذه التغييرات الموسمية، كان هناك شيء ما يتغير فينا، كان السأم الذي لا حدود له يستحوذ علينا، مصحوباً بالكآبة، ومن خلاله كنت في غاية الإحساس بهذه المتغيرات. ولكسر هذه الإيقاعات المحبطة، اقترحت على والدي الذهاب إلى كيبيك لقضاء أمسية في القصر المركزي، وهو المضمار الذي كان يقدم سلسلة من سباقات عربات الخيول. كان المشهد الخارجي لبرجي الأجراس والرواق المركزي والهندسة المعمارية المتناسقة والمدرجات الكبرى، يحيلني إلى التفكير بشكل غريب بواجهة ساحة مصارعة الثيران في شمال إسبانيا. ومن الداخل، كان كل شيء تقليدياً تماماً، حلبة عرضها 70 قدماً مبنية على قاع رملي، مغطاة بالطين ومطلية بالرماد، والمدرج مفتوح طوال العام تقريباً. وقد قام أصحاب القصر المركزي بنصب التدفئة في المدرجات، للاستبقاء على المراهنين. في ذلك المساء كان هناك سبعة أشواط مقررة للسباقات.

لم يتطلب الأمر الكثير من الجهد لإقناع والدي بالحضور إلى هذا التجمع. وهو الرجل الذي كان يمتنع، قبل وقت قصير، عن خدمة سيدين، استأذن بهدوء في الانصراف من أحدهما، ليذهب لمراوغة الآخر بشأن فضاء من النزهة. في كل سباق، واعتماداً على لون قبعة أو ثوب الفارس، ورشاقة رجل عبوس، وما يرتديه من لباس حيواني يجهل عنه كل شيء، كان يوهانس يختار فريقاً، فنزل، كما لو أن حياته كانت تتوقف على ذلك، وفي مكتب الرهان، أخرج دولاراته، وراهن على حصان مجهول ذي عرف،

عشوائي الخطى، وبحماس وإيمان لم يكن من الممكن ولو للحظة أن تتخيل، أن هذا الإنسان كان يمر بأزمة ثقة بنفسه وفي (مخلّصه). ثم صعد على عجل ليحتل مكانه بين المدرجات. يجب أن نؤمن أنه في تلك الليلة، قد أغلقت السماء أعينها على خياناته، بينما كان سجل والدي مذهلاً في السباقات كافة. لقد فازت أربعة خيول، واحتُجز اثنان، وواحد تم استبعاده بسبب السرعة غير المنتظمة.

إنه رجل ثري، متوهج بالسعادة التي لعبت على مواتاة الحظ، الذي وجب أن يبتسم له للمرة الأولى، وأن أعيده إلى ثيتفورد ماينز بسيارتي الهوندا الصغيرة. أربعمئة أو خمسمئة دولار هي المكسب، والشعور بقشعريرة السباق، ورائحة البيرة والسيجار، والصراخ في المدرجات، والبرد في الخارج، والدفء في الداخل، وعدم اليقين حتى اللحظة الأخيرة، واختلالات توازن المصادفة، وما كان من الضرورة بمكان أن يدرك القس أن حلبة السباق في القصر المركزي كانت تطل على مجال من الفرص، التي لم يشر الكتاب المقدس لأي شيء منها.

في الأسبوع التالي، في اليوم ذاته، والوقت ذاته، وفي المكان نفسه، والسباقات ذاتها. كان يوهانس في هذه المرة هو الذي أصر على القيام بالرحلة. وخلال الطريق، أخبرني أنه كان مستمتعاً بتجربته الأولية كثيراً، لقد وجدها «مثيرة للغاية». لقد كانت عبارة غير عادية للغاية في فم والدي. لاحظت أيضاً وجود حافظة جلدية كبيرة، كانت معلقة بحزام حول رقبته. «ومنظار لمتابعة السباق عن كثب. لقد رأيت أن جميع المشاهدين تقريباً يحملون منظاراً». والمفاجأة الأخيرة، كانت في ساحة مضمار السباق، وهي أن والدي أخرج من جيبه قبعة منقوشة، ووضعها بعناية على جمجمته، كما لو كان هذا الشيء الكمالي يتوج بداية حياة جديدة.

في مظهره الجديد الذي لم يكن بدرجة من السوء، جدد يوهانس عقد إيجاره مع أرباب السباق الذين خدموه مرة أخرى، بما يتجاوز توقعاته. واعتباراً من السباق الأخير، كانت عيناه مسمرتين في منظاره، وبدأ يرفع من نبرة صوته، عندما اقترب مفضله من الطليعة. وعندما وصل إليها، أخطأ القس لأول مرة: «هيا بنا، اللعنة، هيا بنا». في السيارة، وفي طريق العودة، اعترف

لي أن المقامرة كانت مهنة رائعة، إذا فكر المرء بها. يجلس، يراهن، يربح، يعود إلى المنزل. لم يكن يبدو أنه يتصور أن هذا النشاط يمكن أن ينطوي على مخاطر - الخسارة، على سبيل المثال. لم يكن يخطر بباله حتى هذا الاحتمال، الفرضية التي قد تكون نابعة من «سحره». فقد أدركت تلك الليلة أن الشيطان قد دس قدماً في الباب. ولكن لم أكن لأتخيل بعد أن يوهانس نفسه، سوف يفتحه له على مصراعيه.

أنهى والدي موسم الشتاء في القصر المركزي، وهو حلبة السباق الوحيدة في كيبيك القادرة على العمل في البرد القارس. وعلى حد علمي، لم يفته تجمع، وظل مستفيداً على مدار العام، على الرغم من أن بعض النكسات التي شعر بها عن كثب، أدت إلى التقليل من غلواء دفاتر حساباته. ولمن الخطأ أن أستخدم هذا المصطلح، لأنني أعرف أن والدي، خلال هذه المدة، لم يأخذ أبداً أي اعتبار لذلك، لأنه ينتمي إلى هذه الفئة المخيفة من اللاعبين الذين لا يحفظون في ذاكرتهم سوى مكاسب مناوراتهم، وينسون هزائمهم بمجرد محوها. وطالما كان هناك مال في جيبه، يمكن لهذا النظام أن يعمل بشكل أو بآخر.

في الربيع، ترك والدي كيبيك ليتحول إلى مضمار سباق تروا ريفيير، وهو مضمار سباق كبير من الفئة الاحترافية بني عام 1830، وفي البداية، كان يتسابق فيه الرجال مع الخيول. ثم تم تنظيم سباقات الهرولة وسباق عربات الأحصنة، وعدو الخيول، بعد أن جمعت أفضل السلالات الأصيلة من كندا والولايات المتحدة. وكانت الشركات المنظمة تستدعي نادي ثري ريفر للسباق مجاملة للإنجليز، ونادي سان موريس للسباق مواساة للفرنسيين. ومنذ إنشائه، وحتى الأيام الأخيرة، كان على مضمار السباق هذا أن يواجه مصائر قاتلة، ولا سيما ثلاثة حرائق عنيفة دمرت الإسطبلات، وتسبب الحريقان الأخيران في موت 174 من خيول السباق المحبوسة في أقفاصها. وبعد أن وثّق أبي مكانه الجديد بما أصابه من هلاك، كان يبدو فخوراً بأن ملك إنجلترا ويليام الرابع قد وصل إلى هنا عام 1836، وقدم منحة مقدارها خمسون جنيهاً للفائز في سباق عدو الخيول. ربما كان استشراف مثل هذه المكافآت هو الذي كان يعطي القس ثقة جديدة بخيوله المسروجة، التي

تلتهم حتى النخاع الترادون Tramadon والكودائين Codeineوالكاتوبروفين Ketoprofen والكلينبوتيرول Clenbuterol والستانوزولول Stanozolol. كان يوهانس يلغي هذه الوصفات ببادرة ممكنة، مؤكداً أن هذه الممارسات غير محتملة اليوم، بسبب الضوابط والتحليلات الصارمة. وفي غضون بضعة أشهر، أصبح والدي كاريكاتيراً للمقامر المدمن، وهو يحمل منظاره على المريلة، بقبعته ذات الزوايا الست، وبالمعلومات المباشرة عنه التي جمّعت دون شك من بيت الكاهن، فوضع مؤتمر مشيخة الكنيسة المتحدة في العالم هذه الثقة العمياء في مؤسسة مشبوهة على اللائحة منذ فترة طويلة.

كما هو الحال في مدينة كيبيك، بدأ يوهانس هانسن بتجريد البنك، مقيداً ربحه أو يودع كل شيء في وقت مبكر من الربيع. لقد استوعب ألقاب جميع السائقين، وسمعة المالكين، وأسماء الخيول، وأسماء مكاتب التذاكر في وقت قياسي. ولكثرة ماكان يتنقل بين حقول ترويض الخيول ودائرة الاستعراض وجداول الاحتمالات، كان بعضهم ينعته بـ «السيد يوهانس» وهم يسلمونه تذاكره. ولكن في بداية الصيف، شهد النجم السيد يوهانس المحظوظ كسوفاً طويلاً. وتوجه مراهنو خيول التورتر أو خيول العربات نحو الوافد الجديد، وهو رجل عادي لا يعرف شيئاً عن ذلك، لم يكن قد اشترى بعد قبعة أو منظاراً، يجلس في مكان ما على المدرجات مع ابنه الشاب، الذي كان قد دعاه للاستمتاع بالطقس الجميل، وقضاء فترة بعد الظهر في السباقات.

بدأت جيوب القس تفرغ مثل المضخة التي تعمل ميكانيكياً، وتسارع تدفق خسائره. ولم تتمكن بعض المكاسب التي حقق أحدها من هنا، وما حققه لثلاث مرات من هناك، من وضع حد للنزيف.

بالنسبة للكنيسة، وكل مشكلاتها تقع في نهاية الشوط، كان الراهب يتعجل في نصوصه، ويتجاهل قدّاساته، ويصل متأخراً إلى احتفالاته، وينسى مواعيده، ولا يعير أدنى اهتمام لموسيقى جيرار، الذي كان يرى أن هناك شيئاً ما لم يعد يسير على ما يرام. ولما كان منفتحاً معي، كان علي أن أعترف له بالحقيقة. لقد أصبح والدي، في لمح البصر، مثل كلب أسترالي يطارد الخيول، مقامراً مدمناً، فالمال بالنسبة له، الذي يخلو من أية قيمة، لم يعد

سوى وسيلة تتيح الوصول إلى الإحساس المفاجئ المنشط، الذي لا يمكن الوصول إليه وحسب، إلا من خلال «بضع ثوان في استكمال نهاية الشوط».

لقد فُقِدَ الإيمان. وحل محله إيمان آخر. كان والدي بحاجة إلى أن يقتنع بذلك.

أتذكر بعد أن أوضحت كل ذلك لجيرار، نظر إلي وقال مستغرباً: «كما أرى، أخشى أن تكون هناك امرأة».

لم يكن هناك وجود للمرأة بعد، ولكن على الرغم من أن أحداً لم يكن بوسعه أن يخمن ذلك في هذه المرحلة من القصة، فقد كانت تسير بالفعل في مواسير القدر.

كان والدي محبوباً جداً من قبل الراهبات. كان يعاملهن بكثير من التعاطف والاحترام، ويشجعهن في مهاراتهن أو دراستهن، دون أن يقيدهن بأي وازع أخلاقي. لقد كان، في الواقع، النقيض التام لموقف رجال الدين الكاثوليك في هذا البلد. فحتى أوائل الخمسينيات، كان مذهبهم بسيطاً: تكاثروا بكثافة، وازدادوا عدداً، وتضاعفوا للوقوف سداً أمام الإنجليز، واحتوائهم، وتقوية جيوش روما، وإضعاف جحافل هذه الشياطين من البروتستانت المناهضين للكاثوليك. كان الكهنة مثلهم مثل التجار المتجولين، يتنقلون بين العائلات ليباركوا النساء اللواتي يعملن في بيوتهن، وزيارة الأمهات على وجه الخصوص، لتشجيعهن على إزالة عوائق دورات الحياة، ونسيان إرهاق أجسادهن، وممارسة الزنا بقدسية، دون هدنة أو راحة، في الليل والنهار، إذا كان الأمر يستدعي ذلك، شرط أن يخرج شيء من ذلك في نهاية المطاف. كان السائد أن يلدن اثني عشر طفلاً. وكانت النساء يبكين بدموع الاعتراف بعد أن يوبخن، ويعاملن بوصفهن المسيحيات المخطئات، لأنهن لم ينجبن سوى سبعة أطفال خلال ثلاثة عشر عاماً من الزواج. وما أن يعدن إلى المنزل، وعلى سبيل التكفير عن الذنب، كان عليهن إجبار أزواجهن على مباشرتهن وبسرعة. لأن الرب كان ينتظر والكنيسة غير صبورة. وكان من الممارسات الحسنة أيضاً تخصيص صبي من النسب لضمان الخلافة والبقاء في الطبقة، والدخول في الرهبانيات. ضريبة رجال الدين، ونصيب الله.

إزاء كل هذه المعاملة السيئة التي ما زالت ذاكرة النساء الجمعية تضعها في الاعتبار، وإزاء كل هؤلاء الأطفال الذين ولدوا، وهم يحملون صلباناً كبيرة، وهذه الأجساد المنهوبة قبل بلوغ السن، فإن قساً مثل يوهانس هانسن، عطوفاً، متسامحاً، ويعيش أعباء منذ بعض الوقت، مع موكب صغير من الفرسان يدور في رأسه، من الواضح أنه لا يمكن إلا أن يكون محبوباً.

في نهاية الصيف، كان السقوط مذهلاً، وخسائر نادي تروا ريفيير تتضخم أسبوعاً بعد أسبوع. لقد دخل القس في دوامة الهزيمة، وذلك الثقب الأسود الذي يبتلع دون هوادة من فقد الكثير ليتخلى عنه، وخاصة أنه مقتنع في أعماق قلبه، أن الحظ والخيول سيتحولان مرة أخرى في الاتجاه الصحيح. الإكسير، وكوكتيل الكارثة.

في بداية شهر سبتمبر - أيلول، فاتحني والدي عن مصاعبه، وأوضح لي أنه سيقترض من مجموعة ديجاردان - وهي تعاونية كندية للخدمات المالية، وأكبر الاتحادات الائتمانية - لسداد المبالغ التي سحبها في السابق على ميزانية الكنيسة وبيت الكاهن التشغيلية. ما أغفله عن إخباري هو أن القرض الذي تمنحه مجموعة ديجاردان كان أكبر بكثير من مبلغ ديونه. كان ينوي استخدام هذا الفرق الكبير لإعادة ترتيب نفسه، وتعويض الكنيسة، والبنك، وإبراء ذنوبه وإعادة الحياة المهنية له كقسيس دانماركي دون مناظير، أو قبعة، أو مضاربات أو أقراص الترامادول.

بطريقة ما، يمكنني القول: إن والدي حافظ على نصف التزاماته. منذ اللحظة التي حصل فيها على الشيك، لم يضع قدمه في مضمار السباق مرة أخرى، وأعاد إلى الكنيسة كل ما اختلسه، حتى آخر قرش. في غضون يوم واحد، قام يوهانس هانسن بسداد دينه، وخطأه، ولم يعد سوى دائن واحد من بين العديد من الدائنين الآخرين في فرع من الفروع الـ 422 التابعة لمؤسسة مصرفية قوية، أسسها ألفونس ديجاردينز عام 1900، والتي حققت متوسط أرباح تزيد على مليار دولار سنوياً. ولعل نشوة هذه الأرقام منحت يوهانس الشعور أن الوقت قد حان ليستعيد وضعه الصحيح في عالم الفائزين، وتسوية الخصوم، والالتفات إلى المصالح والاهتمامات. لذلك، كان يكفي له أن تغوص يده في جيبه، وهو من الآن فصاعداً مبطن بفائض قرضه.

ذات مساء، ارتدى بدلته الرمادية، وأغلق باب بيت الكاهن خلفه، وصعد في سيارته الفورد برونكو، وتحت مطر من أوراق الخريف، سار مدة طويلة، حتى رأى تألق أضواء مباني مونتريال في الليل. وقد أطلقت الدخان الأبيض من أنفاسها، كما هو الحال في منتصف الشتاء. كلا، كما أقسم يوهانس هانسن اليمين لخالقه، لم يكن ذاهباً إلى السباقات، اجتاز جسر شامبلين، وأخذ طريق بونافنتورا السريع، ثم استدار يميناً نحو جزيرة نوتردام، حيث كان بانتظاره مبنى صناعي متواضع، كانت تتقافز بعض ومضاته المتوهجة على النهر، والتي كانت تبدو أنها تنتظره شخصياً، وهو القس البسيط في ثيتفورد ماينز في كنيسة الأسبستوس. كان هذا المستودع القديم الذي تحول إلى وكر مقامرة على بعد بضع مئات من الأمتار مما سيصبح، بعد عشر سنوات، كازينو مونتريال الواسع، أدخل في قوقعة فارغة من فلل كيبيك القديمة والتصميم الفرنسي، ليكون المعرض الدولي لعام 1967.

في حلقة لعبة «صانع المال»، يجب أن نقول: إننا بعيدون عن هذا البريق والسعة. ومع ذلك كان هناك مراهن من نادي تروا ريفيير قد نصح أبي بهذا الوكر. قال إنه في إحدى الليالي فاز فيه، في لعبة الكرابس- أحجار النرد - بما يكفي لشراء سيارة مركيوري ماركيز.

كانت هناك خمس عشرة طاولة للروليت مناوبة، ولعبة ورق جاك الأسود، ولعبة كرابس - أحجار النرد - صفٌ من ماكينات القمار وفي صالة مخصصة، يقدر لاعبو البوكر بين مئة وخمسين ومئتي شخص في المجموع. هناك أثاث متباين، ووكلاء مستخدمون، ومعدات مستعملة، وأضواء ساطعة جداً، ودخان شديد: كل شيء كان مرتباً، الديكور مرتب بشكل رائع، والمجاميع تحتل مكانها، والوحيد الذي كان مفقوداً هو قس ثيدفورد ماينز، الدانماركي القليل إيماناً، والذي، في هذه المناسبة، كان يرتدي بدلته الداكنة، وهو الذي لم يسبق له أن ارتداها بشكل عام، إلاّ في حالة دفن الموتى.

مر طريق الألم في مرحلتين، ومحطتين شديدتي القسوة، يمكن التنبؤ بهما، وهما موصوفتان في كتب الحياة جميعها. بدأ الأمر بكياسة الحظ، وتملق تجاري، والكسب ثلاثة أضعاف في لعبة الروليت، فمجرد مصافحة جلبت القليل من الثقة. ثم كان هناك انتصار ثان متواضع، تم التنازل عنه

عن غير قصد تقريباً، ولكنه يساعد على الشعور بتحسن أفضل فأفضل، وهو في بدلة الدفن. في أمسية التعويض هذه الواثقة بشكل غريب، كان والدي قد حمل معه كل الفائض مما اقترضه. وفي أقل من ساعتين، قضمت آلة الخسارة الدقيقة مبلغاً كبيراً، حتى آخر قرش من هذه المدخرات الوهمية. لقد قتل النرد والدي. رمية إثر رمية، والمكعبات تتوقف في الجانب الخطأ، تحولت التسلية إلى لعبة للقتل الوحشي، واختفت دولاراته في قنوات قذرة لا ترتوي. وفي نهاية المطاف، بدلاً من المغادرة بسيارة ميركوري ماركيز، كان عليه أن يقرر أن يغادر المشهد، وهو خلف مقود قيادة سيارته برونكو القديمة، هائم الروح، مستلباً، مهزوماً، تائه النظرة، بالكاد كان قادراً على مواءمة نفسه على طريق مسار عودته.

من الناحية المنطقية، فإن العقل كان يريد أن تظل هذه الرحلة دون متابعة، وأن يبقى والدي في منزله بجوار الكنيسة، يجتر أخطاءه الرعوية، ويركز جهوده في المستقبل على مداهنة مريديه الإنجليز، وتلميع أرغنه B3، ونفض غبار الأسبستوس عنه، وتعويض ديجاردانز، وقبل كل شيء، عدم تكرار الاختلاف إلى حلقات اللعب أو إلى أشواط السباقات الدائرية.

في اليوم التالي لانهياره، بعد رحلة مسائية طويلة تخللتها أفكار مبهرة ومتناقضة، أوقف سيارته الفورد مباشرة فوق العلامة الزرقاء والمضللة للغاية «صانعو المال». خلال أرقه، وهذا العزوف عن الميلاتونين - لمعالجة الأرق - كان قد فكر في كل شيء، وما هو عكسه. وفي وقت مبكر من الصباح، اقترح حلاً أخيراً، لا شك أنه محفوف بالمخاطر، لكنه كان يدعى أنه جاء بعد أن حلل الاحتمالات، ومنحه أفضل نسبة رأس المال / المخاطر. بالطبع، لم يكن كل هذا مبنياً على أي شيء على الإطلاق، باستثناء أحد هذه النشاطات المستمرة، ذوات الدوافع الذاتية، والتي كانت الكازينوهات قد اختفت دونها منذ مدة طويلة. ولأن مثله مثل جميع المراهنين يؤمن بالخرافة، فقد تخلى عن ملابسه الجنائزية، وتركها في بيت الكاهن ليقدم نفسه في زي أقل محافظة، وهو الزي الذي كان يرتديه في كثير من الأحيان بسعادة في مضمار السباقات.

ولإشعال حرائق هذا المساء، كان قد نهب كل جذوع كنيسته. أعني بذلك

أنه، وللمرة الثانية، قام بتحويل كامل ميزانية أبرشيته التشغيلية، واختلس، وخمش كل ما كان بوسعه أن تطاله يده.

ولأنه كان منعزلاً في أوهامه الاستراتيجية، كان على والدي أن يتبع بروتوكولاً، من شأنه أن يبعد أي لاعب بمؤامرة منطقية: قسم كل أمواله إلى أربعة أجزاء متساوية، تراهن على أربعة أجزاء مختلفة، في كل مرة يختار اللون الأحمر أو الأسود، مع استبعاد أية مجموعة أخرى.

من هنا كان يجب إما أن يضاعف يوهانس حصته من المال الذي يضعه في بداية الرهان، أو يخسر كل شيء. لقد اختار أن يعهد بمستقبله إلى المغامرة بكل شيء، حتى لو كان، في وضعه، يأمل في مضاعفة ما كان ينتمي إلى مجال الأحلام.

في الساعة 11:10 مساءً، وضع ربعه الأول على اللون الأحمر، وتولى اللون الأسود تعتيم توقعاته مبدئياً. خطا بضع خطوات في الصالة. وبعد عشر دقائق، أكد على اختياره الأول من الألوان. دارت الكرة حول دائرتها، مثل طائر جارح، ووقعت على الرقم 29، ربما أحلك سواداً من كل الألوان السوداء. «من الغريب أنني لم أكن خائفاً، حقاً ولم يساورني أدنى شك في ذلك. كنت مقتنعاً تماماً أن كل هذا القرف سيتوقف، وأنه لا يمكن أن يكون الأمر خلاف ذلك، وأن كل هذا الحظ السيئ سينتهي به المطاف إلى مهاجمة حياة شخص آخر وسيتركني وحدي، وسأتخلص منه، في اللحظة الأخيرة، كما حدث لي في تروا ريفيير، في المرحلة الأخيرة من السباق الأخير».

كما هو الحال في كل خطوة، بدا الموزع مندهشاً حقاً بأهمية الرهان، وهذا العناد في رفض تقسيمه إلى مجموعات متعددة، لتركيزه على توقع ثنائي بسيط.

في الساعة 11:30 مساءً، تم اختيار اللون الأحمر، وخرج اللون الأسود.

كان والدي يدخل الآن في مرحلته الأخيرة.

كان واثقاً من امتلاكه الموارد اللازمة ليتربع على رأس المجموعة، وترتيبهم جميعاً على الخط، على غرار «والترسيسن» في صيف السباق الأخير. فبعد أن التهم كل المواد المشروعة أو غير المشروعة، أصلح

الجواد من تأخره، فاندفع متجاوزاً عنقاً إثر عنق، وصدراً إثر صدر، تاركاً حفنات من الرغوة البيضاء تتطاير من فمه في حمى وطيس من الجهد. كان يجرّ عربته كما كان يفعل دائماً، ولا يعبأ بالرجل الذي يرتدي ثوباً منقطاً، والذي كان خلفه، يقذف نفسه على هذه العربة التي كانت تبدو وهي تنطلق بكل وطأة حافر. كان السائق يصرخ، وهو يجلده متجاهلاً عدم جدوى حركاته، لأن الحصان كان يعرف تماماً ما يجب عليه القيام به، وهو أنه يعيدهم جميعاً، واحداً تلو الآخر، ويمد رأسه مستقيماً جداً، مرفوعاً، منتصراً، لكي «تنتهي» الصورة.

كل ما تعلمه والدي من «والترسيسن» لا يمكن أن ينقذه في تلك الليلة. ففي نحو الساعة 11:45 مساءً، كان كل شيء قد انتهى، ولم يعد هناك من يصدق ما حدث. لا عكس الاتجاه ولا عودة خارقة. في صورة «النهاية»، كنا نرى قساً يختار اللون الأحمر على خجل، ويد الله تزحلق الكرة على اللون الأسود بكل وضوح.

في المرحلة الثانية، توقفت الكرة الصغيرة عن الدوران، وصار والدي لصاً دانماركياً تافهاً، ومقيماً دائماً، يشكل عبئاً كبيراً، سرعان ما استدعته أبرشيته وشطبت اسمه، وسيقاضيه مصرفه في القريب العاجل، وسيواجه حتماً إجراءات قانونية. «أتذكر أمراً غريباً. عندما غادرت طاولة اللعب، جاءت إليّ امرأة جميلة جداً وأمسكت بي من ذراعي. خطونا بضع خطوات في الصالة. وتحت صدمة الأحداث، شعرت أنني عائم في عالم لم أكن أعرفه. تحدثت إليّ هذه المرأة، وسألتني عن اسمي؟، وماذا كنت أعمل من أجل لقمة العيش؟ أجبت أن اسمي يوهانس هانسن، وأنني قس في ثيتفوردماينز. ثم احتضنت وجهي بين يديها، ونظرت إليّ كما لو كنت يتيماً، وقبلتني برهة طويلة من فمي. وقفت ساكنا مكتوف اليدين، بينما كانت عيناي مفتوحتين، حتى ابتعدت عني قليلاً، ثم قالت لي: «إن شاء، فليباركك الله». بعد ذلك، أؤكد لك، لم أعد أتذكر أي شيء، لم أخرج من «صانعي الأموال»، ولم أستقل السيارة للعودة إلى المنزل».

خلال الأيام التي تلت ذلك، بدا والدي لا يحتفظ من هذا المساء وعلى نحو أكثر من المآسي المتتالية، التي نتجت عن خسائره في جزيرة نوتردام،

سوى بطلعة هذه المرأة الغامضة التي شغلته فيما بعد ليلاً لا نهاية له، كان على وشك اجتيازه.

أما الأشهر الستة التي منحها له أقرانه لسداد ديونه، فإنها ستكون فترة تأجيل قصيرة للغاية، وخاصة أنه كان من المستبعد أن تقرضه مجموعة كيسيسديسجاردينز دولاراً إضافياً. ولأنه رفض رفضاً مطلقاً التفكير في طلب المساعدة من عائلة هانسن في سكاجين، خلص والدي إلى أن كل ما كان عليه فعله، هو البقاء جالساً تحت سقفه، والانتظار حتى يغرقه الطوفان.

ولعدة أسابيع، كنت أقلّب الأمور في اتجاهات مختلفة في الأرض ونصف السماء لإيجاد حل مقبول لهذه الحالة. أحصيت مدخراتي، وكنت أفكر في الحصول على قرض، لأجعل من يوهانس واقفاً على قدميه. لكن الممرات المائية كانت أعظم شأناً من أن تكون مراكبي الهزيلة قادرة على سد الفجوات.

لقد وعدت والدي بعدم الكشف عن مدى خسائره ومقدارها. وكل ما يمكنني قوله هو أنها كانت تتخطى نمط حياة القس على نطاق واسع.

بعد شهرين على هزيمته، عاد والدي الكرة مرتين أو ثلاث مرات إلى «صانعي الأموال» دون أن تكون لديه نية للمراهنة على أي شيء هناك، على أمل بكل بساطة العثور على المرأة التي سلمته، قبل أن تختفي، بين يدي الله. لكنه لم يقابل في المستودع سوى رجال مثله، ممن جاؤوا يبحثون عن شيء، لن يجدوه أبداً.

في أيام الأحد، واصل يوهانس الاحتفال بقداسه، وكأن شيئاً لم يكن، وواصل جيرار عزفه على جهاز هاموند، والإنجليز يجلسون على مقاعد من خشب أشقر. وبما أنه كان يعلم أنه مُدان، فقد كتب والدي نصوصاً لم يسمع بها أحد من قبل. كانت نصوصاً تتجاوز حتى حدود الكنيسة، تنطوي على تقلبات مصيرنا ومخاطره، وتضعنا في مكاننا الصحيح، في ماخور الحياة الصاخب، على قدم المساواة مع أشجار الصنوبر أو حيوان التابير – الذي على وشك الانقراض بسبب تدمير الغابات في موطنه الأصلي – وعلى غرار المستأجرين في ذات الغرفة، القلقين من المستقبل، وهم يحاولون جميعاً أن يصدقوا برحمة الآلهة، حتى لو كانت غرائزنا تهمس بخلاف ذلك.

وللمرة الأولى منذ طفولتي، كنت أعاود بانتظام إلى الكنيسة للاستماع إليه، بل لابد أن أعترف أنني لاحظت التشكيك المحرج والمتزايد في المستعمرة البريطانية المحافظة، التي تواجه هذه الكلمة المتحررة.

منذ مقابلته في مونتريال وتسريحه الوشيك، كان القس يشعر بالحرية، وفي حل من كل عقد سواء مع الكنيسة أو مع الله، الذي خيب أمله في أسوأ لحظة من المرحلة الأخيرة. كان منقاداً لميوله، مستسلماً دون وجل أو خوف، يهذر كما يحلو له عن الأشجار، والناس، والحيوانات، يروي عن حياة الصيادين في يوتلاند، وتيارات الماء المتعارضة التي تحاول تقطيع أو صالهم، والأسماك في كل مكان، التي ستغطي جثثها ذات يوم برج جرس الكنيسة المدفونة تحت الرمال. كان لدينا شعور أن هذا الرجل كان يقفز من أعلى مبنى، وهو الآن أمامنا، واقفاً هنا، كان يقدم رؤى لسقوطه. والأكثر إثارة للدهشة أن هذه الملاحم، كانت تنقل أتباعه إلى عالمه في معظم الوقت، ويبدون أنهم كانوا جميعاً غارقين فيه، باستثناء هؤلاء الإنجليز الفجرة. وهذا ممكن جداً.

كانت خطبته الوعظيه في 14 مارس – آذار1982 غامضة وضبابية كسابقتها. ودون شك نبه القسم البريطاني في النادي حول هرطقية قس ثيتفورد ماينز، وعلى الرغم من أنه على وشك الاستبعاد، فقد جاء ممثل الكاهن في مونتريال ليدرك بنفسه مدى الانحراف. وغادر منزعجاً مما سمعه أولاً، وما شهده ثانياً.

في يوم الأحد هذا، كانت الخطبة تركز على الأعباء والمتاعب التي تتناقلها العائلات من جيل إلى آخر، وعلى هذه القصص التي لا نعرف عنها إلا القليل. ولكن على الرغم من ذلك، يتعين علينا أن نعترف بها، وأن نثيرها ثم نضخمها بأحزاننا وآلامنا قبل أن نمررها إلى الجيل التالي. وكل هذا كان يطنطن في حيرة وفوضى حمى الآباء، حيث كنا نشعر أنهم كانوا مايزالون يقومون بتسوية كل شيء، ولكن في الحقيقة تسوية الحسابات جميعها. «أخيراً، أود أن أخبركم بهذا. ربما تكون هذه آخر مرة أتحدث فيها إليكم. جئت إلى ثيتفورد ماينز لأنه في مكان آخر، كان هناك من لا يريدني. وسأغادر هذه المدينة للأسباب نفسها. لقد ارتكبت خطأ مرتين، وطردت

مرتين. ستعرفون عني دون شك بعض الأمور غير السارة. كل هذا سيكون صحيحاً. ومرة أخرى لن يكون لدي ما أقوله للدفاع عن نفسي. لكن اعلموا أنه خلال كل هذه السنوات التي قضيتها هنا، تصرفت كموظف مخلص ووفي. على الرغم من أن هذه المصطلحات قد تبدو غريبة اليوم، وعلى الرغم من أن الإيمان قد غادرني منذ مدة طويلة. حتى لو أصبحت الصلاة، فيما يخصني، أمراً مستحيلاً. ففي القريب العاجل سيكون لديكم كل الوقت والفراغ للحكم عليّ وإدانتي. لذا أطلب منكم أن تضعوا في اعتباركم هذه الجملة البسيطة للغاية التي أخذتها عن والدي، والتي أستخدمها للتقليل من أخطاء جميعهم: «لا يعيش جميع الناس في العالم بالطريقة ذاتها». إن شاء الله، يبارك فيكم».

ثنى القس ركبتيه بشكل غير مثير للانتباه، بينما كانت يداه تمسكان بحامل النوتة الموسيقية. وبدأ جيرار، الشريك المخلص، بمقدمة موسيقية اختارها هو ووالدي، ووزع مكبر الصوت، ليسلي باقاته من الأصوات على الرجال من ذوي النوايا الحسنة.

حدق يوهانس في الصالة كما لو كان يبحث عن صديق وسط حشد غير معروف. فتح فمه، معتقداً أنه نسي أن يخبرنا شيئاً، وأن حفنة من الكلمات كانت تريد أن تخرج مرة أخرى، ثم انزلقت يداه على جدار العالم، لقد خذلته ساقاه، فتهاوى منهاراً.

كانت الكنيسة مصدر إلهام للمفاجأة. فقد هرع جيرار ليبلوند، الذي تخلى عن نوتاته، واندفع نحوه، وتوقف الجهاز عن العزف.

مونتريال، كيبيك

غادر قس ثيتفورد ماينز المدينة عبر الطريق البري، في عربة نقل الموتى. قادته إلى مطار دورفال، في تابوت مغلق، لينقل على متن رحلة للخطوط الجوية السويسرية إلى كوبنهاغن عبر جنيف. في الدانمارك، نقلته مركبة أخرى مناسبة إلى سكاجين، حيث اختفى في الأرض، بحضور عائلته، وبمنظاره وقبعته السداسية التي اعتمرها، مدفوناً تحت رمال مقبرتها التي تهيلها عليها عواصف الرياح.

حضرت والدتي، التي أعلمتها بالخبر، بعد أن قامت برحلة، فكانت موضع ترحيب من العائلة، كأرملة مزيفة أنيقة، كما كانت ترحب بها في أفضل الأيام. وعندما وري نعش يوهانس الثرى على صوت أجراس الكنيسة القديمة، أخرجت منديلاً صغيراً من الورق، ومسحت به زاوية إحدى عينيها الجافة بكل تأكيد. لقد وضعت يدها على كتفي، وتحدثت إلي عن هذه المسافة التي أحضرتها بيننا منذ وقت طويل. كان الأمر مثل حديث إلى عمة بعيدة حول اختفاء صديق مشترك قديم. لم يعد هنا أب، أو أم، أو أطفال، بل كان شخصان بالغان يسيران بين القبور، يستذكران وفاة ثالث كان من العائلة سابقاً، بالطريقة ذاتها التي يتحدث بها المرء عن أضرار جانبية، لا مناص منها في الحياة.

لم تكن أمي ولا عائلة هانسن على علم بما كان يبدو عليه العامان الأخيران من حياة يوهانس. ولم يكن هناك ما يدعو ليعرفوا كيف كانت. فهي عادت إلى جنيف، وعاد الآخرون إلى أسماكهم، وأنا عدت نحو ما كنت أتمنى أن أكون في حياة جديدة ثانية.

بناء على طلب الكنيسة المشيخية في مونتريال، لم ينظم أي احتفال تأبيني في ذكرى القس هانسن. وتصرفت حسابات البنوك والحسابات الكنسية تصرفاً حاسماً لضمان الالتزامات الرعوية، وغيّر الإنجليز أبرشيتهم، بانتظار تعيين

كاهن آخر للطائفة. أما بالنسبة إلى جيرار، فمحبة بالآلة، ولكن أيضاً لذكرى والدي، فقد ابتاع من الأبرشية، التي قبلت، أرغن هاموندB3، ودواسته ومكبر الصوت ليسلي، الذي ربما لا يزال حتى يومنا هذا بالقرب من شيربروك، يبث رنات الأوتار السابع أو التاسع ويوزعها. وخلال بضع سنوات، بقيت أنا وجيرار ليبلوند - كنت في ذلك الوقت أعيش في مونتريال - على اتصال هاتفي، نتحدث عن تجاربنا وأخطائنا الحياتية الخاصة. وأخبرني أن القس الجديد الذي تم تعيينه ليحل محل يوهانس، لم يكن يجتذب سوى حفنة من المريدين من أعمار أخرى. وهؤلاء المريدون، على أي حال، وفقاً لتعبيره، «كان يمكن أن يغيروا من مقاعدهم، حتى لو وضع حيوان الغريري خلف المنبر». بعد بضع سنوات اتصل بي جيرار نحو الساعة 11 مساءً، كان متشوقاً للغاية، ليكشف لي ما علمه للتو. لقد أغلقت كنيسة ثيتفورد ماينز قبل عام بسبب انشقاق الإنكليز، وعرضتها للبيع، على غرار مصير سينما والدتي، وكالة عقارية، وسرعان ما تم شراؤها، بما في ذلك دار الكاهن، لتتحول إلى منزل للسكن. «لو كان والدك يرى هذا الأمر، صدقني، لن يندم على كل أيامه التي قضاها في السباقات بعد العصر. في أحد هذه الأيام، سأذهب في نزهة هناك، وسأخبرك كيف يبدو الأمر». لم أعد أسمع أخباراً من جيرار مرة أخرى، أعتقد أنني أستطيع تخمين السبب، فأنا لم أذهب أبداً إلى ثيدفورد ماينز. أتمنى فقط من المستأجرين الجدد أن يحافظوا على القبة وأضلاع قاربها، الذي ردد صدى صوت أبي مدة طويلة.

بعد اختفاء القس، تركت وظيفتي لدى دولوربيه. وقد أعد حفلاً صغيراً لتوديعي. وفي هذه المناسبة، أصر بيير، اعتقاداً منه أنّه يقرأ في المستقبل، على أن يقدم لي صندوق أدوات، يحتوي على كل ما يتمناه العامل، وكذلك مجموعة من المعدات الكهربائية للنشر، والصقل، والقطع، والثقب، والطرق. «أنا لا أعرف ماذا ستصبح، ولكن مع ذلك بما تعلمته معنا، لديك ما يلزم لكسب العيش والخروج من المشكلات. حظاً طيباً يا بني». لقد مر زمن طويل لم يناديني أحد بكلمة: بني. جمعت كل هذه المواد وممتلكاتي القليلة في سيارة هوندا سيفيك الصغيرة التي يبلغ طولها 3.54 متر الخفيفة كالريشة، وسرت على طريق المدينة، مباشرة إلى الأمام، باتجاه مونتريال، كيبك.

***

في السجن نادراً ما يثق أحدنا بالآخر، ولكننا نتحدث كثيراً عن عائلاتنا. تحدث معي باتريك لفترة وجيزة عن عائلته عدة مرات، لكنني فهمت من الحديث عن سنوات شبابه التي قضاها معها أنه كان غير مرتاح. من ناحيتي، لم أقدم له الكثير أيضاً. وبشأن والدتي، فقد أخبرته بكل بساطة أنها امرأة عصرية للغاية ومكافحة، وذات جمال مذهل. «يا صاح، هذه أمك. لا يتحدث المرء بهذه الطريقة عن أمه، يعني مشبوهة، عاهرة. «جمال مذهل»، هل تسمع؟ يبدو أنك تتحدث عن نادلة من مدينة لافال. عندما تقول ذلك، فأنا لا أحكي لك عما يدور في رؤوسنا من أفلام على الفور. كلا يا رجل، أمك يعني أمك، وانتهى الأمر».

وفي مناسبة أخرى، ذكرت نسب والدي الدانمركي ومهنة القس التي مارسها حتى وفاته. هذا الخطأ أكسبني درساً من التماسك «اللعنة، أنت ابن القس. هذا مثير. هذا غريب حقاً، أليس كذلك؟ ماذا كان يفعل والدك طوال اليوم؟ لأن القداسات وكل هذه الأمور تعقد في يوم الأحد. لا أستطيع أن أتخيل أن أكون ابن كاهن من نوع ما، كلا، هذا غريب جداً. فالقس هو من عاش مع «الجمال المذهل».؟ إنه رجل غامض أيضاً. أعرف أن للقساوسة الحق في ذلك، ولكن، هذا القرف، لايزال، مع أمك، مثلما قلت لي، ومع ذلك، فهو يلدغ، يا رجل، إنه يلدغ. أنا آسف، ولكن نحن الكاثوليك لم نعتد على ذلك. عندنا لا أحد يمارس الجنس. ولا يحق للكهنة بأي شيء. ولا حتى أن يتاح لهم الأمر ولو لمرة واحدة بين حين وآخر. بالطبع، هذا من الناحية الرسمية. لذا فأنت مع والدك تفعل ما يفعله لأمك «المذهلة»، تماماً قبل الذهاب إلى الكنيسة، اعذرني مرة أخرى، لكنني أجد ذلك مثيراً». توقفنا عند هذا الحد، وأبعدنا الحوادث الأسرية، أو المزايا النسبية للممارسات الأبوية، أو ممارسات المسيحيين الفرنسيين إلى الأبد من سكننا المشترك.

يبدو باتريك اليوم في حالة عصبية شديدة. فقد تلقى رسالة من والدته غير المذهلة، تعلن أنها ستأتي عصر اليوم لزيارته في صالة الزيارة. واستعدادا لهذه المناسبة، حلق ذقنه بعناية، وبحث عن ملابس غير مجعدة للغاية، شيء نادر في زنزانة بحجم زنزانتنا، يديرها رجلان ونصف الرجل. كما رأيته يمشط شعره بعناية بفرشاة لأول مرة، منذ أن تم احتجازنا معاً. يبدو الفتى وكأنه ذاهب

إلى أول موعد غرامي له، عصبي المزاج. وقد بدأ انتظاره منذ اللحظة التي تلقى فيها الرسالة. وسرعان ما عاد ابن الأستاذ الذي يحب أطفال الآخرين، ابن زوجته التي لم يعد يراها منذ مدة طويلة، الشخص الذي يعد بافتراس من يترك عقبه يسحل عند المدخل. يشعر مرة أخرى أن هذه الأم قد أحبته، حتى لو لم تدع ذلك يبدو عليها. وإلاّ لماذا تأتي اليوم من مكان بعيد إلى هذا السجن سيئ السمعة، وصالة الزائرين المثيرة للاشمئزاز هذه؟ بالطبع أحبته، حتى عندما كان يفعل قذاراته، وكان الأستاذ يضايقه في غرفته. وإذا لم تكن تدافع عنه، فلأنها كانت غير قادرة على الدفاع. وعلى أي حال لم يكن زوجها يعينها. كانت تنتظر في الخفاء، حتى يتوارى لتبدأ حياتها في العيش، وتعانق كل طفل من أطفالها وتطلب منهم الصفح. «هل هذا القميص بني اللون مناسب مع بنطالي الأزرق، أم أرتدي القميص الرمادي؟» لأنني مرغم على العيش هنا، لم أعد أعرف كيف ألبس ملابسي. يتردد. يتساءل عما ستفكر به أمه. فيما لو ستحكم عليه من خلال مظهره، أو أنها ستنظر إليه كما هو، ذلك الوغد العنيف، ولكنه نابع من جسدها، تكّون من قذفة سريعة من سائل الأستاذ، ذات ليلة عندما خطر في باله. وباتريك حساس للغاية. آمل أن تعامله بشكل حسن.

***

تزامنت إقامتي في مونتريال، بعد بضعة أيام، مع دعوتي لحفل رسمي لتسلم الجنسية الكندية. تجمع مئة شخص قدموا من جميع أنحاء العالم، بعد انتظار لما يقارب من خمس سنوات للحصول على هذه الجنسية الثانية في صالة مخصصة. فيها علمان من الأعلام الكندية، وعضو في الشرطة يرتدي زياً رسمياً، ورئيسة ترتدي ملابس الوظيفة، وكاتب محكمة مُثقلاً بقلادة من السلاسل الذهبية، يقدم الشهادة لكل مشارك، مع التهنئة بذات الكلمات الدافئة: «مرحباً بك في العائلة الكندية الكبيرة». ثم وقفنا جميعاً لننشد النشيد الوطني «يا كندا»، المقتبس من قصيدة لأدولف باسيليروثييه – وهي النسخة الفرنسية الأصلية للنشيد الوطني الكندي – التي أعدها الموسيقار كاليكسالافالي.

كنت أعبر متنزه جان مانس، وأمشي في شارع سانت أوربان ثم ساحة الفنون، وفي مقهى87 طلبت شوكولا، لم يتغير شيء حقاً؛ كل ما في الأمر، أنني أصبحت مواطناً كندياً. وبشهادتي الجديدة في جيبي، يمكنني الآن أن أدعي أنني فرانكو

كندي ابن دانماركي من سكاجين. كانت المرة الأولى التي وقعت فيها بنفسي على عقد إيجار محلي جديد، وأخذت أختار بنفسي اسماً لمنزلي الجديد. لقد كانت تجربة جديدة بالنسبة لي. أما «يا كندا»، فهو نشيد مليء بالعظات الحربية – «لأن ذراعك يمكن أن يحمل السيف / يمكنه حمل الصليب» – على الرغم من أنه من الشعر الملفق الرديء المكتوب بين دفعتين من الجعة، لكنه كان أفضل إلى حد ما من نشيد بلادي المرسييز الرهيب المرعب. أعلم أن الفرانكو – الكندي الذي يحترم نفسه، ويطمح إلى القليل من السلام والكرامة على هذه الأرض، لا يجب أن يقول – ولا حتى يفكر – ما سأكتبه: في مسائل النشيد الوطني، لا يمكن لأحد أن يزاحمني، لأنه أينما يعزف وأياً كان السبب، فإن «الله يحفظ الملكة» سيجعل جميعهم، وعلى الدوام يشعرون بالندم على أنهم ليسوا من الإنجليز.

كنت أستمتع في مونتريال. كانت مدينة أولمبية مضغوطة، واحدة من المدن النادرة في العالم التي تمنحك شعوراً بامتصاص تقلبات الحياة أو صدماتها، والقدرة على الاستيعاب أو التخفيف من سوء الحظ. كان هناك الجبل والمياه والحدائق والنهر وحفيف كل تجمع بشري، يسهم في إنجاز عمل متباين، كان يتفرق ببطء، ليلتحق بالحويصلات المضيئة لمبانيها العالية. كنت أدخل في هذا الدوي دون صعوبة، في البدء كبائع في متجر رونا للأدوات، الذي يقع في شارع نوتردام، إنه جنة حقيقية من الأشياء والمواد، إنه فردوس الأدوات، والملحقات، حيث كنت أتنقل بين الرفوف التي تصعد إلى السماء، والتي كانت دائماً تحتوي على ما لا يمكن تصوره. ثم في متجر لوبلاوس، وهو متجر عام للمواد الغذائية والسلع الاستهلاكية، حيث طُلب مني تزويد قسم الفواكه والخضروات التي تخرج مباشرة من ورشة الورنيش. وأخيراً، في متجر تاير الكندي في شارع سان لورين، وهو متجر لبيع إكسسوارات السيارات، ويقدم أيضاً خدمات التصليح الآنية للمركبات. قمت خلال مدة سنة تقريباً، من وظيفتي، في ورشة العمل، بتغيير الفلاتر والشمعات، وغيرت زيت كل شيء يتدحرج كما كانت تقول اللافتة. ثماني مركبات في اليوم الواحد. ما يقارب من 160 في الشهر. أي نحو 1600 في سنة واحدة.

إن التشحيم ليس مهنة. ولا يمكن لأحد أن يقضي أيامه في الترويج للزوجة زيت المحرك فالفولين Valvoline وأمازون باسيكس Amazon Basics

وبنزاويل Pennzoil ورويال بوربل سنتيتيك Royal Purple Synthetic وأمسويل Amsoil وكواكر ستيت أويل Quaker State Oil. لقد اكتشفت أنه في هذا المجال كانت هناك فئة من العملاء يعانون من الوسواس القهري الذين تربطهم علاقات غريبة وعاطفية تقريباً بمواد التشحيم. قد يعتقد المرء أن هؤلاء الرجال، ربما كانوا أكثر ولاءً لزجاجات الهيدروكربونات المكررة والمكملة على مدى الحياة، من ولائهم للزوجة التي تتجمل بالصبر، وهي تنظر إليهم يتقدمون في العمر مستمعة إليهم، يجترون قصص السيارات، التي تستهلك دائماً أكثر مما ينبغي.

غادرت عالم الزيوت والإطارات بعد ثمانية أيام من عيد ميلادي الثلاثين. وعشت في استوديو في شارع كلارك، مقابل الحي الإيطالي الصغير، وعلى مرمى حجر من حديقة جيري. كان حارس البناية واحداً من أغرب الرجال في هذه المدينة، وأطرفهم دون شك، وكان لدي معه تعاطف لا حدود له. كان يرتدي دائماً ملابس بالطريقة ذاتها، أثناء ساعات العمل، في الصيف والشتاء: أحذية بمقدم أصابع مدعمة، وجوارب صوف عالية، وشورت برمودا مع جيوب جانبية ملتصقة، وقميص أسود وسترة بنية داكنة مختومة بـUPS. هل كان يحلم طوال حياته بالتجوال في المدينة نيابة عن هذه الشركة؟ تبقى الحقيقة أنه كان يرتدي شعار النبالة والكاريكاتير. فضلاً عن ذلك، عندما كان يسير في ممرات المبنى، يقوم بتقليد جميع أنواع ضوضاء الحياة المنزلية والحديثة. فكان ينظف باب المصعد، وهو يهزه مثل الخلاط، ويغسل النوافذ عن طريق تقليد ضوضاء المكنسة الكهربائية، وهو يمرر تروسها صعوداً بصيغة واحدة، ويثير صرير الأبواب المشحمة تشحيماً متكاملاً. وعندما يحل المساء ويريد أن يدخن سيجارة، كان يجلس على درجات المبنى، يفتعل ضجيج محرك الديزل لقارب صيد يغادر الميناء. خلال أداء هذه المهام، كان سيرجي بوبكا وحده في هذا العالم، لا يسعى إلى رضا أو صرف انتباه. عندما كان يبتعد عن الشاطئ عند المد الصحيح، كان ببساطة عندما يتسلم سكان مركبه، يتهدهد بدمدمة محرك بيركنز. كان يبني عالمه، بطريقته الخاصة، ويجهر بحلمه كهؤلاء الأطفال بأفواه آلية، وهم يدفعون مركباتهم الصغيرة في صالة المعيشة. لقد كنت على وفاق مع سيرجي بوبكا إلى حد بعيد. وعندما كنت أعود إلى المنزل، أجده أحياناً في

الصالة فيسألني: «ماذا تريد الليلة؟» فأجيبه: أبواب المترو تفتح وتغلق. وبعد لحظة، كانت الإشارة تعلن رنينها لدخول القطار. وهكذا.

أنا مدين لبوبكا كثيراً. كان هو الذي من ألقى بي في معترك حياتي الجديدة. وهذه المرة، دون حتى تقليد صوت مصافحة التوظيف، ولكن من خلال تقديم نفسي في عيد ميلاد ألكسندر، رئيس جمعية ملاكي مبنى «الإكسلسيور»، الذي يقع في حي أونتسيك، الذي ليس بعيداً عن الحديقة المسماة باسمه. لقد قمت أحياناً بحل مشكلات كهربائية وصحية صغيرة واجهها سيرجي. فتلقيت منه إعجابه وتقديره الأبديين. لذلك عندما أشار ألكسندر، الذي كان يسكن هنا، في منعطف لقاء غير متوقع أنه كان يبحث عن بواب جديد، ليحل محل البواب الحالي، الذي لم يكن يقوم بهذه المهمة، قال بوبكا ببساطة: «لدي الرجل الذي تحتاجه». أتعرف ما قاله لي السيد ألكسندر؟ قال، أرسله لي. وأضاف: هل يصدر أصواتاً أيضاً؟ «أنا أحب السيد ألكسندر، إنه رجل كبير السن محترم جداً».

بعد شهر، انتقلت إلى مبنى «الإكسلسيور»، وهو يشبه باخرة محيطية ضخمة، مع صالة للماكينات، بحياته الداخلية المعقدة، ومسبحه الضخم، وحديقته المورقة، ولا سيما أن كابيناته الثماني والستين كلها كانت مكدسة على ستة جسور. خصصت لي إحداها في الطابق الأرضي، ربما هي الأقل حسداً من بينها. لقد تم التعاقد معي كمشرف مع وعد بإعادة تصنيف وضعي كمشرف أعلى، إذا قوبلت بالاستحسان والرضا بعد ثلاث سنوات من الممارسة. وهكذا، وبدلاً من ارتداء زي القبطان، ارتديت البدلة الكاكي كمستخدم في مبنى «الإكسلسيور».

كانت سنتي الأولى كابوساً لا ينتهي. كان عليّ أن أقاوم التعب والإحباط والظلام. أرهقتني المهام العامة، والطلبات الفردية، والأعطال، والصيانة الروتينية المتزايدة بسبب عنف الشتاء، كنت على وشك أن أقدم الاستقالة عدة مرات. لقد فقدت تسعة أرطال خلال فترتي الأولى. وأنام ليلة كل يومين. كنت أعيش بشكل متواصل في بطن الوحش. بعد ستة أشهر، أصبحت غير قادر على التعرف على أسماء السكان من خلال وجوههم، عندما يمرون بي في الأماكن العامة.

***

كان لهورتون الحق ألف مرة عندما كان يتهكم من والدي في استغلاله

للوقت. ففيما يتعلق بالحيوية، والتركيز، والعمل، والتعب، وتولي مهام الكنيسة، وإدارة كل شؤونها، وموازنة وحدات القوة الصوتية لمكبر الصوت ليسلي، وتصحيح أخطاء الإنجليز مرة في الأسبوع، كان كلّ ذلك في الواقع جزءاً من المتعة، والنشاط الترفيهي، والهواية. كنت وأنا أتأمل ذلك، لم يخطر ببالي أنني سمعت والدي يشكو حتى في الوقت الذي كان يقامر فيه في مضمار السباق على طاولة القمار. في الواقع كان يعاني بالفعل من ساعات القيادة الليلية، والقلق من الخسائر المتزايدة، وخشيته من أن هذه الحياة الثانية بدت تلوح له نهايتها. ولكن في السابق، خلال كل تلك السنوات، عندما التف حوله صانعو الكراسي، عرفته دائماً مليئاً بالقوة، والحيوية والجاذبية، والنضارة مثل الوردة.

وهنا، كانت الورود بأشجارها الشائكة كالخناجر تنتظرني في الحديقة، وكان عليّ الاهتمام بها وتشذيبها في الموسم المناسب. لقد كانت هناك ثلاثة براعم على الأغصان الضعيفة بزوايا مائلة، وكنت أقوم بتقميطها في فصل الشتاء، ثم أعتني بأشجار البيلسان، وأشجار الزعرور، وأشجار أرز الهملايا الزرقاء، وأشجار الزينة الكوبية، وأجمع أوراق الخريف المتساقطة على شكل عناقيد من أشجار القيقب. أما العشب الذي كان يحتاج إلى الماء في الصيف، فكان يجب الحفاظ عليه أخضر خالصاً، وبـ «قصة قصيرة»، «ولكن ليس منخفضاً جداً أيضاً». أما المسبح الذي غرقت فيه أكثر من مرة، فكنت غير قادر على الحفاظ على توازن الـ 230 ألف لتر من المياه، التي لا تحتاج سوى غفلة بلمح البصر حتى ترى انهيار أسه الهايدروجيني، أو تستسلم للمواد البايوليجية التي تحرض مستعمرة كاملة من الطحالب، فتحول حوض السباحة، وفقاً لحالة شكلها، إلى خزان لبني كبير أو على العكس، تضفي عليه قليلاً من ألوان السبانخ الجذابة. قبل معالجة المسبح بالملح، كنت أحارب قدر استطاعتي بالكلور متعدد الاستعمالات، والأس الهيدروجيني، وصفائح سوائل التصفية لترسيب كل هذا القرف في القاع الذي اضطررت فيما بعد إلى امتصاصه في مجاري الصرف الصحي وإلقائه. إلى جانب كلفة العملية غير المناسبة، كانت مهمة طويلة دائماً، يراقبها عن كثب، ويتخللها نفاد صبر الملاكين، الذين يشدون ملابس السباحة إلى خصرهم. كانت هذه الكائنات الحية الدقيقة تلتهم حياتي، وتجبرني أحياناً على الذهاب إلى حافة حمام السباحة ليلاً للتحقق عن مدى الخسائر، قبل أن

يستيقظ الملاّكون، ويكتشفون الموقف. ولمعالجة هذه المياه الترفيهية بالملح والحفاظ عليها بشكل موحد عند 28 درجة بوساطة نظام تسخين كهربائي من نهاية أبريل – نيسان إلى منتصف أكتوبر – تشرين أول، فقد عشت بشكل دائم في فصل الصيف، مع هذه 230.000 لتر من المياه التي كانت تترجرج طوال ليال، والتي من الممكن أن تفسخ العقد، وتغمرني بالخجل في كل لحظة.

لقد أتيت أكثر من مرة إلى شقة نوئيل ألكسندر لأعترف له بفشلي، في موقف مؤسف كمن ارتكب ذنباً «الليلة الماضية، فقدته». ثم تحول ألكسندر إلى زوجته وقال: «لقد فقدناه». وبعد أقل من ساعة، كان جميعهم في شرفاتهم، وأعينهم تحدق بالكارثة، وهم يكررون ذلك بالطبع، بالتأكيد، لقد فقدناه.

نعم، كان حوض السباحة هذا مصدر قلق ومضايقة لا تنتهي بالنسبة لي ولمدة طويلة. ومن الغريب أنه كان أيضاً سبب فصلي، وبالتالي سجني بعد عدة سنوات، ولكن هذه المرة، ولأسباب لا علاقة لها بتأيّن الهايدروجين المحتمل.

فضلاً عن ذلك، لم تختف جميع ممارسات التعقيد التي يتميز بها هذا الحوض مع نهاية أيام فصل الصيف. ففي الخريف، كانت تبدأ إجراءات التفريغ وتصريف 230 متراً مكعباً من الخزان إلى المجاري، لمنع الصقيع في منتصف الشتاء من تكسير البناء وجميع الأنابيب.

وعلى الرغم من أن العملية كانت لا غنى عنها، لم أستطع أبداً التصدي للبدء بهذا البروتوكول، دون الشعور بالخجل الحقيقي، والشعور بارتكاب فعل خاطئ. إن الـ 230.000 لتر المعالَجة بالكلور، ومن ثم بالملح فيما بعد، والمسخنة إلى درجة مايقارب خلال ستة أشهر تقريباً حتى يتمكن معظم السكان، دون أن يشعروا برجفة، من ممارسة السباحة الهندية، فجأة، تسحب لها السيفونة، ويرسل تيار المحيط الحضري الصغير النقي إلى المنهولات المحصنة الخاصة بمرافقهم الصحية.

كانت المرحلة الثانية من عملية السبات الشتوي تتضمن تطهير قنوات الترشيح جميعها، بضاغط هوائي، وطرد السوائل بعملية الشفط العالي والمنخفض، وإيقاف نظام التدفئة. ومن ثم، لم يكن هناك ما يعد أن يبقى سوى انتظار الثلج الذي يغطي هذه الحفرة الزرقاء، بطبقة من النسيان حتى العام التالي.

منذ الأيام الأولى للمهنة التي امتهنتها، تعلمت درساً بسيطاً جداً، وهو إنه

غالباً ما تبدو المباني السكنية تشبه الأشخاص الذين يعيشون فيها، وهم يحبون أن يكونوا شبيهاً لها.

هناك طرق لا حصر لها لتدمير حياتك. اختار جدي سيارة ستروين DS19. واختار أبي قناة رجل الدين. من ناحيتي، كنت أفضل دخول هذا الدير العلماني الذي كان مسؤولاً عن تنظيم أيامي في جدول مخملي من الساعات. وباستثناء الأعطال وحالات الطوارئ غير المتوقعة، كان جدولي دائماً هو نفسه. في الصباح، أبدأ بجولة في جميع أروقة المبنى للتحقق من حالة النظافة العامة. ثم أختبر المصاعد، والمصابيح، والأنظمة الكهربائية، ومهما كان الطقس، ومهما كانت درجة الحرارة، كنت أصعد إلى السطح لفحص أنظمة التهوية. وهناك ثماني خانات، كل واحدة مزودة بثلاثة محركات مخصصة للتهوية، واستخلاص الروائح وإزالة الرطوبة. كنت أختبر أداء الصمامات السليم، مع الانتباه إلى الأصوات التي تصدر عن متدحرجات كل مجموعة، لاكتشاف الأنّات الأولى بسبب التآكل. وعندما كنت أعود إلى داخل المبني، كنت أنزل إلى الطابق السفلي لاختبار وحدة مضخة الرفع، وتزييت مصاريع أبواب المرآب، والتحقق من الأداء السليم لنظام إنذار الحريق، ونظام الأمن العام اعتباراً من جميع الصناديق التي تسمح بالوصول إلى المبنى عن طريق الشارات. وفي طريق العودة، وقبل أن أستهل يومي بالصيانة الفعلية، كنت أتوقف في الغرفة المخصصة لنظام التسجيل الذي كانت ترسل إليه كاميرات المراقبة الأربع والعشرون شاراتها، التي تغطي معظم مناطق المبنى الداخلية والخارجية.

كانت هذه الجولة التمهيدية ضرورية لأنها تسمح لي باستباق معرفة المشكلات، قبل أن تتسبب هي نفسها في سلسلة من الأعطال الأخرى.

كان مبنى «الإكسلسيور» يشبه حمام السباحة الخاص به. كان مبنى هشاً، غريب الأطوار، مقامراً، تلقائياً. كان عليّ مراقبته دائماً في الصيف والشتاء. وإلا فإنه قد يفسد عقدي، إذا استغل أدنى قدر من عدم الاهتمام. الأمر متروك لي بإعادته إلى رشده وحياته النابضة، ثم إن مبنى «الإكسلسيور» مثل معجون الأسنان، يخرج من الأنبوبة بسرعة، ويعود إليها بأقل حماس.

***

تفشى على مدى اليومين الماضيين، وباء التهاب المعدة والأمعاء، وانتشر

في أنحاء السجن جميعها. إنها محنة حقيقية، فالاكتظاظ وتقاسم أماكن الدورات الصحية يسهل من انتشار المرض. تنهار الزنزانات الواحدة تلو الأخرى، ولا يبدو أن للتوزيع المنتظم لأقراص «إيمديوم» لمعالجة الإسهال أية آثار مقنعة في الوقت الحالي. فالروائح القاتلة تنتشر في المباني جميعها. ويرتدي الحراس أقنعة وقفازات مطاطية، ويأمرون بعدم الاختلاط بالمحتجزين. كنت آمل أن يتجنب المرض مسكننا، لكنه بالأمس أصابنا أيضاً. ويبدو أن الغذاء كان السبب الرئيس وراء هذا المرض، الذي انتشر بسرعة. إن اضطرار كل فرد إلى الجلوس أمام الآخر لقضاء حاجته على وجه السرعة أمر يشكل إذلالاً مدمراً. لم يولد أحد ليعيش هذا الإذلال. إنني أتقبل أدنى عنف ووحشية هذا الكون. كلما احتجت، أسرع وأعتذر لباتريك.

«لا تكن فتاة صغيرة، أيها الرجل الطيب. هكذا هي الأمور. إنهم يحتجزوننا. لذا لا تعقد حياتك. أفرغ وحرر نفسك بهدوء، ولا تنتبه إليّ. اسمع ما أقوله لك: لا أرى شيئاً، لا أسمع شيئاً، لا أشعر بشيء».

في بعض الأحيان هناك شيء من النبل في وحشية حيوانية هورتون، شيء يضعه أعلى من قضاته وحراسه، وأعلى من أبيه الذي قضى حياته في التدريس، لكنه لم يتعلم شيئاً. ففي اللحظة التي لا نتوقع فيها ذلك على الأقل، وفي اللحظة التي يكون فيها الموقف محرجاً، تشع منه ومضة إنسانية مبهرة.

أخبرنا أحد الحراس أنه وفقاً للطبيب، سيعود كل شيء إلى طبيعته في غضون أسبوع. وفي غضون ذلك، سيعتمد نظامنا الغذائي على الأرز. نحاول أنا وباتريك النوم قدر الإمكان، ولكن من المؤكد أن نوبة تشنجات أحشائنا، لا تفتأ أن تذكرنا بما تتطلبه. سألني هورتون قبل الذهاب إلى الفراش. «إذا تحسنت، هل يمكنك قص شعري غداً؟». كان على باتريك أن يثق بي حقاً في أن يعهد إليّ بهذه المهمة، لأن أي شخص حضر، ولو مرة واحدة، جلسة حلاقة شعر الحيوان، كان يطلب الانتقال على الفور من الزنزانة.

مضت الأمور في هذا الصباح على نحو أفضل. ويبدو أن الروائح هاجرت بين عشية وضحاها، وأصبحت أحشاؤنا هادئة. واستعد باتريك بظهره المتصلب، ليجلس على الكرسي، والمنشفة فوق كتفيه، وهو متوتر قلق للغاية، وفكاه متقلصتان للغاية، وحنجرته معقودة، لدرجة أنه بالكاد يستطيع نطق بعض

التعليمات التي يوجهها إليّ: «ليس قصيراً جداً، وقبل كل شيء أن تقص بلطف، لا تقصّ خصلات كبيرة من الشعر. ينبغي ألاّ أسمع صوت المقص، وهو يطقطق فوق خصلات الشعر. هيا وبرفق. إذا شعرت أن الأمور ليست على مايرام، أقول لك ذلك، وتتوقف على الفور. إذا لم أكن بحالة جيدة حقاً، فيتعين عليّ الاستلقاء على الأرض بعض الوقت. هذا أمر طبيعي، لا تقلق. أنا أثق بك. هيا، اللعنة، اتركني دقيقة أخرى أو دقيقتين وننطلق».

يعاني باتريك هورتون من رهاب نادر يلاحقه منذ الطفولة إلى حد ما. ويعد شعره جزءاً لا يتجزأ من جسده، وعملية حلاقته تسبب له نوعاً من الانزعاج الجسدي. «أنا لا أعرف كيف أخبرك. يبدو الأمر وكأنك كنت تقطع طرف إصبع أو قطعة صغيرة من الأذن، كما لو كنت تقوم ببتر شيء ما. وهذا ما يؤلمني. شعري جزء مني تماماً. لهذا السبب لا يمكنني الذهاب إلى الحلاق. كانت والدتي هي التي تحلقه في المنزل. إنها ماهرة، وكانت تتحدث معي، وهذا كل ما في الأمر. أما أنا فمن غير الممكن. فقد جربت بمفردي من خلال المرآة، لكن في كل مرة كنت أضغط فيها على المقص، كنت ألتفت. هل يمكن أن ترى نفسك تقطع قطعة من لسانك؟».

قمت بتمرير شعر باتريك بين أصابعي. وبحركات رقيقة متناهية، بدأت أقص خصلة فخصلة من هذا الشعر الكثيف. وكأنك تنظف عشباً في غابة بمقلمة الأظافر. «بهدوء، ولا تسحب إلى الأعلى. وفي المقام الأول لا تطقطق بالمقص، لا أطيقه، آسف يا رجل». بدأ جسد باتريك كله يهتز بشكل غير ملحوظ، ورأيت سمات من الألم على شفته العليا. «قف، قف. لنتوقف دقيقتين». بالكاد كانت هناك بداية لشكل أولي أو لكومة من الشعر على الأرض. على هذا المعدل، لن يكون الأسبوع كافياً.

في أثناء الاستراحة، أعددت فنجاناً من القهوة التي شربها باتريك، وهو يمسك الوعاء بيديه ويرتجف، كناج أنقذ للتو من حطام سفينة غارقة. يبذل المقص قصارى جهده، ولكن، حتى عندما تقوده، تنفث نصاله الحادة صريرها المميز، عندما تقضم البشرة والقشرة والنخاع. وهذا بالضبط ما لا يستطيع باتريك تحمله. «توقف، اللعنة، هذا غير ممكن، إنه يصيبني بالدوار، أنا بحاجة إلى الاستلقاء، اللعنة». فينزلق الرجل ونصف الرجل برفق من كرسيه إلى

الأرض، يلتف حول نفسه مثل حيوان داجن ضخم. جلست القرفصاء إلى جواره، ووضعت يدي على كتفه، أستمع إلى تنفسه الذي أخذ يهدأ تدريجياً، وبقينا على هذه الحالة، جنباً إلى جنب، طوال الوقت المطلوب.

***

لقد انحسرت ليالي الهلع، وانعدام الثقة في النفس، فمع مرور الوقت، ومع مرور السنوات، تمت ترقية مشرف مبنى الإكسلسيور الخجول، وفقاً لشروط التزامه، وبعد الممارسة الثالثة، إلى رتبة مشرف عام. ببساطة، منحني هذا الوضع الجديد بالتأكيد زيادة في الراتب، ولكن الأهم من كل شيء زاد من مستوى الأعباء، حيث إن المسؤوليات التي كانت مناطة بي أصلاً قد أضيفت إلى إدارة المبنى الإدارية، مثل شراء جميع المواد الاستهلاكية، وطلبات المنتجات وأدوات الصيانة، والعلاقات مع مقدمي الخدمات، وتحديد المواعيد. وبطريقة ما، كنت أدير شركة صغيرة. وهناك مرة أخرى، بعد فترة من التكيف، ارتديت بهدوء زي هذا المشرف، الذي كان يُدعى باسمه المجرد، والذي أصبح حجر الأساس والمألوف تدريجياً، وأحياناً حتى المقرب، من سكان المبنى بأكمله.

كان نطاق عملي وتدخلي يتوقف عند باب كل شقة. وما كان يحدث بعد ذلك لم يكن من شأني. الأمر متروك للجميع للتعامل مع الأعطال، والتسريبات، وانقطاع التيار الكهربائي، ومشكلات الهاتف أو الكابلات.

في بداية التسعينيات، كان يسكن الإكسلسيور أناس هم بالأحرى من كبار السن الذين استقروا فيه منذ البداية، بهدف الاستمتاع بتقاعدهم في وقت لاحق، في إطار بيئة مريحة ورعاية صحية. وقد حانت تلك اللحظة. وكما أن القدر قد قرر أن ينال من هؤلاء المالكين، فقد أوجد لهم مشرفاً فرنسياً كندياً، غير مؤهل، ولكنه متخصص في كل شيء، قادر على وجه الدقة على لف أعناق الأعطال والتسريبات، وانقطاع التيار الكهربائي، ومشكلات الهاتف أو مكامن الخلل في الكابلات. وهكذا، على الرغم من لوائح الحظر، انفتحت أبواب الطوابق أمامي. فبعد أن أخرج من شقتي الخاصة، كان المبنى بأكمله يكاد يكون بمنزلة بيتي الثاني إلى حد ما. وخلال تلك السنوات، كانت من بين سكان مبنى الإكسلسيور الثمانية والستين، إحدى وعشرون امرأة عازبة،

وجميعهن مسنات نسبياً. وجميعهن يعتمدن عليّ. في بعض الأحيان من أجل تسليك حوض المطبخ، وأحياناً لاستحضار الماضي، وتخفيف ذاكرة جاهزة ليطفح ما فيها. في بعض الليالي، كان لدي انطباع أنني قضيت وقتاً أطول في الاستماع إلى أنين النفوس، أكثر من التحقق على السطح، بحثاً عن صرير المراوح وهديرها. لكني كنت في الخامسة والثلاثين من عمري، ولي من الصبر صبر ملاك، ولاسيما هذا الشغف الذي لن يتخلى عني أبداً، هذه الرغبة في إصلاح الأشياء، ومعالجتها والعناية بها، والمحافظة عليها على أحسن وجه. ولم لا، عندما يُطلب مني ذلك، كنت أتصرف على قدم المساواة مع ثمانية وستين مالكاً لم يترددوا في تكرار القول: «إذا كانت لديكم مشكلة، فلدى بول الحل».

في 14 مايو – أيار 1991، واجهت وضعاً، لم يكن يُعرف لجانبه أي حل. فقد اتصل بي غونترغانز رفيق أمي في منتصف الليل، وأخبرني بوفاتها.

لا أزال أسمع صوته الضخم، المرخم بأصوات أسلافه الجرمان، وهو يقول لي على الهاتف: توفيت والدتك منذ ساعة، لم تعاني، إنه انتحار «Fodre bere a basse il y a oun heur. Elle n’a ba zoufer. Ze tun zuicite»[24].

مطار دورفال. رحلة الخطوط الجوية الكندية ليلاً. سبع ساعات ونصف الساعة من الطيران. مطار جنيف الدولي. غانز ينتظرني. سيارته المرسيدس موديل السبعينيات، يتكلم قليلاً. منزله، معتم، مملوء بزمن آخر. فُرش الدرج الذي ينبعث منه صرير الخشب بالمخمل الأحمر. غرفة أمي وجسدها. وهي ترتدي بدلة، وكأنها تحيل إلى الأيام الجميلة. يداها متقاطعتان على بطنها. ووجهها يكتسي بألوان الحياة. يبدو أنها تستريح. وكأن الوفاة حدثت للتو. ستفتح عينيها، وترى ابنها، وتطلب منه أن يأتي ويجلس إلى جانبها. لا ترتدي ساعة، ولا مجوهرات. لقد سبق لغانز أن قام بتخزين كل شيء في الصندوق.

24- لم يلفظ العبارات بالشكل الصحيح، ويقصد:

«Votre mère est passé il y a une heure, elle n’a pas souffert, c’est un suicide»

(توفيت والدتك منذ ساعة، دون معاناة، إنه انتحار) هذه العبارات والعبارات الأخرى في المتن لا وجود لها في أية لغة، وإنما قام المترجم بتقريبها، وفقاً للنطق الفرنسي الذي أورده في هذا الهامش، والهوامش 25 و 26 و 27 – م.

يبدو أن غانز شخص مرتب. وددت أن أضع يدي على يدي والدتي ووجهها، ولكني لم أجرؤ. بقي غانز بالقرب مني في وضعه، يشبه وضع ضابط جمارك متشكك. صوت دراجة نارية عابرة. وبعيداً هناك، خليج البحيرة. حرق الجثة غداً صباحاً «La grebazion est temain matin»[25].

على طاولة السرير، لا تزال الزجاجات موجودة. على التوالي، وقد اصطفت مثل جيش صغير منتصر. إنه انتحار «Zé tun zuicite»[26].

لقد سبق وأخبرني على الهاتف وكذلك في وقت سابق في المطار. إنني ابن هذه المرأة. وإنني أعمل في عمارة. أساعد كبار السن، وأحياناً المرضى. وأود أيضاً أن يكون بوسعي إحياء الموتى. جلست على حافة السرير، وأخذت أمرر يدي على بشرتها الباردة مثل بشرة والدي. وعند ذاك، وبعيداً عن غانز، الشبح متناهي الصغر، تنسكب دموع بول هانسن الصغير على أكمام سترة أمه القطنية. مثقلة بطمي حياتنا كلها، قادمة عبر دروب الطفولة، عامرة بالحب المبدئي السليم، وتحمل أشياء كثيرة لن نمتلكها بعد الآن.

بقي غانز، الحارس السويسري الأبدي، مهراج التهريب، محتفظاً بوضعه. ثم تعود الدراجة، لتمر في الاتجاه الآخر.

تقع محرقة الجثث في المبنى نفسه في مركز الجنازة في سانت جورج في جنيف، شارع القلعة، حيث الأشجار الصمغية، والسلالم العريضة التي تؤدي إلى كتلة كبيرة من الخرسانة والزجاج، وعدد من الأبراج الصغيرة المجهضة من قممها، وأفران كبيرة من الطوب المبلطة بالخزف الأبيض. «لقد رفضت أمك القداس الديني». «Fodre mere a revuze le zervize te la relichion»[27] هكذا تكلم غانز بهذا الصوت الملعون - بفرنسية لا يجيد نطقها - الذي يشعر أنه ملزم دائماً بتدوين مسار الأدلة. أظن أن زوجة القس المقامر السابقة، آنا مارجريت، والدتي السفيرة السابقة سفيرة فيلم الحنجرة العميقة، والمبشرة بالقذارة، والملحدة منذ البداية، لن تتوسل للحصول على مسحة رعوية، قبل أن تشوى في

25- La grebazion est temain matin. حرق الجثة غداً صباحاً - م.

26- ç'est un suicide إنه انتحار - م.

27- الجملة الفرنسية التي لم يستطع نطقها بصورة صحيحة:
votre mère a refusé le service de la religion. - م.

مواقد نيران الغاز. فهي على غرار الساحرة ميديا[28] دخلت العالم السفلي، آثمة، تحمل معها كل نعمة العالم وجماله.

في رحلة العودة خففت النوم المتقطع من التعب. وعند الوصول، كانت الشمس تضفي جمالاً على مدينة دورفال، وبدت كندا مثل جزيرة مَيُورَقَة - أكبر جزر إسبانيا - وبدا مبنى الإكسلسيور مرتخياً على حافة المياه النقية. وعلى الرغم من أن الساعة كانت متأخرة، صعدت إلى السطح لفحص المراوح، لأتأكد من أن عالمي الصغير يتنفس بحرية، وأنه يستمر بالدوران في صمت هادئ، دون أدنى احتكاك.

28- ميديا: هي مسرحية درامية، تتألف من خمسة فصول لبيير كورني، مثلت للمرة الأولى عام 1635. وبالأصل هي ساحرة في الأساطير الإغريقية، وكانت ابنة أيتس ملك كولخيس، وقد رماها أبوها في السجن بعد أن خاف من سحرها، واستخدمت سحرها في الهرب من السجن، وذهبت إلى معبد هيليوس إله الشمس، وهو جدها كما يزعم. وقعت في حب جاسون زعيم الأرغونوت، الذي وصل إلى كولخيس في ذلك الوقت، وساعدته على الهرب، وعندما عادا إلى ثيساليا، خدعت عم جاسون المدعو بيلياس، وقتلته بعد أن وعدته بردّ شبابه - م.

طائرة وينونا البيفر

لم تخلف حوادث شعيرات باتريك أية عواقب. وأخيراً اختار الاحتفاظ بكل بصيلات الشعر التي جمعها ولفها بقطعة قماش سوداء، كالتي يرتديها أحياناً سجناء كاليفورنيا، الذين يواصلون الرياضة على مصاطب كمال الأجسام. هذااليوم، السجن في حالة استنفار. سيأتي أحد أعضاء وزارة العدل لزيارة مركز الاعتقال. وعند حضوره يجب أن تظل جميع أبواب الزنزانات مفتوحة، وأن يبقى السجناء داخلها. يزور ممثل الوزير كل جناح ويتحاور مع المعتقلين.

ويبدو أن الخبر قد أسعد باتريك. فمنذ وقت، أعد كراساً صغيراً من الشكاوى التي هو فقط من يعرف محتواها، حيث ينوي تقديمها لزائرنا، إذا توقف في زنزانتنا.

يبدو أن باتريك هورتون مثل الدب الكبير الذي يخرج من شتاء طويل، يستعيد كل نشاطه، ولا يشحذ هذا الاجتماع الوشيك، مع هذا العضو من جهاز الدولة، وهو ما يعادل له جرة عسل ضخمة، سوى شراهته.

طرق ريتشار سوريل بابنا بخجل، برفقة اثنين من أفراد الشرطة الملكية الكندية، دخل وقدم نفسه لي ولباتريك. كان ريتشار سوريل ينم عن وجه رجل طيب دون شك. ربما كان أيضاً آخر الأطفال، أو الطفل ما قبل الأخير من بين الأطفال القانونيين الاثني عشر أو الثلاثة عشر، الذين كان على والده أن يفترق عنهم على مر السنين، وكان من الواضح أن الآخرين قد سبقوه في وقت تناول الطعام. وهذا ما يفسر أنه حتى في سن البلوغ، استمر في ارتداء مثل هذا الهزال، حيث إن قميصه كان يعطي انطباعاً، أنه عائم مثل حبل

عوامة حول رقبته. كان باتريك يحدق في ريتشار سوريل، بخوف أمام مثل هذا الكائن الصغير، وبدا محبطاً لعدم قدرته على تأكيد حقوقه أمام زميل صلب من عالمه. عندما سأل نائب الوزير عما إذا كان لدينا أي ملاحظات يمكن تقديمها حول سجن بوردو، تولى باتريك هورتون الأمر بنفسه. «لقد كتبت لكم بعض الأشياء على هذه الورقة، ولكن قبل ذلك، سأوضح بداية هذه النقطة: أنا هنا على عكس الآخرين، من أجل لا شيء. أنا بريء. فكل ما اتهمت به كان كذباً وافتراء. أنا من جماعة هيلس، هذا صحيح، ولكن ليست لي علاقة سوى بالدراجات، أما المخدرات، فليس لدي أي إصبع فيها. ثم سأطرح عليك الآن سؤالين أو ثلاثة أسئلة. لا أعرف أين تسكن، ولكن هل يمكنك العيش هنا في هذا الصندوق الصغير، أربعاً وعشرين ساعة مع شخص لم تره من قبلُ قبل مجيئه إلى هنا؟ وتأكل وتنام معه كل ليلة؟ هل يمكنك التغوّط أمامه؟ لأن هذا ما يطلق عليه. ثلاثمئة يوم في السنة، هنا، نأكل الدجاج المسلوق مع أشياء، حتى أنك لا تعرف ما يوجد داخلها. ليس الطعام مروعاً فحسب، بل إنه خطير أيضاً. يمكنك أن تسأل الآخرين، وسيؤكدون لك ذلك. في الأسبوع الماضي، أصبنا بالإسهال جميعاً، كل السجن مرة واحدة، كنا نفرغ من الصباح إلى الليل بعضنا أمام بعض، ونلتهم حفنات من أقراص إيموديوم. وماذا عن الجرذان والفئران؟ هنا في السجن تعيش بشكل دائم، وتخربش طوال الليل. فيمنعك جحيم الإزعاج من النوم. وكان علينا أن نسد الفجوات بالحديد والمسامير. ونسيت التدفئة. لا أدري كم كان الطقس في عيد الميلاد في وزارتكم؟ ولكن هنا، في هذا الشتاء، كنا ننام ونحن نرتدي ملابسنا، ونلتف في بطانيات تنبعث منها رائحة الإطارات العتيقة. وأنا لم أتحدث عن الأمور الأخرى، كالمشي لمسافات قصيرة، والأنشطة الفاسدة، والحراس الذين يتعاملون معنا، وكأننا قرف. لذا، تصور كل هذا عندما تكون مثلي، فضلاً عن أنك بريء. إذا كنت تريد أن تعرف، كتبت لك اسمي على الورقة. هورتون. باتريك هورتون».

بدا نائب الوزير سوريل بحقيبة الظهر التي كان يلبسها، مع ملابسه المتكيفة مع شكل عظامه، وكأنه يخرج من مجففة ملابس. وكان ذلك ما

حدث له. فبكل بساطة كان قد التقى للتو بالرجل ونصف الرجل بأبهى حلته، مشاكساً ودقيقاً ووجيزاً. وكان يتطلب بعض الوقت ليسترد أنفاسه.

قبل مغادرته الزنزانة مع اثنين من رجال الدرك اللذين، كانا يزيدان من خلال مجرد وجودهما من ضيق مسكننا، مد ريتشار سوريل يده لي مليئة بشيء لا أعرفه، ثم توجه إلى باتريك. «شكرا لك على شجاعتك وصراحتك». ثم خرج الرجل الصغير النحيف من الباب مثلما دخل، سراً، بين اثنين من رجال الدرك.

في هذا المساء جاء كبير الحراس لزيارتنا، فقط لمعرفة ما إذا كان كل شيء قد سار على ما يرام مع ممثل الوزارة. «آمل أنك لم تخبره بكثير من الحماقات، يا هورتون». وبينما كان يعقد شبكة شعره على فروته، ابتسم باتريك. «أنا، أيها الرئيس؟ أبداً».

***

في بداية شهر يونيو – حزيران من هذا العام 1991، عقدت الجلسة السنوية العامة لمجلس إدارة مبنى الإكسلسيور برئاسة المالك نوئيل ألكسندر في صالة اجتماعات السكن. حضر هذا الاجتماع العدد الأكبر من الملاكين، حيث تقرر تحديد النفقات الأولوية للسنة المقبلة، والموافقة على حسابات السنة السابقة. كانت الأمور تجري بشكل أسري، وفي بعض الأحيان كانت هناك بعض الاحتكاكات، ولكن في نهاية النهايات، كانوا جميعاً يتجمعون حول كأس من النبيذ الفوار أو كأس من نبيذ شاردوناي.

حضر كيران ريد، الذي لم يكن في رحلة استثنائية في ذلك العام، الاحتفالات التشريعية، وحيا السكان الآخرين بابتسامة أو إيماءة من رأسه، لكنه لم يختلط معهم. أتذكر جيداً أننا في ذلك المساء، تحدثنا عن أحد أعماله التي قادته إلى بالتيمور من أجل حكاية دنيئة. لقد تعاون أربعة أطفال مع شركة التأمين من خلال الكشف عن أعمال والدهم المتوفى الشائنة، حيث تم تخفيض القسط الكبير جداً المدفوع لأمهم إلى نسب مخزية.. «كان عليّ تسجيل شهاداتهم، كانت هذه هي وظيفتي. لم أكن أعلم أبداً السبب الذي أدى بهم إلى تلويث سمعة والدهم، وإفقار أمهم إلى هذه الدرجة. قيل، فيما

بعد، إن شركات التأمين منحت كلاً منهم مكافأة امتناناً لجهودهم. من خلال ما رأيته، ليس هؤلاء بالأطفال، يا بول. لا بأس، لا تنخدع بهم. صدقني، في يوم من الأيام ينتهي بهم المطاف إلى التبول عليك».

كثيراً ما لاحظت أنه عند عودته من بعض مهامه الإنسانية التي تتسم بالصعوبة، كان ريد مثيراً للسخرية بنفسه وبزملائه الآخرين. كان يحبس نفسه في شقته أياماً عدة، وكأنه يطهر نفسه قبل استئناف مسار الحياة الطبيعية، إلى أن يحين موعد الدعوة القادمة من الشركة. «كما تعلم، إن (مخمن الخسائر) ليست مهنتي. في البداية كنت محامياً، وعملت بشكل رئيس مع النقابات. ثم مرضت والدتي. وبين العلاجات والعمليات، فقدت كل شيء لديها في ستة أشهر. لذا كان عليّ أن أدفع ثمن استمرار العلاج، وتكاليف الرعاية الصحية والاستشفاء طويل الأمد. وفي تلك اللحظة عُرِضت عليّ أول وظيفة لي. أتذكر ذلك جيداً. قصة غريبة. كان الضحية يقود سيارته البيك آب بسرعة 100 كم / ساعة على طريق ريفي. وفي منعطفه، خرج حصان من مكان ما تماماً أمام مقدمة السيارة. فصدم الحيوان الذي اجتاز الزجاج الأمامي وخرج من الزجاج الخلفي. من الصعب تصديق ذلك، لكن هذا ما حدث بالضبط. عندما وصل المسعفون، اكتشفوا أن السائق قد سحقه الحيوان بالكامل عندما اجتاز المقصورة. كانت تلك قصتي الأولى. وليس بعيداً من هنا في شمال ولاية نيويورك. تم التعاقد معي للتحقيق حول حياة رجل متوفى. وكما ترى، بفضل الخيول الطائشة والرجال سيئي الحظ تمكنت من منح والدتي حياة كريمة لمدة سبع أو ثماني سنوات أخرى. هل ما زال والداك على قيد الحياة يا بول؟».

في غضون أسبوعين أو نحو ذلك، ربما كنت قد أجبت بنعم. ولكن، اليوم، كلا، لقد توفيا. ولم يكن هناك سبب للتحقيق في أي شيء. لم يقابل أيّ منهما حصاناً في الطريق. ربما باستثناء أبي، بمنظاره وقبعته، في مضمار سباق المرحلة النهائية.

مع مرور الوقت، شعرت بقناعة عميقة أن ريد كان في كل سنة يشعر بانكسار العزيمة بشكل أكثر تحت وطأة القتلى، الذين كان عليه تفتيش جيوبهم. ولأنه في مركز سوء الحظ دوماً، وهو يواجه شركات التأمين الراغبة في القيام بأي

شيء للحد من خسائرها، والأسر التي تتوق إلى زيادة مكاسبها، والقضاة الذين لا يمكن التنبؤ بقراراتهم، والمحامين الذين يتشبثون بشراسة بحصصهم لقاء استشاراتهم، كان ريد متورطاً في هذا الطبق من الحساء البشري السام الذي كانت تغلي فيه أسوأ العيوب، وأرخص أنواع البشر. كانت مهمته هي تجنب اللجوء إلى المحاكم بأي ثمن كان، ولهذا، كان التحايل على والدي الضحية، والتفاوض معهما بين أربعة جدران، لإقناعهما أن الشركة كانت إلى جانبهما، وتتعاطف معهما في هذه الأوقات العصيبة، والوصول معهما إلى قناعة بقبول التعويض، ربما يكون أقل من توقعاتهما، ولكنه أصبح متاحاً الآن، وعلى الفور، وبالتالي تجنب إجراءات المحكمة المطولة غير المضمونة دائماً، بتحقيقاتها، وتحقيقاتها المضادة حول الحياة الخاصة وأجور المحاماة الباهظة. هذه هي الطريقة التي كان المخمن يقوم بها في التخمين إلى الأدنى، في جلسة حميمية في صالة الأسرة، يضعف فيها الناس البسطاء بسبب الحداد والقلق، بشأن ما قد يوجد في جيوب الأب أو خزائنه.

بعد وقت قصير من اجتماع مجلس الإدارة، رن جرس الباب: «هل لديك أي شيء خاص، يا بول؟ إذا وافقت، سأدعوك إلى تناول العشاء في المطعم. لقد كنت أقرأ ملفاً طوال اليوم، لم يعد بوسعي أن أتحمل، يكاد رأسي ينفجر من كل هذا القرف».

عندما اجتزنا أبواب مبنى الإكسلسيور، وذلك نحو الساعة الواحدة والنصف صباحاً، وهو يمسك بذراعي، كان كيران ريد يتكلم بأطراف شفتيه، ملقياً كل ما كان يرهقه، كل ما كان يلوث ذاكرته، مبدداً عاره وندمه على حيادية صالتنا المتألقة بالمرايا وأضواء الهالوجين. «في النهاية كل هذا لم يكن معقداً. على العكس تماماً. إن طريق العدالة يقود ويؤكد على عدم المساواة في الحياة بشكل عام حتى في موتنا. فبالنسبة إلى شركة التأمين، فإن وفاة رجل أعمال في نيويورك يعد شأناً قذراً، إذ إن التعويض الذي سيدفع للأسرة سوف يكون أعلى بعشرة أضعاف أو عشرين ضعف التعويض الذي ستدفعه لنظيره مربي الخيول المفقود في مدينة مونتانا. هناك خريطة سوء حظ، وكلنا يعلم هناك قائمة بمقاطعات، يعادل المتوفى فيها ذهباً. هل تعلم ما هو أسوأ سيناريو، يمكن أن تواجهه شركة التأمين التي

لم تتمكن من التوصل إلى اتفاق مع عائلة المتوفى والتي تجد نفسها أمام القاضي؟ أقول دون تردد: إن طفلاً قتلته الوسادة الهوائية في السيارة، أو رجلاً أبيض في الأربعين من العمر، حضرياً، صاحب عمل جيد، متزوجاً، ولديه طفلان، يحب عائلته ورعاية والديه المسنين. في كلتا الحالتين، يُعد ذلك مدمراً للشركة. عندما تبدو القضية سلسة للغاية، كما هو الحال بالنسبة للرجل الأبيض البالغ من العمر 40 عاماً، يُطلب مني التحقيق. حول صحته، على سبيل المثال. إنه أمر غريب، لكن صحة الشخص الميت يمكن أن تؤثر على مقدار التعويض. فالمدخن ينخفض تقييمه. ومن يعالج بعلاج ارتفاع ضغط الدم، ينخفض تقييمه كذلك. ومن كان مصاباً بفيروس نقص المناعة البشرية، وهنا، يتلاشى التعويض تماماً. تخيل أنه في موازين المهنة، وتلك الخاصة بهيئة المحلفين، فإن الضحية المجتمعية، التي كانت تخرج، وتقابل الأصدقاء، وتمارس الأنشطة الرياضية (نسمي هذا بالناس المغامرين) أغلى من الشخص المنعزل الذي يبقى في المنزل يقرأ أو يشاهد التلفزيون. في الواقع، كما ترى، إن أمريكا هي هذا المكان الرائع، هذه الأرض المحببة التي نحب أن يكون الموتى فيها رياضيين ونشطين، وقبل كل شيء بصحة جيدة. ناهيك عن مكافأة إضافية لأسرة هؤلاء المتوفين الذين مارسوا فضلاً عن ذلك ما نسميه بـ «الوفاء الجنسي الأسروي». يكفي أن تعلن أرملة أمام المحكمة أنها وجدت نفسها محرومة من «علاقات جنسية مُرضية ومتكررة» لكي تقوم هيئة المحلفين بتليين حزنها بمكافأة تتراوح بين 250 ألف إلى 300 ألف دولار. وهل تعرف أمراً آخر يا بول؟ يحدث في كل مرة شيء مدهش: فكلما كانت الأرملة أجمل، كان التعويض أعلى. وإذا كانت ربة منزل تتوفى في حادث، فعند ذلك تُعين خبيرة منزلية للتقييم، فضلاً عن قيمة الألم، تقيم البدل المفترض لتعويض مقدار الأعمال المنزلية والأسرية الذي قامت بها هذه المرأة في المنزل: الطبخ، التدبير المنزلي، التسوق، تربية الأطفال، المحاسبة المنزلية. كل ذلك يوزن ويقيم بسعر السوق وحسابه وفقا لـ «الخسائر الاقتصادية». ولكن اليوم، فإن طلبات تعويض الألم والمعاناة أو الخسارة العاطفية، عندما يتعلق الأمر بشركات كبيرة، تصل إلى مبالغ عالية غير مقبولة. ففي حالة حديثة من هذا النمط، قضية طلب كوالس، وأتذكر جيداً، أن مكتب

محاماة بوث وكوسكوف في لوس أنجلوس، وكيل المدعي، قد كسب 17.5 مليون دولار. ولكن قبل إنفاق مثل هذه المبالغ، تطلب منا الشركات دائماً أن نتجسس، ونتحرّى، ونتحقق من أن الرجل المتوفى لم يكن يعيش بصحة جيدة، وإنه قد يذهب إلى أماكن أخرى في بعض الأحيان. هكذا تسير الأمور، يا بول، هي هكذا بالضبط. أنا أقوم بعمل قذر، وبأساليب قذرة، ووسط أناس قذرين. عندما تموت، حتى لو كانت الأمور مختلفة قليلاً هنا في كندا، قد تعتمد قيمتك الحقيقية بعد الوفاة على الوكيل المحامي، واستقامة المخمن وماضيك، ومستقبلك الذي لن تحصل عليه أبداً، ولون بشرتك، وافتقارك للشراب، وكذلك قدراتك في الأمور الجنسية «مرضية ومتكررة». مرضية ومتكررة، يا بول، لا تنس هذا أبداً في حياتك».

سألت ريد لماذا لم يتخل بعد وفاة والدته عن كل هذه القصص؟ ويشطب هذا العالم، ليعود إلى وظيفته الأصلية؟ فأجاب إن الأوان قد فات، ولم تكن لديه الشجاعة للبدء من الصفر. كان يعلم أنه كان على المسار الخاطئ، لكنه سيتابع هذا الطريق حتى النهاية. في تلك الليلة، واجهت الكثير من المتاعب، لأجد سبيلاً إلى النوم. كان الخطأ يكمن في ريد، بأسراره التي جعلتني طبيعتها في بعض الأحيان أشعر بعدم الارتياح، وببعض قصصه التي كانت تدور في رأسي حتى بعد مغادرته لي. في تلك الليلة، كان هناك رجل وامرأة يسافران في سيارة بسرعة عالية. قدمت شاحنة نصف مقطورة من اليمين، وقطعت الطريق. لم يتداركهما الوقت للتقليل من السرعة، فماتا تحت عقبة القطر، التي قطعت الجزء العلوي من سيارتهما بأكمله. في نهاية المطاف، توقفت السيارة في منتصف الطريق لمسافة مئة متر. كان جسدا الرجل والمرأة يجلسان في وضع مستقيم، وهما مشدودان إلى مقاعدهما. وقد انشطرت جمجمة كل منهما إلى نصفين متماثلين، ولم يبق منهما سوى الفك الأسفل بأسنانه. وتناثرت الأجزاء العلوية من السيارة على الطريق، واختلط الشعر والمخ. كيف كانت حالة هذين القتيلين الصحية الحقيقية؟ هل كانا مواطنين مغامرين، يشعران بالرضا على نحو متكرر؟

***

هذا الصباح، من الأفضل البقاء بعيداً عن باتريك. فقد علم من محاميه

أنه يمكن للمحكمة أن تنظر في دراجته النارية كدليل في القضية التي تتعلق به. وهيمن موديل فات بوي، ذات محرك ميلووكي ثمانية 107، 6 سرعات، قيمتها 25000 دولار، 1745 سم مكعب، أي 14.32 دولاراً لكل سنتيمتر مكعب. وعلى جهازها اللوحي علامة «فات بوي». كان بودي لو أستطيع أن أقول للقاضي إنه لا ينبغي الاقتراب من الدراجة، فذلك ما يوقظ البركان حتماً، وإن الرجل ونصف الرجل سيتحول فجأة إلى أكثر من رجلين. كان بودي لو أستطيع أن أقول للقاضي إنه مهما فعل باتريك، مهما كانت الجناية التي ارتكبها، يجب الحفاظ على دراجته النارية في المكان الذي أوقفها فيه، وألّا يضع اليد عليها، وليترك الدراجة «فات بوي» نائمة تحت غطائها، في مأمن من الزمن وعدالة الرجال. إذا كان أي شيء يمكن أن ينقذ باتريك هورتون، فقد كانت دراجته والسنتيمترات المكعبة بقيمة 14.32 دولاراً لكل سنتيمتر مكعب. وإن مصادرة الدراجة كانت تؤدي إلى نزاع، ويعني إعلان الحرب على هورتون، والمجازفة بنزع كل ما تبقى في داخله من إنسانية. وخلق منه موريس «موم» باوتشر جديد، الزعيم السابق لعصابة «هيلس»، الذي حكم عليه بالسجن مدى الحياة بتهمة قتل اثنين من حراس السجن[29].

كل صباح، كان هورتون يتمتم: «إن من يضع يده على الدراجة النارية، سيكون مصيره الموت، تباً، اقطعه إلى نصفين. وعد من هيلس سأنتزع عظامه». لم يكن يتحدث إلى أحد على وجه الخصوص، كان يتمشى ويستشيط غضباً مثل حيوان متوحش فلتت منه فريسته. وفي نحو منتصف النهار، بعد أن كان هياجه ملفتاً، ذهب اثنان من الحراس لمقابلته في الممر، وتحدثا معه بعض الوقت. وبعد ساعتين، اقتيد إلى مكتب مدير السجن.

لم يكن إيمانويل سوفاج أسوأ من أي رجل آخر. فلقد كان وبكل بساطة يؤدي عملاً قذراً وسط قِلة من الأشخاص القذرين الذين اضطلع معظمهم

29- موريس «موم» باوتشر (ولد في 21 يونيو- حزيران عام 1953 في كوزابسكال، كيبيك) زعيم عصابة (هيلس آنجل) فرع كيبيك - ملائكة الجحيم -، وهم مجموعة من سائقي الدراجات النارية المجرمين. نال شهرة في كيبيك خلال تسعينيات القرن العشرين، ألقي به في السجن بعد الكشف عن بعض أنشطته الإجرامية (قتل 13 شخصاً) وهو يقضي عقوبة السجن المؤبد منذ عام 2002. - م.

بحياة قذرة إلى هذا الحد. يدير هذه المؤسسة سيئة السمعة بما تمنحه له الوزارة لتوفير الإقامة والسكن لساكنيها. ويزورنا بين حين وآخر، ويستخدم في مخاطبتنا نبرة مألوفة، ولا يظهر شدة مفرطة، أو يفيض تعاطفاً تجاهنا. وهذا كل ما أستطيع أن أقوله عن هذا الرجل الذي استغرق ما يقارب الساعتين في استدعاء «هورتون» لمكتبه، بمجرد أن تناهى إلى سمعه أن هذا الرجل الماكر، كان يريد تقسيم الجانب الشرقي من سكان هذه المدينة إلى قسمين.

في منتصف فترة ما بعد الظهر، رأيت (هورتون) يعود، يتهادى في مشيته الخاصة التي يتخذها عندما يكون في مزاج رائق وسعيد، لأنه على قيد الحياة. وعندها يبدو وكأنه يرتدي أحذية مركبة على نوابض، مما تمنحه اندفاعاً أفقياً غريباً في كل خطوة. وبوجهه المشع، يلوح بيده ليحيي الرجال الذين يصادفونه في طريقه مثل سيناتور شاب في الريف. عند ما دخل الزنزانة، لم يلق نظرة عليّ، وإنما اتجه إلى صورة الدراجة «فات بوي»، وقبّلها كما لو كان طفلاً عائداً من الحرب. «هو قوي جداً، سوفاج هذا، قوي جداً هذا الرجل. هل تصدق ذلك؟ دعاني إلى الصعود إلى مكتبه، وسألني عن هذه الفوضى التي أحدثتها في السجن، شرحت له الأمر في خمس دقائق، وهو يهز رأسه ثم قال لي: «انتظر في الممر، سأدعو رئيس القلم». وبعد خمس دقائق، بل أقل من خمس دقائق، قال لي: «وهو كذلك، لقد حسم الأمر، تبقى الدراجة «فات بوي» في حوزتك. لم يفهم محاميك أي شيء. وعليه لم تعد تخيفنا الآن». وعند ذاك، بدلاً من يرميني في الخارج، دعاني إلى الجلوس، أجل؛ سوفاج، دعاني إلى الجلوس وأنت تعرف لماذا؟ تحدث معي عن كل شيء عن دراجتي، فشعرت أن الرجل يبدو متخصصاً. سألني أسئلة عن الـ (فات بوي) لن تخطر ببال رجل يقود سيارة أودي Audi. وهنا، فجأة، خفف عني الأمر وقال لي: إن لديه أيضاً دراجة من نوع «هارلي، سوفتاي سلم»، لم يسبق لك أن سمعت بها، لكنها دراجة مارقة بالفعل، ذات محرك رائع مركب على إطارات مجنونة قياس 16/90/140. هذا لا يعنيك بشيء، هل تصدق إن المدير سوفاج نفسه، يلف بها في سوفتاي؟ تباً، عندما قال لي: «إن دراجتي قد حسم أمرها. وعند ذاك، بعد حكايته عن الدراجة» سلم وإطاراتها، كل

ذلك كان مجرد مكافأة. هل بوسعك أن تصدق الحكاية؟ الرئيس في شركة هارلي؟ معذرة يا بني، إذا لم يزعجك ذلك، سأستخرج لك واحدة بسرعة، لقد سببت لي كل هذه المشاعر ألماً فظيعاً في بطني. وبعد ذلك، إذا أردت، وأعتقد أن هذه المرة سيكون الأمر على ما يرام، بإمكانك حلاقة شعري».

هناك إله من آلهة راكبي الدراجة النارية، وهذا أمر لا شك فيه، رجل يركب ربما دراجة نارية من نوع هارلي «التراث الكلاسيكي» ومقامر بما فيه الكفاية للتواصل مع الرجل المهيمن على السجن، ومدربه المعين بالأفكار المشتركة ذاتها.

الليل هادئ. وقد خفت حدة التوتر المتراكم خلال النهار. في مساحة صغيرة مثل مساحتنا، يتدهور الغلاف الجوي بسرعة كبيرة في اتصاله مع مزاجنا السلبي وانفعالاتنا. وكما هو الحال في اقتراب العاصفة الرعدية، فإن الهواء مشحون بأيونات إيجابية حتى إننا لا نستطيع التنفس بسببها. ولكن مرة أخرى، غطى روتين حياتنا على كل شيء، ونام جاري مثل طفل أعيدت له لعبته. نام السجن، الحراس والسجناء نائمون، ولم يبق سواي مستيقظاً مع وينونا ونوك والقس إلى جانبي. انتظرتهم الزمن الذي استغرقه الانتظار. والآن هم هنا. عيناي مفتوحتان على وسعيهما. لدي الكثير لأقوله. صحبتهم هي، وستظل، كل ما تبقي لي.

***

كما سبق لي أن دونت، تم سجني في سجن بوردو، الواقع في شارع غوين، على ضفاف نهر دي بريري، تقريباً في نطاق إهانات مسكني، في مبنى الإكسلسيور. وكما لو أن القدر أراد أن يعينني على الإقامة في هذا الحي، فقد جعلني أقابل وينونا، التي لا تزال في الشارع ذاته، على امتداد هذا النهر الذي يستخدم بمنزلة قاعدة مائية لبعض الطائرات الصغيرة المثبتة على العوامات والتي كانت تؤمّن، وفق الطلب، نقل الطرود البريدية والركاب، من بحيرة إلى أخرى، داخل دائرة نصف قطرها 300 كيلومتر من مونتريال. كانت الشركة الصغيرة جداً التي عملت لصالحها وينونا ماباشي تسمى بيف أير Beav'Air، وهو اسم تورية للطائرات الثلاث التي تستخدمها

شركة: Beaver DHC2 التي أنشأها دو هافيلاند، وهي طائرات صغيرة ذات محرك واحد غير قابلة للتدمير، والتي منذ 16 أغسطس - آب 1947، وهو اليوم الذي انطلقت فيه الرحلة الأولى، كانت تحلق في سماوات العالم، وتظهر أنها قادرة على التكيف مع الطبيعة من خلال العوامات والإطارات والمزالج، وفقاً لتقلبات التربة والمواسم.

في صباح هذا اليوم من شهر مايو - أيار1995، سألني نوئيل ألكسندر، رئيس وزراء عمارتنا، عما إذا كان لدي الوقت للذهاب شمال المدينة، إلى غوين إيست، غير البعيدة عن جزيرة بارك سانت جوزيف لمقابلة صديق، كان سيهبط على القاعدة المائية ظهراً.

لم يمتلك الموقع أي شيء من السحر، لكنه يتوافق مع معايير الخدمات الريفية التي تقدمها الشركة وأنواعها: خليج في مجرى النهر، منزل خشبي صغير لإيواء تحرير الشكليات، وجسور عائمة لتسهيل نزول الركاب وضمان إرساء الطائرات.

ظهرت الطائرة من الشمال بضجيج محركها المميز الذي صممته شركة برات أند ويتني. وهي تخفض من ارتفاعها تدريجياً، تخطت القاعدة المائية، واتجهت جنوباً، ثم تحولت 180 درجة لتبدو في تماس مع الماء، فأرست عواماتها، وانسابت نحو الشاطئ كطائر من ذوات الأكف الكبيرة يستريح فوق الماء. كان على متن الطائرة، ثلاثة ركاب، بما في ذلك صديق ألكسندر، السيد نوفا، وحقائب سفره الثلاث، وكلبه المغطى بالوحل، وقصبة صنارة الصيد. وبينما كنت أحاول إخراج كل هذه المواد من المقصورة، قال لي أحدهم: «لا يمكنك أن تفعل ذلك على هذا النحو». كانت وينونا ماباشي، قائد الطائرة، هي التي تولت كل الأغراض وجمعتها في ترتيب مثالي على شاطئ النهر. وكنت أشاهدها تتحقق من نقاط إرساء الطائرة المائية، وتفتح فتحة جانبية، فتجمع الخرائط، وتتناول حقيبة جلدية، ثم تبتعد ببدلتها الزرقاء الداكنة باتجاه الكابينة التي كانت بمنزلة مقر، ومكتب توقف، وصالة تسجيل الوصول، وصالة للصعود والمطعم، الذي يوزع الحلوى المجففة والفطائر المسلفنة.

«هل أنت بخير؟ هل الكلب على ما يرام؟ حقائبك موجودة. كل شيء جاهز، يمكنك أن تذهب». كل ذلك في أقل من 15 ثانية. وعلى العموم، لا يستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن تخمن، في علاقة ما، نوع المرأة التي تتعامل معها. وفي هذه الحالة، ومنذ الثواني الأولى، فهمت أن وينونا ماباشي، غونكينية الأب، وإيرلندية الأم، تنتمي إلى فئة ممن يعيشون مدركين، وفي كل ثانية، أن هذه الحياة أقصر وأثمن من أن نقبل إبطاء وتيرتها في مسارات الانتظار، التي تعصف بها المشكلات الثانوية.

لقد أراد المنطق أن تبقى علاقتنا قائمة، في مرحلة الهبوط السريع المدهش للطائرة بيفر، على حافة نهر بريري، شارع غوين. بيد أن الحياة، بمقامراتها العشوائية، تمتلك الأحابيل للتقريب بين الكائنات التي قررت خسرانها. وفي هذه الحالة، كان استرخاء الصديق في عيد ميلاد ألكسندر في لهوه، هو الذي قادني في منعطف مذهل إلى تلك التي أصبحت زوجتي. كان الأمر سخيفاً: لقد نسي نوفا هوياته جميعها، ووسائل دفعه وجواز سفره في حقيبة، تركها داخل كوخ الصيد الخاص به، على بعد ساعتين من هنا باتجاه الشمال، على بحيرة ساكاكومي، بالقرب من سانت - الكسي دي مون. ولأن ألم الظهر الحاد قد شله، فقد كان غير قادر على العودة على متن الطائرة لاستعادة ممتلكاته، أهاب بي ألكسندر عما إذا كان بوسعي أن أتمكن من تمثيل دور الحمام الزاجل، والذهاب إلى بلدة ماسكينون جيه، لجلب ما يجب جلبه.

تحققت وينونا من ربط أحزمتي، وبدأت في تشغيل المحرك، وأدارت بعض المفاتيح الكهربائية، وابتعدنا ببطء عن الشاطئ، حتى استقرت الطائرة في منتصف النهر. إن ما تلا ذلك لا يشبه أي شيء مما كنت أعرفه. أسندت الطائرة سيقانها على سطح الماء، مثل الإوزة البرية التي تطير بعيداً، ومن ثم بعد أن كانت تزيد من سرعتها شيئاً فشيئاً، أقلعت برفق عن التيار لترتفع في السماء، يحملها هدير الاهتزازات الاعتيادي، التي كنا نسمع عنها في خمسينيات القرن الماضي. كانت وينونا تحلق في الأفق في هذا الجو من الربيع، وتثب بين لحظة وأخرى بسبب المطبات غير المرئية. لقد نقشت في ذاكرتها رسوم خرائط هذه المنطقة كلها، وعلى غرار أسراب كبيرة من الإوز القطبي في هجرتها، كانت وينونا تتوجه وفقاً لغريزتها التي كانت تدفعها

دائماً إلى حيث كان عليها أن تمضي. وفجأة، لاحت البحيرة مثل ممثل يدخل المشهد. فناورت بمقترباتها المعتادة بين الجزر التي كانت تحلق فوقها، وتواءمت حول وسط منارة وهمية، فلامست المياه أطراف ساقيها، ثم انسابت برفق نحو الشاطئ. وعندما أوقف المحرك ضجيجه، سمعنا هدير اندفاع الماء، وهو يوشوش على جوانب العوامات.

وبدأ الجسر العائم المتحرك، وكوخ الصيد، وحقيبة نوفا، والآلاف من كنوزه، وأصوات الغابة، وتحليق الطيور، والشعور أنك في المكان الصحيح، وفي الوقت المناسب، ونظرة وينونا التي تقول إنه آن الأوان، فتدس يديها في جيوبي، فتلامسه بأصابعها، بينما تتشبث أصابعي بالمعجزة، وبدأ حك الملابس، وفرك الأجساد، وانهيار البشرة، حتى أصبح العالم صغيراً جداً، العالم بكل مافيه، بمسابحه المتعفنة وطرائقه في الدفع، عالم السويسريين وعالم الدانماركيين، كل هذا العالم الذي كنت أتفحص أبراج استخلاص روائحه كل يوم، كل ذلك اختفى طالما في داخلنا ضوء يستمر، وفي داخلنا هذه الومضة الخاطفة التي تضيء الحياة مثل شعلة استغاثة.

كانت لدى وينونا طريقة مباشرة للغاية للنظر في الأشياء والتعامل معها. بعد أن لبست بدلتها وأشعلت سيجارة، قالت لي: «عندما رأيتك تعود إلى الطائرة المائية هذا الصباح، فكرت على الفور: بأنني سأنهي حياتي مع هذا الرجل. الآن دعنا نصعد. وأغلق الباب بإحكام ولا تنس الحقيبة».

قادت وينونا الطائرة على سطح الماء، وحاذت الجزر في مسيرها مثل مجدف على زورقه، وبعثرت تجمعاً صغيراً من ثعالب الماء، وأزعجت بعض الطيور المهاجرة المتعبة، ثم وجهت مقدمتها نحو الجنوب، وضغطت تياراً من الوقود في مرشات كتلة المحرك طراز ويسب جينيور R985، المكون من 9 أسطوانات نجمية بقوة 450 حصاناً، تعمل على تدوير المروحة ذات الريشتين من صنع شركة هاميلتون ستاندرد، والتي تتميز بمقاومتها للهواء، لتعيدنا ثانية إلى مونتريال، بينما الحقيبة في يدي، وقلبانا محزمان بحزام الأمان.

خلال السنوات الإحدى عشرة التي استمر فيها زواجنا المدهش، لا

أعتقد أنني توقفت عن حب وينونا ماباشي، حتى وأنا أتنفس. منذ ذلك اليوم على ضفاف البحيرة، أصبحت جزءاً من جسدي، أحملها في داخلي، تعيش، وتفكر، تتحرك في قلبي، ولم يغير موتها أي شيء.

بعد بضعة أسابيع، ذهبت لزيارة نوئيل ألكسندر، لأخبره أنه غير مسار حياتي مرتين. من خلال تكليفي بالمسؤولية في حراسة هذا المبنى الذي يشبه الباخرة، أولاً وقبل كل شيء؛ وبعد ذلك من خلال منحي نوعاً من رحلة تشبه شهر العسل، على متن الطائرة بيفر عند شاطئ بحيرة ساكاكومي. «هل أنت متزوج، يا بول؟» «كنت». وأخيراً، كان كل شيء يتوقف على وجهة النظر التي من خلالها يُعد زواجنا إدارياً، ولا شك في أن جلالة الملك في لندن ونظيره الباريسي سيعدانا مجرد concubini، وهو اسم لاتيني يمكن ترجمته على أنه «رفقاء سرير»، وهو في حد ذاته لم يكن شائناً أو زائفاً تماماً. ولكن إذا كنا نضع أنفسنا تحت رعاية رئيس ألغونكوينتيسوات من قبيلة كيتشيسيبيريني، فلا شك أنه على الرغم من موته منذ عام 1636، فإن حكيم الأمة الهندية العظيم سيعلننا، أنا ووينونا، زوجاً وزوجة. هذا هو بالضبط ما أوضحته لي محظيتي، عندما سألتها، بعد مرور بعض الوقت من الحياة المشتركة، عما إذا كانت تتمنى أن نتزوج: «لكننا بالفعل متزوجان. في قبائل ألغونكوين، لا وجود لعقد أو قسم مقدس. نحن نعيش معاً ومن أجلنا فقط، وعندما لا نكون راضين عن أننا معاً، سننفصل». هذه هي الطريقة التي أعيد بها إرسال ملكة إنجلترا و«قانونها العرفي العام» مرة أخرى إلى الأراضي الرطبة في جزيرتهم بأربعة أحكام مقتضبة.

من وجهة نظري كانت وينونا تمثل الخلاصة الهائلة لعالمين قديمين. كانت تمتلك من أمها الإيرلندية، هذه القوة لجعل الأرض مساوية للحياة، من خلال إزالة العقبات كما لو كانت تقوم بذلك بيديها في كل يوم. مرحة، سعيدة، مخلصة دون كلل، ولديها أيضا عدم الثقة الوراثي بالرجل الإنجليزي. من جانبها بوصفها أحد أبناء البلاد الأصليين، امتلكت هذه القدرة على الاندماج في العالم غير المادي، لتصبح واحدة منه، من خلال قراءة رسائل الرياح، وستائر المطر، والاستماع إلى صرير الأشجار. لقد ترعرعت في رواق الأساطير، وبهذه القصص التنويرية التي كانت تعيد

تشكيل أصل الزمن، والتي تقول إن الذئاب علمت الرجال الكلام، وعلّمتهم ممارسة الحب، والاحترام المتبادل، وفن العيش في المجتمع. وكذلك الدببة. والوعول. كان أسلافنا كالنسور، وأشجار الغابة، وعشب البراري. كنا جميعاً نأكل هذه الأرض نفسها، وعندما تحين الساعة، ستأكلنا هي أيضاً. في الواقع، فضلاً عن بعض رقائق دماغها الغونكوينية العميقة، كانت وينونا أيضاً امرأة براغماتية، تعيش في جوف الطائرات، متلمسة أجنحتها التي كان يجب فحص هيكلها في كل يوم.

عندما كنت ألقي نظرة على صورة زوجتي كل صباح، لا أعرف أبداً ما إذا كنت أحب فتاة إيرلندية من غالواي أو زوجة - من هنود أمريكا الشمالية - من مانيواكي. يمكن أن تتغير ملامحها مثل أضواء سكاجين الرائعة، على مدار الساعة، ويطغى أحد أصولها على الآخر. عندما تستيقظ، يحيل شعرها النحاسي، وعيناها المملوءتان بالشفافية تلقائياً إلى خلفية الغاليين. ولكن في ساعات المساء، تكشفت الأضواء المملة عن بصمة الهنود على بشرتها، وملامح وجهها، وصلابة نظرتها. كنت أستمتع بهذا التناقض، وأنا أعيش سراً مع امرأتين في الوقت ذاته، وأواسي نفسي مع واحدة عندما تظهر لي الثانية الفتور. كلا، لا توجد ثانية البتة، لم أتوقف أبداً عن حب وينونا ماباشي.

كانت حياتي في المبنى في ذلك الوقت غير مستقرة، عندما قررت الانتقال إلى شقتي الصغيرة. من المؤكد أننا كنا نفتقر إلى المكان، ولكن هذا القرب لا يسفر إلا عن تقاربنا فيما بيننا بشكل أكثر. عندما أذهب في الصباح الباكر، أصبح من الصعب بالطبع فحص الشعب الهوائية لمبنى الإكسلسيور، والعودة في وقت متأخر، فبعد آخر لمسة على أعمالي الخدمية في المساء، والتي غالباً ما كانت يبدو لي عقيمة. من الصعب جداً الاهتمام بمبنى وامرأة في ذات الوقت، ومعاملة عشرين أرملة كل واحدة تتملق أن تكون زوجة. كانت ساعات عمل وينونا تتباين وفق فصول السنة، كما هو الحال في مونتريال، فإن أرضي هبوط الطائرة يمكن أن تتغير أسبابها فكانت تهبط على عواماتها، أو عجلاتها، أو على زلاجاتها في الشتاء. كنا زوجين في أيام من الاسترخاء تمتد أحياناً إلى أبعد مما كنا نود. ولكن كما علمني كيران ريد ونصحني، كنت أبذل قصارى جهدي للتأكيد على أنه في يوم جنازتي، يمكن

لـ وينونا، أن تؤكد لشركة التأمين وأمام شهود، أننا عشنا حياة من «الوفاء الجنسي العائلي»، وأنها لم تشهد سوى «العلاقات المرضية والمتكررة».

خلال السنوات الأولى من زواجنا بدأت الأمور تتغير في مبنى الإكسلسيور. فقد شاخ سكانه. وكان المتقاعدون يدنون الآن من المرحلة الأخيرة من حياتهم. كانوا يفقدون مجموعة كاملة من الأشياء الصغيرة، وينسون مفاتيحهم، وأشياءهم بجانب المسبح، وكانوا قلقين بشأن التفاصيل غير المهمة، ويتصلون بي ليلاً أحياناً، وهم يعتقدون أنهم يسمعون أصواتاً غريبة في قنوات التهوية. كانوا يكبرون. لم يدركهم الموت جميعاً، ولكنهم كانوا كلهم بالغيه.

كان مبني الإكسلسيور يتقدم ببطء ليدخل في عصر مظلم. ففي عام 1997، قبل عيد الميلاد مباشرة، رأيت سورايا إنجلبرخت، وهي مالكة مسنة تعيش في الطابق الخامس، تدخل في الرواق نحو الساعة العاشرة مساءً في ثوب النوم، وتجلس على كرسي بذراعين في صالة الاستقبال. كان الجو خارج المبنى بارداً، يجمد ندائف الثلج عندما تتساقط. وكنت على وشك أن أنتهي من نصب زينة وأضواء الاحتفال في نهاية العام، وهو تقليد قائم، كان المالكون يتمسكون به. تركت عملي وذهبت إلى السيدة العجوز. نظرت إليّ بلطف ورقة، لكنني فهمت أنها لم تتعرف عليّ. وضعت سترتي على كتفيها. «هذا أنا، بول. سأساعدك على العودة إلى المنزل. لا يمكنك البقاء هنا، ستصابين بالبرد. هيا، سأصحبك، سنذهب معاً». كان باب الشقة مغلقاً، ففتحته بمفتاحي الذي يفتح كل الأبواب. نظرت إلي السيدة إنجلبرخت كما لو كنت ساحراً، ثم فجأة تعرفت عليّ، وشكرتني واعتذرت لي. «أنا آسفة، يا بول. أنا آسفة لكل هذا. أنا متعبة الآن». تقدمنا بضع خطوات كانت تفصلها عن فراشها، فاستلقت وأغمضت عينيها على الفور. أعدت عليها الغطاء، وأطفأت النور، وبقيت معها للحظة في الظلام.

كانت سورايا إنجلبرخت تقول إنها لم تعد لديها عائلة، وأنا لا أعرف لمن أقول ليأتي لمساعدتها. بعد أسبوع، والليل لا يزال في بدايته، وبينما كنت أنتظر وينونا من خلال النظر عبر النافذة الزجاجية، رأيت السيدة العجوز تعبر الشارع، حافية القدمين، ترتدي فستاناً خفيفاً، وتجلس على مقعد الباص.

كان الجو في درجة أقل من عشر درجات تحت الصفر، وكانت الأرض متجمدة. وما أن لمحتني، حتى بذلت جهداً لتنهض ومدت يدها لي. «إنه أمر فظيع، يا بول، أعتقد أن وليام مات. أعتقد أن زوجي مات للتو». أخذت السيدة إنجلبرخت بين ذراعي، وحملتها إلى مدخل مبنى الإكسلسيور. كانت خفيفة مثل طفلة. قدتها إلى شقتها، وبقيت معها حتى غفت. كانت أرملة لمدة عشر سنوات. وكان زوجها يسمى فريدريك إدوارد.

لقد نبهت هذه الواقعة المؤلمة إلى عدد من الأحداث الأخرى. وعلى مدى السنوات القليلة المقبلة، حظيت هذه المهمة الجديدة في الرعاية الحياتية بالأسبقية تدريجياً على أنشطتي في الصيانة المنزلية. وبعد أن أبلغت نوئيل ألكسندر بحالة السيدة إنجلبرخت، اتصل بمكتب الرعاية الاجتماعية الذي وضع سورايا، وبناء على نصيحة طبية، في مؤسسة متخصصة. لقد جهزتها ببعض الأشياء حتى لا ينقصها أي شيء في منزلها الجديد، وفي لحظة مغادرتها، طلبت مني وعداً أن آتي من وقت لآخر إلى منزلها لسقاية نباتاتها. عندما جاء الطاقم الطبي لإحضارها، رافقتها إلى سيارة الإسعاف. ثم عدت إلى الشقة، وأغلقت ما كان من المفترض أن أغلقه، وأغلق الباب على كل ما كان له علاقة بحياتها.

لحسن الحظ، وجدت وينونا في المساء. أنيقة في يومها، مليئة بالأيونات السالبة، وبهذه الأنيونات التي تغسل الروح[30]، متناغمة بهذا الجمال المتراكم، وهذه المناظر الطبيعية الخالدة التي تعود إلى مئة مكان من الشيخوخة وملاجئ العجائز، وإلى ألف مكان من عالمي الصغير المكون من ستة طوابق، آيلة إلى التدهور. في لغة أجدادها، تعني وينونا Winona «الابنة البكر». وبالنسبة لي أكثر من ذلك، كانت وينونا بالأخص الفريدة من نوعها.

تبقى نهاية التسعينيات هذه في ذاكرتي كفترة خروج جماعي، ومغادرة للعديد من المالكين، خمسة عشر على الأقل، الذين لم يعد لديهم ما يكفي

30- الأيون: هو ذرة أو جزيء يحمل شحنة كهربائية، وتسمى الأيونات سالبة الشحنة أنيونات، ويتكون الأنيون عندما تكتسب الذرة إلكتروناً. بذلك يصبح للذرة شحنة زائدة من الإلكترونات، فتكون سالبة الشحنة – م.

من الموارد المادية أو المعنوية لتحمل وحدتهم، على الرغم من الرعاية التي تحظى بها المرجة الخضراء، والأشجار، ودفء مياه الحوض ورقته، وكفاءة جميع الآلات، وجاهزية المستخدم الذي يؤدي المهام كلها.

غالباً ما كنت أتسوق لأحدهم، وأزور الصيدلية من أجل الآخر، كل ذلك وأنا أسهر على مربعي الأخير من أرامل، متشبثات بالحياة بأطراف أظافرهن المطلية. كنت أعرف أن كل شيء سينهار بين عشية وضحاها، ولكن عندما كانت أحواض المطابخ تعاني من التسرب، أو أنها كانت تتطلب تغيير غطاء الشفاط، كنت أصعد إلى الطابق الرابع للقيام بالعمل، وطمأنتهن، وأخبرهن أنني قريب من هنا. بعد كل هذا الوقت الذي قضيته في هذا المنزل الكبير، كنت أدرك أنني أهتم بكل هؤلاء الناس، وبطريقة خاصة، كنت أحبهم.



تماماً قبل الظلمات

لم يكن باتريك هورتون كما عهدته منذ مقابلته مع المدير. يبدو أنه أكثر اهتماماً بشؤون العالم الذي يحيط به، وخاصة هذا الصباح، بالطريقة التي اتفقت بها البنوك على تخريب مستقبلنا. «اللعنة، هل رأيت ذلك؟ أزمة الرهون العقارية المستمرة. لقد قاموا للتو بتقييم أولي لما يكلفه هذا الهراء. هل تعرف كم شفط المتقاعدون الأمريكيون، من خلال معاشاتهم التقاعدية؟ تفضل قل، لنرى. هيا، قل رقماً، تباً. أنت بعيد كل البعد عن الحساب يا صديقي. 2000 مليار دولار. حتى إنني لا أعرف كم عدد الأصفار التي ينبغي حذفها بالضبط بعد الرقم اثنين. 2000 مليار، وهذا فقط فيما يتعلق بالولايات المتحدة. هل يمكنك أن تتخيله في العالم؟ دون مزاح. وأنت تصفع ابن عاهرة، وهو يستحق ذلك بالفعل، وتذهب مباشرة إلى حفرة لمدة عامين. والآخرون، يبتزون أموالك في كازينو القمار، ويطرحون خصومهم أرضاً، وينسحبون بهدوء إلى أكابولكو المشهورة بحياتها الليلية على ساحل المحيط الهادئ في المكسيك، وفيها يستنشقون جرعات من الكوكائين. لقد حصلت والدتي على أموال في هذه الحانة الصاخبة، ليس كثيراً، ولكن كان عليها أن تحسب حسابها. فلقد أخبرها صاحب البنك أن كل شيء ذهب في عملية غسيل الأموال. إن جميعهم كانوا يمرون من هنا على مدى الأيام، ولا يتوقفون لتكرار الشيء ذاته. في عملية غسيل الأموال. هل لديك أشياء لغسلها؟».

لا شيء، يا باتريك. لم أقم أبداً بوضع دولار واحد في ماكينات القمار هذه. عشنا أنا ووينونا من أجل يومنا. كنا نحن من يعمل، وليس مالنا. وما لم ننفقه كان نائماً نوم الصالحين في بنك مونتريال في شارع سانت جاك.

«هل بوسعك أن تحسب كم تقدر ثروة هارلي، 2000 مليار، إذا حددت لك السعر الدقيق للدراجة الواحدة ماركة فات بوي؟». على الرغم من اهتمامه الجديد بالكون الذي قرر أن يصبح جزءاً منه، إلا أن هناك لحظة تحدث لدى باتريك، حيث ينتهي فيها الخيال من خلال تدارك الواقع وزعزعة حقيقته. «فيما يتعلق بالأمور الحسابية، وعملياتها، وكل ذلك، أعتقد أنه يمكنني أن أتدبر الأمر، ولكن مع الأصفار، فمن المؤكد، أن الأمر يختلط علي ويربكني». أما بالنسبة لباتريك، فإن العالم بأزماته وتعاساته، كان يفهمه ويفسره، ويستنبط معاييره، اعتباراً من القيمة المرجعية المستقرة الوحيدة على الأرض، هارلي «فات بوي».

«تعرف، عندما أقرأ أشياء من هذا القبيل، عن قصص البنوك والفوضى المحيطة بها، غالباً ما أقول لنفسي إن هناك أشياء كثيرة لا أفهمها في كل هذه الأدوات الاقتصادية والسياسة، ولا فائدة من الإلحاح على ذلك، لقد فات الأوان. في أحيان أخرى، يكون العكس هو الصحيح، أحاول الإصرار، وأقول في نفسي إنه كلما عرفت أكثر، قلما يستطيعون العمل على إعادتي إلى الخلف، لاعتماد أموالي أو استثمارها. من ناحية أخرى، في الوقت الراهن المشكلة محلولة، ليس لدي مال».

***

في نهاية صيف 1999 أُستدعيت إلى حافة مسبح مبنى الإكسلسيور. كان نوئيل ألكسندر قد شعر بوعكة للتو. كان مستلقياً على الأرض، وبدت عيناه تبحثان عن وجه، في محاولة لإيجاد نقطة ملفتة يحدق فيها. أخذت يده في يدي، وقلت له كل الأشياء عديمة الفائدة التي تتبادر إلى الذهن عندما يفاجئك سوء الحظ، وأنت في خضم العمل في أثناء بحثك عن طرف تعشيق المفتاح بالسقاطة.

ذهبت معه في سيارة الإسعاف، ولم أترك يده التي كان يمدها لي مرات عديدة.

لم أعد إلى المبنى حتى حلول الليل. لم يبق أحد بجانب المسبح، باب الغرفة التقنية كان لا يزال مفتوحاً، وطرف المفتاح لا يزال ينتظر التعشيق بالسقاطة.

كانت وينونا قد عادت إلى الشقة. مستلقية على الأريكة وبجانبها، تنام كلبة صغيرة ذات شعر أبيض مكورة نفسها على شكل كرة. «لقد وجدتها بعد ظهر ذلك اليوم، متروكة على شاطئ بحيرة مانيتو، بالقرب من سانت أغات دي مونت. كانت جائعة، ويوجد خراج في إحدى سيقانها، لها من العمر ستة أو سبعة أشهر، وتشبه ذئبة صغيرة... سنحتفظ بها. لم تكن نوك ذئبة ولا كلبة راقية، بل كانت حيواناً رائعاً، لطيفاً، فضولياً لاكتشاف العالم والتعرف عليه، منتبهاً إلى أحزاننا حتى قبل الشعور بها. وسرعان ما أصبحت الكلبة جزءاً لا يتجزأ من حياتنا، اندمجت فيها بسهولة مذهلة، وهي تقفز في الطائرة عندما كانت تقوم بمهمة توصيل صياد إلى أسماكه، أو تركض بجانبي في منتزه أونتسيك، وتتدحرج بعد تساقط الثلج الجميل، في نثاره حتى يتخضب شعرها ويتشرب بهدية الشتاء هذه، وحين يأخذ الثلج منها مأخذاً، تهز جسدها منتفضة، لتبعثره متطايراً على الفور سحابة من الندائف في الهواء المتجمد.

كانت نوك تأكل معنا، وتشاهد فيلماً معنا، وتنام إلى جانبنا بعد أن تدور حول نفسها أربع أو خمس مرات، كما علمها أسلافها، وفقاً لقواعد النوع وقوانين الغابة.

وفي المساء، وبينما كنا ننتظر عودة وينونا، كانت نوك تقترب مني، وتدس خطمها بين ذراعي، وبين أضلعي الخافقة. في هذا الملجأ المظلم الذي لا يمكن أن يحدث فيه شيء، وهي الوحيدة التي كانت تعرفه، جعلتني أفهم الكثير من الأمور التي غالباً ما يجد الرجال صعوبة في قولها. في بعض الأحيان كانت تفتح لي عينيها، فقط لتنبهني أنها الآن ستصمت، وتأخذ قيلولة قصيرة. كان هناك الكثير من الوعي والولاء لدى هذا الحيوان الصغير لدرجة أنني اعتدت، ومع مرور الوقت على مخاطبته كإنسان تماماً، مشاركاً إياه فوضى أيامي وإيقاعها. والأمر الأكثر إثارة للدهشة، ولم يكن في الأمر ما يفيد التناقض، كنت أكسر الجمود في ركني، بينما كانت نوك تستمع إليّ، وتفهمني بطريقتها الخاصة. ولا شك أنها بذلت الجهد لفك شيفرة لغة البشر المختزلة، وبدوري فعلت ذلك لفك شيفرة جميع أنواع نباحها وقراءة لغة جسدها. كما هو الحال في كل الأمور، وبعد أن أمضيت

وقتاً من التعلم، وصلت إلى نتيجة مرضية إلى حد ما سمحت لنا بالتعامل مع الأشياء الأساسية في الحياة اليومية، فقد كنا نتحدث اللغة ذاتها. كانت تقرأ في داخلي كتاباً مفتوحاً، وكنت منتبهاً لها، من خلال مضاعفة إيماءات الحنان، كما نفعل بشكل طبيعي عندما نحب شخصاً ما».

عاد نوئيل ألكسندر إلى الإكسلسيور بعد عشرة أيام من دخوله المستشفى. وما أعادته سيارة الإسعاف إلينا لم يعد سوى مظروف هش، دسّ في داخله القليل من الحياة. كنا نرى من خلال وجهه المرقط الهزيل عظام وجنتيه، وفكيه، وحنكه البارز. وصدغيه المجوفين، ومن خلال جلدة عنقه، بالكاد يمكنك تخمين نبضات قلبه الخافتة.

لقد أعيد نوئيل ألكسندر إلى مبنى الإكسلسيور ليموت فيه.

لقد وضع سريره الطبي وجهاز المغذي أمام النافذة الزجاجية التي كان يبدو من خلالها دخول أغصان أشجار القيقب العالية. كانت الممرضات يأتين ثلاث مرات في اليوم لتقديم الرعاية له، وكنت أنا على تواصل بنوئيل في الليل والنهار عبر اتصال غير مرئي، حيث يعود الفضل في ذلك إلى معجزات الإلكترونيات، كما هو الحال في معجزات التواصل العاطفي. كل ما كان عليه فعله هو الضغط على زر تنبيه صغير، يحتفظ به في راحة يده، لأتخلى عن كل أعمال الصيانة التي أقوم بها.

لقد أطلق الإنذار عدة مرات، وتمكنت في كل مرة من أن أوهمه أنني أرى تحسناً طفيفاً في حالته.

وذات يوم لم يعد الجرس يرن.

خلال هذه السنوات كلها، تمكن الرئيس، كما يحلو لي أن أسميه، من منح هذا المبنى روحاً وعقلاً، انتهى به المطاف إلى أن يكون شبيهاً له، من خلال ما يوفره للجميع من مناخ محب للخير والدعم والتسامح. لقد نجح نوئيل ألكسندر بموقفه الوحيد وشجاعته، عندما كان ذلك ضرورياً، في تنظيم هرمونات سبعة وستين مالكاً آخر، والذين كانت في كثير من الأحيان تحركهم رغبات ومشاعر عدائية، الأمر الذي أقنعهم جميعاً بإظهار الاحترام والتسامح تجاه الآخرين. قاد منزلنا بذكاء حتى نهاية ولايته، مستخدماً خبرته وصفاته الحكيمة.

قبل نهاية الألفية بقليل، وقبل بضعة أشهر من نهاية العالم، انتقلنا إلى عصر آخر من الواضح أننا لا نعرف شيئاً عنه، ولكن هذا الشيء البسيط الذي كان يطوف في الفضاء، جعلنا نعتقد في نواح كثيرة، أنه سيكون أقل نبلاً، وأقل حلاوة، وأقل ثراء من سابقته.

في نهاية العام، في الثلاثين من شهر ديسمبر - كانون الأول، انعقد الاجتماع العام للمالكين المشاركين لمناقشة الميزانيات العمومية، وانتخاب رئيس جديد للإدارة في نهاية الجلسة على وجه الخصوص. كان جميع السكان حاضرين في الاجتماع، وشاركوا في التصويت وضمنهم كيران ريد. كان هناك ثلاثة مرشحين. أحدهم لويس أنجيلان، ممثل المدرسة القديمة، يشبه طائر البوم الصغير ذي الجفون الثلاثة، المهتم بتكاليف حمام السباحة، والمتعنت بشأن صيانة المروج، عالم النبات الفاشل، الممل مثل المطر. وإدوارد سيدويك الذي (صُنع) في نيو إنجلاند، وهو الوافد الجديد، والمدرسة الجديدة، والسيارة الجديدة، والزوجة الجديدة، والحياة الجديدة على ما يبدو، ومقيم سابق في أوتريمونت الأنيقة. اليوم نزل إلى الطابق الخامس في شقة في آونتسيك. وكان طلبه الأول هو محضر أعمال مجلس الإدارة الأخير. وأخيراً، مادلين بريج، العضو الحسود في نادي الطابق العلوي، ستون عاماً من التجدد، مزاج مدمر، امرأة لذيذة، لا يمكن التنبؤ بها، وهي لا تزال تتمتع بكل عقلها وأيامها، مسؤولة عن قسم مجموعة الأعمال الفنية في متحف الفن المعاصر في مونتريال. لقد وجدت المبنى يلفه الحزن دائماً. فحلمت بنصب تماثيل جان تينغولي - النحات السويسري - في جميع أنحاء الحديقة. ولأنها مهووسة، فهي غير قادرة على الإطلاق على إدارة مبنى مثل الإكسلسيور، ولكنها مع ذلك تعيش أيامها بشكل مدهش.

كان لدى كل مرشح خمس عشرة دقيقة، لشرح مصير المبنى بإيجاز.

ليس من المستغرب، أن توجه أنجيلا نقداً حول البذور والأسمدة في الحديقة، وتخضير المناطق المشتركة في الطابق الأرضي، والمدخل، دون نسيان مراقبة تكاليف التدفئة وصيانة حوض السباحة. قدمت لنا بريج محاضرة قصيرة في تاريخ الفن حول «المعدات والحركة والضوضاء» وشاطرناها حماسها لبيئة أكثر تأثيراً، مع حديقة مرصعة، وبالطبع، بتماثيل

تينغولي (1925-1991). لعدم توافر الأفضل من أعمال النحاتين الكنديين الشباب التي يمكن أن يحصل عليها المبنى، والتي قد تكون مبالغها معفاة من الضرائب. لأننا مازلنا نفتقر إلى الموارد. قال أحدهم: «لكننا لا ندفع الضرائب، ولا نحقق أي ربح». تجاهلت بريج الحجة بحركة من ذقنها، معبرة عن شكوكها ثم هدأت.

كنت أعرف الشخص الذي ينتخب حتى قبل أن يفتح فمه، وحتى قبل أن ينطق كلمة واحدة. الرجل العاطل ذو الأناقة المفرطة والمضحكة. أنموذج الماكر الخبيث، ابن آوى المخادع. بهذه الخبرة في العصر الحديث، وبمزيج من الألفة والغطرسة، والتقنية والازدراء، كان إدوارد سيدويك رئيسنا، الوغد المتحمس الذي كنا أنا ونوك نشمه على بعد مئة خطوة، وهو يقدم نفسه على أنه «الضامن لرفاهيتهم جميعاً، عاقد العزم على مراقبة بنود الإنفاق جميعها بدقة، ليتم إنفاق كل دولار بحكمة، وحتى يظل هذا المبنى، الذي تم تجديده في إدارته، موطناً مشتركاً لنا». آمين.

فازت حملة أنجيلان العشبية بـ14 صوتاً، حصلت عليها من سهول القدماء الكبرى، ولا شك أن تلك الأصوات مرتبطة بالحنين الأخضر لسنوات شبابهم. وحصلت بريج على 7 أصوات، بما في ذلك صوتي، وصوت ريد وأصوات خمسة ناخبين آخرين، كانوا مقتنعين أنه ما دام من الممكن أن تختفي، فقد يغادرون بأسلوب أنيق. أما بالنسبة لسيدويك فقد حصل بكليشيهاته البائسة، وخطبته التي ادعى فيها تمثيله لسكان المبنى، كل ماتبقى باستثناء شخص واحد امتنع عن التصويت، فكان أن انتشل 46 صوتاً بطريقة مرعبة وشبه سحرية في آن معاً بمهارة شخص، كان يدير اللعبة مع الأرنب والقبعة. 46 صوتاً كانت تلقي 46 حفنة من التراب على قبر نوئيل ألكسندر. 46 صوتاً يقضمها رجل خرج من العدم، لم يكن أحد يعرفه قبل شهر. 46 صوتاً كانت ستجعل من حياتي أكثر صعوبة. 46 صوتاً كنت قد أعنت أصحابها ذات يوم أو ساعدتهم.

استفتاء في زمن جديد.

كان العام 2000 والعالم الذي ذهب معه الآن ينتمي إلى إدوارد سيدويك.

لحسن الحظ، كانت وينونا ونوك تخرجاني أحياناً من هذا الكون، الذي أعيش فيه محبوساً لفترة طويلة. كانت الطائرة تقلنا أحياناً لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في مرفق سياحي على شاطئ بحيرة سان جان. كنت أحب هذه الرحلات في ضجيج المقصورة القديمة المغمورة بالعادم المنبعث من محركها. لقد صنعت ما يشبه الخوذة المرنة الصغيرة، التي كانت تعزل الصوت عن أذني نوك. في البداية، كرهت هذه الخوذة قبل أن تعتاد عليها. وكنت أتمنى أن تستمر هذه الجولات الجوية لقرون عدة، لاستثمار الوقت لرؤية كل شيء من الأعلى، الأشجار والمياه والأراضي والحيوانات. كنت أشعر وكأننا نعيش فوق عالم لا حدود له، يكشف عن دليل لا نهاية له في وصف جماله. كل شيء كان شاسعاً، السماء، والماء، والغابات التي كنا نتكهن أنها مغمورة بحياة برية غير مرئية، كنا قد غادرناها ذات يوم، لنعيش في منازل من ستة مستويات، مجهزة بأجهزة للاتصالات، وبحيرة اصطناعية صغيرة لم يشرب منها أحد. كنا نعيش ونمشي على حافة هذه المياه الاصطناعية، دون أن نترك أدنى أثر، باستثناء مانتركه على لوحات مفاتيح أقفالنا الرقمية.

ما كنت أراه من هذه الطائرة لم يكن ملكاً لأحد، لم يكن ملكاً لإنسان واحد، ولا حتى لاثنين. فمن الذي بوسعه أن يصنع منه بلاداً؟ كان عالماً لم نجد فيه ملكة أو وصياً. التاج المرصع بـ 46 صوتاً، هنا، لم تكن هذه الأصوات تساوي شيئاً، ولم تعط شيئاً، ولم تضمن شيئاً. لم نكن نأكل مع الـ 46 صوتاً، ولم ننقذ أنفسنا. مع الـ 46 صوتاً، كنا نجتذب الدببة، ونغري الذئاب، أو كنا نموت من البرد بكل بساطة.

في طائرة البيفر كان الضجيج قوياً لدرجة أن سماعات الرأس لم تكن مجدية عملياً، لذا اعتدنا أنا وينونا على التحدث بالإشارات. فعندما كانت تؤشر بأصابعها نحو الأسفل، أعرف أننا سننزل ونهبط عما قريب. كانت تلك اللحظة الوحيدة في رحلاتنا التي أخشاها. اللحظة التي كانت فيها تتلامس العوامات مع الماء. وعلى الرغم من توضيحها، والتفسيرات الآيروديناميكية التي استخلصتني بها زوجتي، كنت دائماً أشعر بالخوف من أن إحدى هذه الزوائد، المماثلة لما في المراكب الشراعية، تنط، وتقذف نتيجة للسرعة،

وتهوي المقدمة، فيتأرجح القارب - الطائرة - ويفقد توازنه، فينقلب رأساً على عقب. هذا هو السبب، قبل أن تلامس سطح البحيرة، كنت دائماً أضع نوك على ركبتي، وأعانقها حتى تؤكد لي الطائرة نجاتنا، وضمان انسيابيتها بشكل سليم.

في مجلة متخصصة، قرأت ملفاً مقلقاً، ودراسة كاملة كانت تثني على صلابة هذه الطائرة وقدراتها المتعددة، ولكنها حذرت الطيار أيضاً من حقيقة أنه عند «سرعة منخفضة، وهي مائلة وبحمولة كاملة، فإن للطائرة بيفر سمعة أنها طائرة غادرة في بعض الأحيان، ولا توجد علامة تحذير، تحذر سابقاً عن قرب حدوث انخفاض حاد في ارتفاع الطائرة، مما يؤدي إلى فقدان مفاجئ للارتفاع. وعادة ما يكون السقوط مفاجئاً، وعند الارتفاعات المنخفضة، تعد استعادة السيطرة محفوفة بالمخاطر، بل قاتلة في بعض الحالات».

عندما عرضت هذا المقال على وينونا، قالت بكل بساطة: «أعرف كل ذلك. ويعرف كل الناس هذا الأمر منذ عام 1946. لكن كما ترى، فإنهم يكتبون مرة واحدة عن طائرة البيفر، وأنا أستخدمها كل يوم. وعلى أي حال، معي الطائر الطنان دائماً».

وكان الطائر الطنان حلقة مفاتيح لم تتركها وينونا أبداً. كانت تعد هذا الطائر المعدني الصغير نوعاً من الملاك الحارس القادر على إعادة الطائرة إلى المسار الصحيح. كانت زوجتي مفتونة تماماً بهذا الطائر، الذي يُعد طائراً أسطورياً في كل أمريكا الجنوبية، المبشر بآلاف الأخبار المتناقضة أحياناً، وحامل السعادة والازدهار لدى شعب التاينو - السكان الأصليين في منطقة البحر الكاريبي وفلوريدا - ولكنه في البرازيل، كان حامل برقية الموت إذا دخل منزلاً.

هذا الطائر الصغير هو على أي حال لغز الطبيعة، آلة جهنمية صممها متخصص بالتوربين الأيروديناميك إلى جانب عالم تشريح خبيث. هذا الحيوان الذي يتراوح طوله بين 5 أو 6 سم، لديه قلب ينبض 1260 مرة في الدقيقة الواحدة، وتتنفس رئتاه 500 مرة في الفترة الزمنية ذاتها. يمكن لأجنحته أن تدور على محور في الاتجاهات جميعها، مما يسمح له بالطيران

بسرعة إلى الأمام وإلى الخلف وإلى الأعلى وإلى الأسفل، ويصل إلى سرعة 100 كيلومتر في الساعة في أوضاع مذهلة. ترفرف أجنحته 200 مرة في الثانية، وتحجز فقاعات الهواء بشكل دائم، فينتج عن ذلك دوامات تساعد في حركة الأجنحة. فضلاً عن ذلك، لا يزال هذا الطائر هو المتخصص الكبير في الطيران الثابت، والقفز، ولديه 6590.000 خلية دم حمراء لكل مليمتر مكعب. يمكن أن يحمل نفسه بوزنه القليل الذي لا يتعدى بضعة غرامات إلى مسافة 800 كيلومتر، يأكل ثماني مرات في اليوم، وقبل أن ينام، تنخفض درجة حرارته بمقدار 10 درجات، التي تقلل من عنف معدل ضربات القلب إلى 50 نبضة في الدقيقة. هذا هو الطائر الجهنمي الذي كانت ترهن زوجتي حياتها ومصيرها به. هذا هو الطائر الذي يبلغ وزنه 3 غرامات، والذي حلت محله طائرة البيفر القديمة الثقيلة بطيرانها المنخفض غير المتكافئ، التي تزن طنين ونصف الطن. وهكذا، كنت في كل مرة أرى فيها حلقة مفاتيح وينونا، أفكر بوالدي، بعد أن يسمع زوجتي تبوح له بإيمانها، كان يمكن أن يستخلص أن مسألة إيمان امرأة هندية، تواجهه يومياً في هدير السماء، هو درس مثالي لقس مقامر.

***

منذ زيارته للمدير، حلم باتريك بشيء واحد فقط، وهو أن يزوره مرة أخرى. وقبل بضعة أيام، قدم طلباً بهذا الصدد إلى كبير المشرفين، ولكن محاولته لم تحظ بالمتابعة. يبدو أن لديه فكرة في رأسه. لذا جلس على طاولته، وكتب رسالة إلى سوفاج. جعد بضع أوراق قبل أن يصل إلى النتيجة التي تناسبه. ثم وهو يدس لغزه الصغير في مظروف، أوكله إلى الحارس، كي يحمله إلى المتلقي. وبعد أربعة أيام تسلم جواباً. طية كبيرة، يوجد داخلها بالضبط ما طلبه. «اللعنة، سوفاج هذا رجل نبيل. ودون مزاح، هذا الرجل عملاق. تخيل، أرسلت له مذكرة أطلب منه فيما إذا كان من الممكن الحصول على أحدث كاتالوج لقطع الغيار والملحقات لشركة هارلي – للدراجات – والحصيلة، أرسل لي هذا الكاتالوج عن قطع الغيار والملحقات لهذا العام. هذا يعني أن هذا الرجل عندما خرج من عمله، ذهب لإحضار الأشياء التي طلبتها. اللعنة أنه خرج من المؤسسة، ولكن هذا ليس

بالأمر الممكن لولا ذلك. سأوجه له كلمة شكر». جلس على طاولته، وبدأ يكتب رسالة شغلته مدة ساعة. «بادئ ذي بدء، هل أكتب «عزيزي مانو» أو «عزيزي السيد سوفاج»؟ ثم ماذا، لا توجد اختلافات بين السائقين، لا توجد بين المسجونين أو بين الحراس، كلنا متشابهون، جميعنا لدينا ذات الشعار المنقوش على غطاء الدراجات «فلتعش لتركب»، «فلتركب لتعش». يا مانو أعتقد أن الدراجة هارلي ألطف، وأكثر متعة. سيدي العزيز، مايقوم به الرجل الذي يرسل لك فاتورة الكهرباء أمر تفوح منه رائحة العفونة. وعلى الرغم من ذلك تحدثنا معاً لفترة طويلة. قد يكون بوسعك أنك رأيت وجهه عندما كان يروي لي إرثه، ستفهم أنه من الواضح أنّ «مانو» أكثر من «السيد». لذا ساعدني، تباً، إن كنت مانو أو سيدي؟»[31].

تمكنت من إقناعه أن اللقب الأخير ربما كان أقل من بوصة مكعبة، ولكن كان لديه ميزة أن يكون أكثر تقليدية. فضلاً عن ذلك، كان في معرض تقديم تأكيد بعدم ترويع المرسل إليه، ترك الباب مفتوحاً لطلب آخر. ولقد أدت هذه الحجة الأخيرة إلى قلب كل شيء رأساً على عقب: «أنت شيطان حقيقي، أنت مثل لاعبي الشطرنج الذين يحسبون سبع عشرة نقلة مقدماً. أنت على حق. عزيزي السيد سوفاج، وهذا أمر جيد». لم يطلب مني باتريك الإشراف على محتوى الرسالة، لكني أخشى أن طبيعة راكب الدراجة ستتولى الأمر مجدداً، وأن التعامل برفع الكلفة مبكراً أو التعامل «غير الأخلاقي» بمعنى الإشادة بمعناها الأوسع، سيلحق الضرر بجهود تماسكه.

والآن بعد أن ذهبت رسالة الشكر إلى صاحبها، أخذ باتريك يتصفح كتيب التعليمات – الكاتالوج – سطراً، سطراً، يستمتع به، ويتذوق فيه كل ذرة. أعتقد أنه يثبت كل هذه الإكسسوارات على الـ«فات بوي» الواحد تلو الآخر بطريقة ذهنية، ويحكم على التأثير الناتج، ثم يعيد تشغيل الأداة، لتجربة شيء آخر، متغير جمالي أو ميكانيكي آخر، من حقائب جلدية أو عادم جديد، أو مقود يشبه قرن الجاموس أو حاملات الأقدام بطريقة مريحة.

31- لعل الإشارة هنا إلى (مان) الأب الروحي للجنس البشري في العقيدة الهندوسية، وقد أنزل عليه الإله براهما تشريعات، وهي أنّ الناس ليسوا سواسية في الديانة الهندوسية – م.

في هذه اللحظة، أعلم أنه داخل خزانته الذهنية، قد دفع المزلاج، وأغلق من الداخل والخارج، منيعاً، وسعيداً سعادة نادرة، وحده حتى المنتهى، دون أب، ولا ذاكرة، ودون سوابق إجرامية، عفيفاً تماماً لا يشغله شيء، ولد للتو «ليعيش ويركب دراجة نارية» أو عند الضرورة «ليركب دراجة نارية ويعيش».

أنا لا أملك مثل هذا النوع من المروج الذهنية لأدع أفكاري تتدفق وتنطلق. أنا سجين تماماً. وقد أغلق عليّ. هذا المكان يمتلكني ويجعلني أدفع ثمناً كل يوم. بالتأكيد، هناك من يزورني. ولكن في بعض الأيام، مثلنا، يجد الموتى صعوبة في العيش. اليوم، لم تحضر نوك، ولم يأت والدي. قفزت وينونا قفزة. لم يكن لديها مفاتيح المنزل، ولا الطائر الطنان المعدني. وليس لديها أدنى رغبة في الكلام مطلقاً. هذه المرة كان وجهها وجهاً إيرلندياً، إلى درجة أنه كان يمتزج مع رذاذ بحر مدينة غالواي، ورائحة نهر الكوريب. أتذكر ذات مرة، كنا في مدينة تولوز - الفرنسية - لا أعرف في أية مناسبة، ألقى والدي موعظة بشأن السماد الإيرلندي، وشبه هذه المادة العضوية الأحفورية بمادة لا أعرف ماهي، والتي كانت تجعل من حياتنا طبقات. كان من الصعب أحياناً أن أحذو حذو والدي في متاهة استيعابه الغامض.

في غضون أربع ساعات سيهبط الليل. آمل أن أجد النوم سريعاً، هذا هو التجويف الدماغي الصغير الذي يجب أن أنزلق فيه، في محاولة للهرب بضع ساعات. وعندما لا أنجح، وعندما لا أستطيع أن أرى النتيجة، أتناول قليلاً من عقار الورازيبام مع المكون الذي يعتمد على اللاكتوز، والذي لابد أن يتولى تسوية الأمر.

بين حين وآخر، أسمع صوت قلب صفحة يتصفحها. وعندئذ، أعرف أن باتريك يشعر بالسعادة.

***

حقاً لم تغير إقامة وينونا في شقتي من عادات كيران ريد. فمنذ ذلك الوقت، كان يزورني مبكراً إلى حد ما، عندما يشعر بحاجته للبوح بما في قلبه، فنمضي نتحدث، ونغوص في عوالمنا. كان يشعر بالمرارة بشأن انتخابات سيدويك، الذي كان يراه رجلاً، لا يمتلك ديناً ولا خلقاً. «يتحدث

مثل منشور مستشار الضرائب، وأشعر أنه على وشك أن يقلب هذا المبنى رأساً على عقب. أنا أعرف هذا النموذج من الرجال جيداً، وأتعامل معهم كل يوم. إنهم من القتلة المأجورين. فهم يعيشون بالاستعانة بمخططات excel في رؤوسهم، ويبثون الفوضى في كل مكان. احترس منه يا بول. بصفتك المشرف الذي يدير الميزانيات، ستكون في الخط الأمامي. ستراه دائماً راكباً على ظهرك، احسب حسابك، وتحقق من كل شيء».

ثم جاءت وينونا، وأعربت نوك عن سعادتها لرؤيتها مرة أخرى، وتظاهر كيران ريد، (خبير الخسائر) أكثر من أي وقت مضى، بمغادرة المشهد بحماسٍ فاتر، إلى درجة أن وينونا عرضت عليه البقاء لتناول العشاء معنا. فشع وجهه بالسعادة والامتنان، مثل وجه رجل أنقذ، «في الحالة القصوى»، للبقاء في أمسية وجهاً لوجه معه هو بالذات.

كانت زوجتي تبدو مفتونة بالجوانب الإنسانية التي كان يستعرضها، على الطاولة، أمامنا، بينما نحن نشاطره قائمة ملاحظاته. «إن مهنتي تقدم فائدة كبيرة. تفتح باباً على فناءات عالمنا الخلفية، هذه الأماكن التي يتم التفاوض فيها حول ثمن الإنسان، والمساومة حول قيمته، وفيها يحول كل شيء إلى نقود، ويدفع كل شيء مقابله، وفيها ما يسمى في المحكمة بالقضايا التي ليس بالضرورة أن تعرفها أبداً، قد تكون قصصاً، يصعب في بعض الأحيان أن تصدق أنها موجودة. لقد عملت في ذلك الوقت في قضية السيارة فورد بينتو، لا أعرف إذا كنت تتذكر هذه القصة. في سبعينيات القرن العشرين، صنعت شركة فورد هذه السيارة «المدمجة»، والتي لم تكن تبدو ذات قيمة تذكر، وسرعان ما أدركت أنها تعاني من عيب كبير في التصنيع. فبسبب نحافة معدن خزان الوقود الشديدة، كانت النيران تشتعل في هذه السيارات بسهولة، إذا صدمت من الخلف. وبسبب ذلك أيضاً كان هناك 180 قتيلاً، احترقوا جميعهم في سياراتهم، و180 أصيبوا بجروح خطيرة، و7000 سيارة متفحمة. ولمواجهة هذه المشكلة الهيكلية، طلب مقر الشركة دراسة من مكاتبها، لتقييم تكلفة التعديلات اللازمة. لم يتأخر رد المحللين، الوارد في تقرير بعنوان «بينتوميمو – التكلفة / المنفعة»، طويلاً: كان تعويض أسر الضحايا أقل بكثير من المبالغ التي يتعين الالتزام بها، لتنظيم عملية استدعاء سيارات

بينتو جميعها، واستبدال الخزانات المعيبة. لذلك وضعت شركة فورد هذا التقرير في أدراجها المنسية، واستمر زبائنها يستقلون سياراتهم البينتو التي تحترق. حتى يوم الفضيحة التي أرغمت الشركة للكشف عن معايير حساباتها وخياراتها المذنبة. ثم أصدرت شركة فورد دفتر الشيكات، وتسوية القضية من خلال منح 200.000 دولار لكل ضحية، و67.000 دولار للضحايا الذين أصيبوا بالحروق، و700 دولار عن كل مركبة مدمرة. إن قضية بينتو ليست سوى أصغر جزء مرئي في هذه القارة التجارية، هذا العالم أدناه الذي تُحسب فيه حياة الرجال الحقيقيين، الملموسة للغاية، على أساس نسب محاسبية حصرية. أتذكر أنه قبل بضع سنوات، طرح اقتراح على مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة، للإصلاح لمعالجة هذه القضايا. وكان يوضح، من بين ما يوضحه، أن استخدام الدولارات لتحديد قيمة الحياة، حين يتعلق الأمر باتخاذ القرار يشكل «إهانة عميقة للأديان والمعتقدات الأخلاقية والآداب العامة لشعب هذا البلد». وأشار أيضاً إلى أنه ينبغي حظر استخدام المعايير العنصرية أو العوامل التي تأخذ في الاعتبار الدخل أو المرض أو السن أو الإعاقة. ودون شك بعد أن أخضعه لوبي شركات التأمين لتجارب قاسية، رفض التعديل، ومزق في فرامة النفايات. أتصور، يا بول، أنك ستقول لي الآن أن المقارنة ليست واضحة، وأنني أضمر سوء نية، ولكن رجلاً مثل سيدويك، وأنا جاد جداً، كان بإمكانه أن يعيد كتابة تقرير «بينتو / مينتو «بشكل مثالي».

منذ مدة، حشرت نوك خطمها في مقور ذراعي لتخبرني مرة أخرى، بطريقتها الخاصة، عن اليوم الذي حط فيه الطائر الغريب ذو المحرك ساقيه على مياه البحيرة، ونزلت منه امرأة هندية ذات مظهر إيرلندي زائف، وسارت باتجاهها، ومدت لها يدها، وأطعمتها بعض البسكويت، وجلست إلى جانبها، بينما كانت لا تزال ترتجف من الخوف والتعب والحمى، حيث قامت بفحص جرحها، وداعبتها للحظة، ورفعتها بين ذراعيها، ثم وضعتها جانبها على متن الطائرة. عند هذه النقطة من القصة، أخرجت نوك خطمها لوهلة من مكمنه الواقي والدافئ، ونظرت إليّ، وأنا متأكد من أنني سمعتها تقول لي، «ثم كنت مرهقة جداً لدرجة أنني نمت، على الرغم من ضجيج المحرك».

أعجب ريد بقائمة الطعام، وتوجه بالشكر إلى وينونا على دعوته لقضاء أمسية «عائلية» حقيقية. لقد فهمت ما كان يريد «المخمن» قوله، لكن ولادة العلاقة الأسرية الجديدة المفاجئة، والإعلان عن هذه القرابة الجديدة، بدا لي سابقاً لأوانهما قليلاً.

عادة ما يحدث سوء الحظ خلال كل فترة داخل مبنى أو وسط مجتمع. وخلال عدة أشهر، كان سوء الحظ يجوب بين الطوابق، ويفتح باباً بعد باب، يسحق الضعيف أولاً، ويدمر المتفائلين. ومن ثم، ذات يوم، تغير الشارع، والحي، وهو يتابع عمله كحرفي أعمى. معنا، استمرت المتوالية مايقارب السنة. وفي نهاية عام 2002، بدأت أنواع المصائب جميعها تتساقط على مبنى الإكسلسيور، وأدواته الميكانيكية وأشجاره ورجاله.

بدأ كل شيء مع العاصفة الجليدية المدمرة التي شلت المدينة مدة عشرة أيام، استسلم كل شيء تحت وطأة المطر المتجمد: أبراج الكهرباء، الكابلات الكهربائية، أسلاك الهاتف، وانفجرت المحولات الواحدة تلو الأخرى، ودخلت البلاد بأكملها في ظلام دامس. وبسبب عدم وجود التدفئة، سرعان ما أصبحت الشقق غرفاً باردة. كان السكان يحاولون العثور على مكان دافئ في حماماتهم، من خلال البقاء بالقرب من الحمامات المملوءة بالمياه الساخنة. كان هناك مصدران للطاقة لتغذية المبنى. الكهرباء للتدفئة حصراً، والغاز للمنظومة العامة لإنتاج الماء الساخن. كان المالكون وهم يرتدون المعاطف والبطانيات، مثل الفلاحين، يتجولون في الممرات والأماكن المشتركة بحثاً عن معلومات وقليل من الراحة. ولعدم وجود المصاعد، كان كبار السن يمكثون في شققهم، فتدبرت الأمر وأخذت أجلب لهم الطعام والشراب. وكان الأكثر نشاطاً يحاولون الوصول إلى عملهم، متحدين عالماً جليدياً مزيناً بالكتل الثلجية المتدلية من الأشجار. كان كل شيء غير واقعي. وفي المساء، كان الليل ظلاماً حالكاً في كل مكان. وكأن الحياة قد أطفأت نورها. في بعض الأحيان، كنا نسمع صوت تشقق أغصان الشجر، وانهيارها في تحطم الجليد المكسور. بدأت أشجار البتولا الصفراء الكبيرة في الحديقة تنحني، غير قادرة على مقاومة عباءة الصقيع المتجمد وقتاً أطول، ثم انفلقت إلى نصفين، وكأن فأساً سماوية ضربتها من وسطها. بعد أسبوع

مرهق، عاد الضوء تدريجياً إلى الحي. وهالات من الأمل كانت تبشرمن الجليد هنا وهناك. ومع ذلك، بقي مبنى الإكسلسيور غارقاً في الظلام. وكنت أقضي أيامي ذهاباً وإياباً إلى السوق، لإمداد أراملي وكبار السن من القاطنين في المبنى بالمؤن الغذائية. كل هذا كان يجري سيراً على الأقدام، على الأرصفة والشوارع اللامعة مثل حلبات التزلج. الأكياس، والسلالم، والصعود، والنزول، توضح أنني لا أستطيع أن أفعل شيئاً، وأن أشرحه مرة أخرى، فتح الباب الأمامي، ونثر الرمل في ممرات المرآب، وما حول صالة الاستقبال، وإيقاف تشغيل جميع الأنظمة الكهربائية والإلكترونية، وتذويب كل ما يمكن تذويبه، وقطع أغصان أشجار البتولا وفروعها. والسهر على وينونا، التي لم تعد طائرتها قادرة على الطيران، وتوفير الدفء لنوك، التي بدت وكأنها تتساءل عما كان يحدث مع الناس البيض.

أعتقد أننا في حي أونتسيك، كنا أحد آخر المباني التي تم تزويدها بالوقود. وفي صباح أحد الأيام، انفتحت أبواب المصعد مرة أخرى، وأفرغت الحمامات، وانبثقت الأنوار، وبدأت مراوح التفريغ تعمل مرة أخرى. وبعد عقبة إثر عقبة، تدفق التيار في المقابس، واستقرت الحياة مرة أخرى في شرنقتها البالغة 21 درجة، التي قررها مجلس المالكين على أنها درجة الحرارة المناسبة لراحة الإنسان.

لقد تسببت العاصفة في إحداث أضرار ومضايقات، ولكنها أضعفت الكائنات الحية أيضاً. في أقل من أسبوع، توقفت أربع سيارات إسعاف عند الصالة لنقل أرملتين، تعاني كل منهما من الالتهاب الرئوي المضاعف، إلى المستشفى، ونقل ثالث في الستين من العمر يشتبه أنه مصاب بأزمة قلبية، والسيد سيبيليوس، وهو شخص رائع كبير في السن، مخضرم، ولد في قرن لا يمكن تحديده، سباح لا يغير من عادته، يثني عليّ، في كل مرة نلتقي فيها، على «نسيج» مياه حمام السباحة، والذي انكسر عنق فخذه عندما سقط على شريط الثلج في الرصيف المقابل. خلال هذه المدة التي كنت فيها مرهقاً تماماً، لم أر شبح مديرنا في أي مكان من منزلنا، بل لم أر له حتى شبحاً عابراً أبداً، يتفقد حالنا أكثر من تفقده حالة المكان.

في نهاية الشتاء، وبعد معاناة التنفس الطويلة عن طريق جهاز الأوكسجين،

توفيت إحدى الأرامل، وهي إدموند كالرنس، ضحية للمكورات الرئوية، أثناء قدوم ممرضة للتحقق من أداء الجهاز بشكل سليم. وصلت ابنتها إلى مبنى الإكسلسيور بعد بضع دقائق، ولكن ماكان قاسياً، قد حدث بالفعل.

مرت كل هذه الأحداث بهدوء. وكنت أرى مجتمعنا الصغير يتداعى، وكان موقفي في وسطه يؤهلني لواجب تحمل أوضاعهم. وكان دوري أحياناً أن أطرق باب كيران ريد في بعض الليالي، لأكشف له جزءاً مما رأيته، ومما كنت أفكر به.

كنت أحاول أن أبقي وينونا بعيدة عن هذا العالم الصغير، الذي لم يكن يعني لها شيئاً، باستثناء نادي المالكين المشاركين، الذين لو تأملناهم، لما كان بوسعهم البقاء طويلاً في غاباتهم.

مضى العديد من فصول الشتاء هنا، بين هذه الجدران. فضلاً عن فصول الخريف والصيف.

كان الزمن يمضي، ولم يكن بإمكاني أن أرى العالم إلا من أعلى السقف، أو من أسفل حيث حوض السباحة. كانت السنوات تمر، ووظيفتي كخادم مثالي، كانت تفرغ أيامي من محتواها.

تميزت بداية شهر يوليو - تموز بسلسلة كاملة من المشكلات التقنية، التي بدت أنها قد تجمعت لوقف العديد من التروس في أجهزتنا الآلية في آن واحد تقريباً. المصاعد أولاً. والأبواب كانت تفتح وتغلق من تلقاء نفسها، لكن المقصورة باقية دون حراك في قفصها. فشل اللوحة الرئيسة التي تتحكم ببروتوكولات رفع الآلات وخفضها. ومن المفترض أن يبدأ نصف محركات الاستخراج في التسخين والإحماء، نتيجة لإزالة اقتحام الجليد الشتوي. أمضيت أياماً عدة للإصلاح على السطح الذي كان في هذا الموسم فرناً. وأخيراً بعد بضعة أيام، كان فشل أنظمة التشغيل الإلكترونية جميعها في المبنى بشكل كامل. وفي مساء يوم مرهق، وبينما كنت أدخل لتوي في المنزل، رن الهاتف. كان سيدويك، قال لي: الناس يتصلون بي للشكوى «ما الذي يحدث، يا بول؟ كل شيء متوقف الآن. ماذا تفعل؟ هل تتحكم في الموقف أم لا؟ لابد من ترتيب كل شيء في أقرب وقت ممكن. قيل

لي إنك غيرت كل أجهزة الاستخراج. سيكلفنا كل ذلك ثروة. ستأتي في عطلة نهاية الأسبوع وتريني الفواتير، هل مات الرجال الذين يعتنون بالأقفال الرقمية؟ لا، لا، يا بول، يجب إعادة تشغيلها، كن حازماً، ومع ذلك لن أفعل ذلك بدلاً عنك» في كل مواقفه، كان سيدويك هو من يسحب مقاليد مدير أعماله، وهو من يضعه في المواجهة والتصرف، وهو من يذكره بمن يقود، ومن ينظم العمل.

وقع أسوأ حدث في هذا العام المظلم في الأسبوع الأول من شهر أغسطس – آب. من أجل إصلاح الأضرار التي سببها الشتاء في زاوية الواجهة على مستوى الطابق الخامس، فوضتُ شركة متخصصة، أرسلت ثلاثة عمال بناء لإعادة مفاصل حجر بناء الواجهة الذي كسره الصقيع. وبعد أسبوع من العمل. نصبت السقالات الأنبوبية، وأعلنت خدمة الأرصاد الجوية، بصرف النظر عن خطر طفيف من هطول الأمطار، عن طقس معتدل حتى نهاية أعمال البناء.

في نهاية هذا الصباح، كنت أستخدم ماكينة جزّ العشب لقص العشب في المناطق المعشوشبة المتاخمة للمدخل الرئيس. وعلى الرغم من خوذتي المضادة للضوضاء، وأزيز الآلة، سمعت الصرخة.

كان يستلقي على الأرض في وضع غير مفهوم، ولا يتفق مع هيكل عظمي بشري. كان يحاول التنفس، لكنه كان يجد صعوبة بالغة. لم أكن أجرؤ على إعادة هذا الجسد العظمي إلى وضعه. أمسكت بيده، وهي حركة قمت بها مرات عدة في السنة. كان رفاقه فوق رأسي يصرخون على أنه سقط. كانوا يصرخون بي، وينحنون بأجسادهم من على سور المبنى، بارتفاع خمسة عشر متراً. كنت بالكاد تعرفت على الرجل على الأرض. تبادلنا بضع كلمات عند وصوله. وأتذكر أنه أخبرني أنه يعيش في مدينة لافال، ويقضي ساعة كل يوم على طريق ديكاري السريع للوصول إلى العمل. وحدثني عن عمل البناء. طلبت الإسعاف وأنا أمسك بيده، لأريحه بكلمات لا فائدة منها. كم مرة ساعدت المرضى والمحتضرين مؤخراً؟ في وقت لاحق، نبهني سيدويك إلى أن هذه لم تكن من اختصاصات المشرف. في الطابق العلوي، كان البناؤون الذين يكسون الواجهة بالحجر يحدقون في المشهد. والرجل

المطروح على الأرض لم يستطع أن يستنشق بكل نفس من أنفاسه، سوى نفحة قليلة من الهواء. كان وجهه يتلون بلون غريب، ويده في يدي تتقلص بتشنجات غير منتظمة. على الرغم من أن هذا الجسد مفكك الأوصال، حيث لم يعد يبدو أي شيء في مكانه، فقد بذل جهداً ليرفع رأسه، وفتح عينيه على وسعهما، وقال لي الجملة الأخيرة لرجل كان حياً: «كلبي وحيد في المنزل». وانتهى الأمر. سقطت رقبته على الأرض على النحو الذي كان فيه ممدداً، حتى كان يبدو أنه ينظر إلى أصدقائه هناك في الأعلى.

على الرغم من عبثية المهمة، حاول رجال الإنقاذ تدليك القلب بدعم من الصعقات، ونفخ الهواء في فم الضحية. كانوا يفعلون ما تدربوا على فعله، هذا العمل الذي يجري في الظلام الذي يسبق الليل، والذي ينطوي على إحياء الموتى.

أبلغت رسالته الأخيرة بإلحاح إلى أولئك الذين حملوا جثته فيما بعد. كان كلبه وحيداً في المنزل. وكان علينا أن ننبه شخصاً ما. عادت شريحة التزلج إلى «حقيبة الجسم» ونقل الرجل بألف قطعة، في ذلك المساء، لم يعد إلى المنزل بمحاذاة الطريق السريع ديكاري، الذي يعج بالمحتشدين المتدفقين عليه.

في الساعة 9:00 مساءً طرق سدويك باب منزلي بقبضة مأمور. لم يسألني كيف سقط الرجل، ولا إن كان قد عانى، ولا إن كان ينبغي إخبار أحد.. لم يكن لديه سوى وثيقة التأمين على المبنى، ويريد فقط معرفة المزيد من الإيضاحات حول مستويات مسؤوليتنا في حالة وقوع حادث عمل مع مقاولين خارجيين. عندما حصل عليها، استرخى قليلاً. «إذا فهمت بشكل صحيح، يا بول، من حيث المبدأ، لقد حسم الأمر، نحن نظيفون. حسناً. لا علاقة لنا بهذا الأمر. إنه تأمين رب عمل المتوفى الذي يدير الملف. على أي حال، يتعين علينا أن نتعلم من تجربة هذا الحادث. والتحقق دائماً من شروط ممارسة الشركات ومسؤوليتها التي نلتزم معها. لماذا اخترتهم؟ وكم مرة عملوا معنا؟ ثلاث مرات في عشر سنوات. اعتباراً من اليوم، عليك أن تحذفهم من قوائمنا. وبخلاف ذلك، ينتهي العمل؟ لا، لا، لا، يمكنك الاتصال بهم مرة أخرى وتطلب منهم إكمال العمل في الوقت المحدد. إذا

كان لديهم شخص ميت، فهذا محزن، هذا كل ما تريده، ولكن الأمر متروك لهم لإيجاد حل واستبداله». سيدويك. قائد لا يتزعزع. وغدٌ هائج.

لقد جعلتني هذه الحادثة الرجل البغيض بشكل قاطع. فقد تعاون كيران ريد وعشرات من الشركاء الآخرين على شراء الزهور، وكلفوني بأخذها إلى جنازة عامل البناء. رافقني ريد ووجدنا أنفسنا، بين حفنة من الغرباء وكلب المتوفى، وهم مجتمعون عند قبر في مقبرة مدينة لافال. بينما كنت أضع الزهور. لمحت اسم الفقيد، كان منقوشاً على شاهدة القبر. جيروم الدغيري.

بعد يومين، استدعاني سيدويك إلى شقته. كان ساخطاً لأنني ذهبت إلى جنازة عامل البناء. وتصرّف مثل مالك أرض غاضب يوبّخ فلاّحه المستأجر. «يا بول، يجب أن تكون الأمور واضحة مرة واحدة وإلى الأبد. لا أدفع لك مرتباً من أجل حضور جنازة، أو قضاء نصف أيامك في تمثيل دور مقدمي الرعاية في الطوابق العليا. أذكرك أن عملك يتوقف عند عتبة الشقق. فالأمر متروك لكل مالك مشارك لحل مشكلاته الصحية، أو الاتكال على الآخر. فهناك جمعيات ومنظمات لذلك. مهمتك هي الحفاظ على المبنى، وليس الأشخاص الذين يسكنون فيه. ولا يتعين عليك أن تتخذ أية مبادرة شخصية، دون أن تخبرني بذلك. على سبيل المثال، حمل الزهور إلى جنازة عامل عمل معنا لأقل من أسبوع. لديك معدات وحديقة ومبان خارجية ومرآب ومسبح، كل هذا ألا يكفيك لتبقى منشغلاً؟ فيما يخص حوض السباحة، نقطة نظام: كما هو محدد في عقدك، لا يمكنك أنت أو زوجتك الوصول إليه. أرجو أن تتلطف وتخبر السيدة هانسن بذلك. أما بالنسبة لكلبتك، فيجب أن تبقى مقيدة في أروقة المبنى. ولا يمكن أن تصل إلى الحديقة. خلاصة القول: إن المساعدة قد انتهت، وعليك أن تستأنف دورك كمشرف، والذي أدفع لك عنه ما يكفي. وستزودني كل أسبوع، ببيان عن نفقاتك، وسنرى بعد ذلك أي البنود سنقلصها أو حتى نحذفها. أريد أن يعمل هذا المبنى على مدار الساعة. مهما كانت حالة سكانه، لا ينبغي أن يصرفوا انتباهك عن مهمتك. أما بالنسبة لي، فقد انتخبت لأضمن حسن سير العمل في «الإكسلسيور» وصدقني، بدءاً من اليوم، سأبدأ بمراقبة جدول عملك اليومي، وكل الدولارات التي تنفقها».

خرجت مهاناً، محطماً من هذه المقابلة. ولم تسترد لي الإجابات القاسية التي كنت أواجه بها سيدويك في ذلك اليوم قليلاً من خيط الكرامة. في المساء، أخبرت وينونا وريد بكل ماجرى، معلناً لهما رغبتي بالاستقالة. خففا من حالتي المزاجية، وتحدثا عن شيء آخر، وتناولا قطعة بيتزا، ثم خرجت أنا وزوجتي مع الكلبة للسير في الشوارع في ليلة الصيف تلك.

منذ اليوم التالي، المصادفة، القدر، سوء الحظ، مهما كان، فقد حرص على تذكيرنا جميعاً، دون الانحناء للحظة وبشكل قاطع، أنه كان مقيماً دائماً في المبنى، وأنه كان سيد زماننا. ومهما قال عنه سيدويك، كان عليه أن يحسب له حساباً.

كان السيد سليغمان يقطن في الطابق الثالث مع زوجته. وهو رجل متقاعد من شركة هيدروكيبيك لتوليد الكهرباء في مقاطعة كيبيك ونقلها وتوزيعها. كان يحب كل أنواع الأشياء: الخبز، البسطرمة، الكبد المفروم، الهوكي، النكات اليهودية وخاصة سيارته ليكزس ذات الدفع الرباعي. كان ينزل مرتين في الأسبوع، في يومي الاثنين والجمعة، إلى المرآب، ويقود سيارته إلى منطقة الغسيل، يسحب الستارة الواقية، ويبدأ بأعمال التنظيف والتجميل مدة ساعة تقريباً. كان ينظف سجادها من الغبار، ويدلك جلد مقاعدها، ويلمع كل ما كان يحتاج إلى تلميع، بينما كنت على نحو أكثر بساطة، أعمل على أنبوب مياه ساخنة على بعد خطوات قليلة من هذا المكان المخصّص لتنظيف السيارات.

عندما رآني أجلس على مقعدي المتنقل، توقف السيد سليغمان عن عمله، وتقدم ليسلم عليّ، وتبادل معي بضع كلمات. وقبل أن يعود إلى العمل، لم يستطع إلا أن يروي لي إحدى قصصه، التي كان يتفوه بها دائماً:

«كان هناك رجل يلعب الغولف مع ثلاثة حاخامات، كانوا يحققون نجاحاً بضرباتهم الرائعة، بينما لم يحقق هذا الرجل ذلك. فسأل الحاخامات ما سرهم؟ أجابوه: «الأمر في غاية البساطة: عليك أن تذهب إلى الكنيس كل يوم وتصلي متعبداً». يذهب الرجل إلى أقرب كنيس ويبدأ بالصلاة تعبداً. كان يذهب إلى هناك كل صباح، ويتوجه إلى الله بولاء لمدة سنة، يدعوه إلى تعزيز ضرباته، لكنه يفشل ولم يحقق النجاح. يعود ويلتقي بالحاخامات

الثلاثة، وهم متألقون دائماً في السباق، ويوضح لهم أنه على الرغم من صلواته من كل قلبه، لا يزال يلعب بشكل سيئ. يتشاور الحاخامات فيما بينهم ويسأله أحدهم: «لو سمحت لي بالسؤال، إلى أي كنيس ذهبت؟» فأجاب الرجل: «ذهبت إلى كنيس أوترمونت». ابتسم الحاخام وقال: «من الطبيعي أنك لا تحقق تقدما، فهذا كنيس للتنس»».

كان توماس سليغمان، الذي بدا وكأنه منحوت من كتلة من اللطف والتفاؤل كما يقال فخوراً بنجاحه الصغير، وهو يضحك دون أن يضع حداً لمزاجه، قد دس لي بخبث: «نكتة أخرى غداً، يا بول، غداً». ثم عاد لتلميع سيارته اللكزس.

أحياناً أجد أن الحياة قد اختارتني لأداء مهام غريبة. مثل جمع الكلمات الأخيرة، التي ينطقها كل هؤلاء الناس الذين يحيطون بي، ويغادرون الحياة في اللحظة التي ألتقي بهم في طريقي. وهذا ما حصل عدة مرات في سنة واحدة.

لقد كان الرذاذ القوي المتدفق من مسدس الغسيل تحت الغطاء الواقي هو الذي دفعني، بعد برهة، إلى الذهاب لأستطلع ما كان يحدث في الخلف.

كان سليغمان ممداً في مياه الصرف السطحي الممزوجة بالمواد المنظفة. وكانت عيناه تحدقان في إضاءة السقف.

بعد أن أبعدت الستارة جانباً، قررت أن أبدأ بتدليك القلب الجامح، متجاهلاً كل قواعده. وفي هذه الأثناء دخلت سيارة في موقف السيارات، وخرج منها رجل وتوجه إلينا. كان سيدويك. وجدني مرة أخرى بعيداً عن واجباتي، راكعاً أمام رجل ميت، أحاول إحياءه بطريقة حمقاء، لأعيده بيننا، عشية يوم السبت، حتى يتمكن من إنهاء العمل الذي بدأه. بقي المسؤول الإداري صامتاً من أثر الصدمة، غير قادر على المساعدة، واتخاذ أية مبادرة. فصرخت: «هل تستطيع أن تفعل شيئاً؟» حسناً! هل تعرف أم لا؟ أومأ برأسه: لا. قلت: «اطلب الإسعاف. بسرعة! تباً!» أخرج هاتفه، واتصل برقم، ثم انتظر شخصاً ما يرفع سماعة الهاتف، وهو مذهول، ولكن دون جدوى.

***

«لقد شاهدت للتو شيئاً لا يصدق على التلفزيون. فيلماً وثائقياً عن «العصور المظلمة». هل كنت تعلم ذلك؟ هذا من شأنه أن يجعل الشيطان

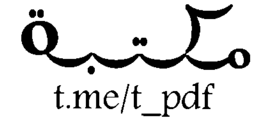
متوتراً. يقولون إنه في بداية الآلة، بعد 300 أو 400 ألف سنة من الدوي الكبير، لم أعد متأكداً من الأرقام، لقد نسيتها، الأمر مثل أصفار الرهون العقارية الثانوية، ولكن في الواقع لا تتغير كثيراً. على أي حال، بعد الدوي الشهير الذي فجّر كل شيء في الكون، بردت السماء، وغرق كل شيء في ظلام دامس. لكنه ظلام حالك. هل يمكنك أن تتخيل الجو؟ لا حياة، لا شيء. تباً عندما ترى ذلك، أنت لا تتصرف بذكاء، وتعتقد أننا سنعود من بعيد. هل سبق لك وتأملت الشيء غير المتناهي؟ أنا، أبداً. الشيء الذي لا ينتهي لا يدخل في عقلي أبداً. يجب أن تكون هناك نهاية في مكان ما. بكل بساطة نحن لم نذهب إلى هناك بعد. ولكن إذا وصلت هناك، إلى النهاية، لابد أن تسأل نفسك: ماذا يوجد بعد النهاية؟ نهاية دون نهاية؟ وها نحن نعيد الكرة مرة أخرى».

في بعض الأحيان يعود باتريك من حملاته التلفزيونية بأشكالها جميعاً. وفي معظم الحالات عندما يشاهد برامج العلوم الشعبية، التي يتابعها باهتمام مستدام. وبعد أن يخضع لهذا القصف من المعلومات المعقدة، فإنه لا يحتفظ منها في بعض الأحيان سوى بالشظايا. ومنذ وقت ليس ببعيد، شاهد شيئاً حول الأرصاد الجوية، وميكانيكا السوائل، ومن الواضح أن صورة رفرفة أجنحة الفراشة في مونتريال التي تولد إعصاراً في تايبيه قد أوضحت ذلك. «هذا أمر مثير للجنون. بعد ذلك، بالطبع، أنت لا تجرؤ على التحرك. أعرف، إنها مجرد خدعة لتخيل النظام، لإخبارك أن كل شيء قائم، لكن مع ذلك، من الأفضل ألا تلوح بأجنحتها كثيراً، لا أعرف أبداً. وهكذا، كما ترى، ما كان يجب أن أفعله، حتى لو كنت أقل غباء. ادرس. إلى جانب ذلك، أحب أن أتعلم كل هذه الأشياء عن العالم، وحتى عن سوء الأحوال الجوية. حقاً عندما تنظر إلى هذه الأمور، تشعر أنك أكثر تعليماً. لاحظ، بعد مشاهدة الشوط الرائع لدوري الهوكي الوطني بين فريقي بوسطن بروينز ومونتريال الكندي، لم تتقدم خطوة في الحياة إلى الأمام، ولكنك استمتعت على أي حال. هل تعرف ما أفكر فيه؟ حسناً، بما أنني مسترخ، ربما يمكننا إعادة حلاقة الشعر».

كانت المحاولة الأخيرة، في مساء زيارة باتريك الأولى إلى سوفاج، فاشلة. وأشبه بإجراء عملية كبيرة، أضع الأدوات على الرف، ويجلس

المريض على المقعد. يخلع شبكته الواقية. يتحرك المقص في ميدانه، وبأطرافه يحاول أن يفعل كل ما يجب أن يكون. وعندما يبلغ التوتر أشده، يضيق باتريك ذرعاً، ويحبس أنفاسه، فأوقف كل حركة على الفور. «اللعنة، أنت تفعل مثل أمي. تبدو مثل أمي». وببطء غير محسوس، تقص الشفرات مجدداً، وهي تنساب على الشعر دون أن تهاجمه، تدور حول حافاته، فتشذبه وأنا أصفر، دون حتى أن يلاحظ ذلك. انحشرت خصل الشعر المتراكمة على الأرض حول محيط المقعد. لقد شعرت حقاً أنني أنجزت عملاً رائعاً، منافساً لبراعة الأم، ومنحت ابنها وجهاً جديداً يانعاً. «لقد نجحت يا رجل. تباً، لقد أنجزنا عملاً عظيماً. هذا الأمر بالنسبة لي، يشبه العصور المظلمة أو كخفة الفراشات. حتى إنني لم أكن بحاجة إلى الاستلقاء على الأرض. هذه هي المرة الأولى في حياتي. هذا غباء، ولكنه يجعلني أبكي».

وعندما قمت بتنظيف كتل الشعر المنتشرة على الأرض. قال لي: «لا، لا، لا تلمسه، سأعتني به». أخذ باتريك يجمع شعره بعناية دقيقة، ووضعه في كيس قمامة صغير، ولفه بخيط، ووضعه في الصندوق السري المخفي تحت سريره.



الطائرة، والجزّار والانتظار

كانت كل رحلة جوية مع وينونا ونوك تزودني باحتياطي من السعادة والشجاعة، لتحمل تقلبات وظيفتي المحزنة. فقد أصبح الجو في المبنى مؤلماً، وانتشر شكل من أشكال عدم الثقة العامة، الذي غرسه المدير طوال مدة ولايته، في أنحاء الطوابق جميعها. وشيئاً فشيئاً بدأ جميعهم مراقبة بعضهم الآخر، لضمان تطبيق كل نقطة من نقاط قواعد النظام، سواء كانت سخيفة أو غير منتجة. وعاماً بعد عام، كانت تلقى في الاجتماعات العامة خطب ثانوية وتافهة، وتصريحات عدوانية عن موضوعات لا أهمية لها. وكان عليّ أن أقدم شرحاً أمام هذا الاجتماع أو ذاك عن سبب هذه النفقات أو تلك، أو اختيار المتعهد بالتموين أو فاتورة مقدم الخدمات. كان الناس الذين لم تطأ أقدامهم الغرفة التقنية أبداً، يسألونني عن احتياجات جهاز التحليل الكهربائي من عدد غرامات الملح لكل لتر من الماء، لوضع هذه النتائج، بعد ساعات بائسة من الحساب على الآلة الحاسبة، بما يتناسب مع طلباتي بشكل عام من كلوريد الصوديوم طوال الموسم.

كانت بداية العقد الأول من القرن الحادي والعشرين بمنزلة مجموعة من المقتطفات الحقيقية المعبرة عن سلوكيات متواضعة، فقد كان جميعهم يبدون من خلالها، وكأنهم على وشك اكتشاف التفوق. أحد فصولها ذلك الحدث الصارخ، ويمكن القول المضحك، المتعلق بأوراق حلوى السكاكر. وكنت ألاحظ وفي مناسبات عدة خلال جولاتي الصباحية عدة عبوات من الحلوى المتناثرة في أروقة الطابق الثالث. وفي اليوم التالي، كان يحل المزيد من السيلوفان محل سابقه. وحدث ذلك مرة أخرى في الأسبوع ذاته. كنت أنظف مع مرور الأيام دون أن أتساءل عن الشخص الجشع الذي

يمكن أن يكون مصدر مثل هذه البعثرة. وبعد ثمانية أيام، بدأت حلقة أخرى من تناثر البذور. ولكن هذه المرة تطايرت الأوراق في الطوابق كلها، وحتى في المصاعد. ثم خطرت لي فكرة لعرض أشرطة فيديو المبنى، لأكتشف مصدر هذه المزحة السيئة. فكانت الصور مرعبة. لقد كشفت عن هوغو ماسي، وهو رجل متقاعد يبلغ من العمر ستة وستين عاماً، وجاره الملاصق له دوريان ويست، ويبلغ من العمر ثمانية وخمسين عاماً، تاجر سيارات، وهما مقيمان منذ عهد متأخر، ويتجولان مثل أشباح الصباح، ويرميان أوراق الحلوى وقشورها بعد نزعها في كل مكان. في البدء في الطابق الذي يسكنان فيه، ومن ثم يغدقان بها على أرجاء المبنى كله. كانا يشتركان في عبث طفولي تافه كل صباح نحو الساعة 5:30 صباحاً، كما يتضح من رمز وقت القراءة. أتصور أنهما في مثل ذلك الوقت كانا يأملان أن ينثرا الأشياء باطمئنان، أي أن هذين العجوزين القذرين كانا ينهضان معاً عند الفجر، ليشتركا في هذا السلوك المثير للشفقة. ما الغاية من ذلك؟ محاصرتي، واختباري، وتشويه سمعتي، ولا شك، إن لم أجمع مايتركانه من فتات؟ وبكل بساطة لقد نسي هؤلاء الحمقى الكاميرات، ونظام المراقبة الذي يدفعان مبالغ عنه مقابل الصيانة الشهرية. فذهبت إلى أقرب متجر واشتريت كيسين كبيرين من حلوى السكاكر. ولصقت على كل واحد منهما كلمة، «شكراً على مقاطع الفيديو الرائعة هذه. - البواب -» ووضعت هداياي أمام باب كل منهما.

منذ تاريخ ذلك اليوم، استعادت الممرات نظافتها، واختفت جميع آثار استهلاك الحلويات من سطح أرضنا الصغيرة. وعندما مرا بي، ألقى كل من ويست وماسي، التحية عليّ بحرج واضح، جعلتهما يذوبان ببطء، مثل الحلوى.

في عيد الميلاد 2005. ولأول مرة منذ مدة طويلة، غادرت المبنى لمدة أسبوع. وخلال هذا الوقت من العام، كان العديد من السكان يهاجرون جنوباً إلى شواطئ كوبا وفلوريدا والمكسيك. كانوا يذهبون إلى هناك لامتصاص ذلك الضوء المبهر الذي كانت تحجبه ظلال الشتاء هنا. وذهب ريد لقضاء عطلة أعياد الميلاد في بوسطن، في منزل صديقة لم أعرف دورها الحقيقي في حياته.

وللإيواء خلال هذه الأيام القليلة التي كان علينا أن نقضيها معاً، استأجرت وينونا شاليهاً «الفصول الاربعة» أعلى بحيرة فريزر، شمال منتزه موريسي الوطني، واستعارت طائرة من نوع بيفر لمدة أسبوع. استبدلت الطائرة عواماتها بزلاجاتها الشتوية، وبالتالي يمكن أن تنزلق مثل حجر الكرلنغ على سطح المدرجات الثلجية. كان الحب الذي أكنه لزوجتي وهي تقود الطائرة يتأكد ثانية. كنت أحب تلك الساعات التي قضيتها في الجو معجباً بمهارتها، وهدوئها، عندما كانت الطائرة تبدأ بالإقلاع في جميع الاتجاهات، وفنها في استعادة المسار، والمحافظة على الاتجاه، على الرغم من رياح القص أكثر من أي شيء، وأخيراً هبوطنا على الأرض، أنا ونوك، بكل السلاسة التي كانت تتيحها لنا هذه الطائرة الريفية القديمة التي تعود إلى عام 1947. كانت وينونا تبدو موهوبة بقدرات صديقها الطائر الطنان، على الماء كما في الجو، وعلى الجليد أو عبر الغيوم، قادرة على الإقلاع في غمضة عين والتحليق في جميع الاتجاهات. ومثل قلب الطائر، كان قلبها يعرف أيضاً كيف يتكيف مع ظروف اللحظة، وهو مندفع العاطفة، بطيء في الاحتكام إلى العقل. كان من السهل للغاية أن تحب مثل هذه المرأة، وتتقاسم صحوها، وتستلقي إلى جانبها، وأن تشعر أن هذه اللحظة السحرية كانت بمنزلة نهاية العصور المظلمة. كانت زوجتي هي العباءة والعصا والأرنب والقبعة. كيف كان بوسع المرأة نفسها أن تقود طائرة، وتحبني، وتنقذ كلبتها، وتتحمل مبنى الإكسلسيور، تندفع من الثلج والماء وتؤمن بقوة الطائر، بينما تعطينا جميعاً الرغبة في العيش ونكهة السعادة؟ كنت أجهل ذلك.

كانت رحلة عيد الميلاد لعام 2005 إلى الشمال هي واحدة من لحظات النعمة التي من النادر أن نشهدها على مدار العمر. على الرغم من الطقس المتجمد، كانت الرؤية واضحة وضوح الشمس، وكنا نتوهم ونحن نرى السراب القطبي، أنه أراضي إقليم نونافوت البعيدة. وعلى ارتفاع 3000 متر فوق مستوى سطح البحر، في هذا الوقت من السنة، بعد تساقط الثلوج الكثيفة، بدت كيبيك كسطح قطني ضخم. اختفت بحيرات هذه المنطقة التي لا تُعد ولا تُحصى تماماً تحت الجليد، وتراكمت الثلوج. لقد كان هذا التجانس يجعل من تحديد أي اتجاه، فضلاً عن المشهد الجمالي الجريء،

أمراً صعباً للغاية، وكنت أتساءل عن السر الذي كانت تستطيع وينونا من خلاله العثور على العلامات التي تهتدي بها في هذه الكعكة الضخمة المحلاة بالسكر الجليدي. كانت معداتها تبدو لي بدائية، وأكثر ملائمة للطيران البصري من الملاحة باستخدام أجهزة القياس الآلية. لكنها لا تبدو قلقة على الإطلاق، وهي تلتفت أحياناً نحو ذيل الطائرة كما يفعل الطائر الطنان قبل تعشيق تروس المسير إلى الخلف. وبعد ساعتين ونصف الساعة من الطيران، اتخذت الطائرة وضعاً للهبوط، ثم حددت مسار النزول في مناورة الهبوط النهائية، فمثلت أمام مساحة بكر، لم يكن هناك ما يميزها عن مساحات أخرى، وجثمت بزلاجاتها بسلاسة، وهي تطبع بصمة ملامستها الطويلة على الثلج. عندما توقفت الطائرة، رأيت منزلاً خشبياً متيناً، كان الدخان لا يزال يتصاعد من مدخنته. قفزت نوك من المقصورة، وأخذت تجري في الثلج.

كان المنزل من الداخل فسيحاً ودافئاً، ويبدو أن ساكنيه قد غادروه منذ لحظات. كانت هناك على الطاولة المتمركزة في الوسط شمعة يفوح منها عطر «ونتر وايت» الممزوج برائحة العسل والتفاح والقرفة. كانت تلك هي معجزات عيد الميلاد، التي كانت وينونا خبيرة بها. عندما دخلت هذا المكان مع نوك وزوجتي الهندية الساحرة، ما كنت لأندهش، لو دفع الباب قطيع قليل من الذئاب، في تلك اللحظة، تلك الذئاب ذاتها التي علمتنا كيف نتكلم وكيف نقف في هذا العالم، وشاركتنا كأساً ترحيبياً. كانت هذه المرأة استثنائية، تحب وتتأمل وتحلل وتفهم هذا العالم من النظرة الأولى، وأعتقد أنني وخلال كل هذه السنوات من الحياة المشتركة، لم أرها تصل إلى عتبة العجز. في تلك الليلة، احتضنتها بين ذراعي حتى أدركنا النوم، بينما كانت نوك تراقب النار، والباب، والشمعة، والضوضاء الغريبة التي يصدرها البشر عندما ينغمسون في أمور غريبة الأطوار، كانت تبدو من وجهة نظرها ليست بذي بال.

مر هذا الأسبوع سريعاً على حياتنا، وخفف من متاعبنا، ومن الهالات السوداء التي تحيط بعيوننا، وأعاننا على إدراك من أين أتينا وكيف أصبحنا. كانت وينونا أقرب إلى غاباتها مما كنت أنا من سكاجين أو رصيف لومبارد.

كانت في كل يوم، تحلق فوق تاريخها وأراضيها، بينما كانت الشيخوخة تزحف عليّ تحت المخالب المؤذية في مبنى الإكسلسيور. ومع ذلك، لم أكن نادماً على أي شيء في هذه الحياة، التي يبدو أنها ليست ذات قيمة، ولكنها كانت كافية بالنسبة لي.

عندما يصبح الطقس صحواً، كانت وينونا تأخذني مع نوك للتجوال في الغابة، تريني آثار الحيوانات التي يمكن التعرف عليها بنظرة بسيطة، وتعلمني كيف أستدل على طريقي في هذه المتاهة الجليدية، والإصغاء إلى صوت الريح أو إلى رسالة حيوان من بعيد. كنت أتبعها دون أن أفهم شيئاً، لكنني كنت أتقدم إلى الأمام، بينما كانت نوك، مسرورة بما تقوم به، تفتح الطريق، متنبهة إلى كل الإشارات الصامتة، التي يمكن أن توجهها إليها زوجتي. كنت أحب هذا العالم، المقتصد بالكلمات، اليقظ، الذي وجد فيه العقل آثار أسلافه وردود أفعاله وملاحظاته، التي أنقذته في هذه الأوقات، التي لم نكن نتحدث فيها بعد.

أخبرتني وينونا في المساء عن عائلتها التي تفرقت، ولم يعد بإمكانهم رؤيتها. كانت تستحضر حياة الغونكوين اليومية، قبل أن يأتي المبشرون، ليحطموا قواعد عالم قديم للغاية ومعتقداته، ويوقفوا عجلة الاستمرارية إلى الأبد. وفي مساء يوم 24 ديسمبر - كانون الأول، وقبل القداس، أصبح أعضاء العديد من القبائل جوقة، ينشدون ترانيم عيد الميلاد «المَجْد لله في العُلَى. والليلة المقدسة»، باللغات الفرنسية والألمانية والإنكليزية والإيرلندية. كماروت لي قصة عمها «ناثورود» الرائعة، ويعني اسمه باللغة الأصلية «الرعد الصغير ابن الأرض». وكانوا ينادونه بـ نات. وهو يعيش في منطقة نائية، متزوج وأب لثلاثة أطفال، لم يكن لدى ناثورود طريقة أخرى لإطعام عائلته، سوى أن يذهب بحثاً عن عمل، فعمل في البداية كعامل منجم في يوكون، ثم عمل عاملاً بجمع التبغ، بعد ذلك استأجر 50 هكتاراً استغلها في تربية الحيوانات، ولكن ذلك كله لم يكن كافياً. فتعاقد كسائق شاحنة مع شركة النقل التي تربط تورونتو بفانكوفر. كان من المقرر أن يقطع المسافة في غضون أربعة أيام، مما يترك له القليل من الوقت للراحة. عند تقاعده، أعاد ناثورود المفاتيح إلى شركة شاحنات ماك التي عمل فيها، وعاد إلى عائلته.

لكنه كان يشعر أنه قد كبر، كما كان يشعر أن وقته أثمن مما كان يحسبه الآن. وذات صباح أدرك أن اليوم قد حان.

كان صوت وينونا يفتح بهدوء أبواب هذه القصة، باباً إثر باب. «جمع عمي الأسرة كلها وأخبرها: «لقد عملت من أجلكم. وهذا أمر طبيعي. لكنني اليوم رجل عجوز، وقررت أن أفعل شيئاً لنفسي، لي وحدي. قررت عبور كندا بجراري القديم، من المحيط الهادئ إلى المحيط الأطلسي. 8000 كيلومتر مع جراري القديم – من صنع شركة جون ديري – سوف تستغرق الرحلة الوقت الذي تستغرقه». بعد ذلك، قام ناثورود بنقل جراره بوساطة صديق إلى مدينة هورسشو باي بالقرب من فانكوفر. وهناك قاد جراره إلى الخلف، حتى وصل إلى حافة المحيط الهادئ، فغطت مياهه عجلاته الخلفية، ثم انطلق، متجهاً شرقاً. وفي غضون أربعة أشهر، وبسرعة 10 أو 15 كيلومتر في الساعة، ومهما كان الطقس، كان يقود جراره بهذه الطريقة، لنرى، كما كان يقول: «كيف كانت تبدو الطرق والناس في هذه البلاد، ولكنني كنت أريد قبل أن أموت، أن أفعل شيئاً لم يفعله أحد». خلال الرحلة، واجه الكثير من أنواع المغامرات والمغامرات السيئة. وعندما وصل عمي إلى الطرف الآخر من العالم تقريباً، إلى سانت جونز، ونيوفاوندلاند، توقف لحظة قبل دخول عجلاته الأمامية في تماس مع المحيط الأطلسي. وهناك، شعر بردة فعل مذهلة، فهو لم يكن يريد أن يشكك أحد في كلمته، ولذلك طلب من أحد الشهود أن يشهد على ما شاهده للتو، وأن يوقع على الوثيقة ويؤرخها. وعلى الرغم من أهميتها النسبية، إلا أن هذه الأوراق كانت من أكثر الأشياء التي لا تنسى، وأغلى شيء في حياته. وكثيراً ما كان يتحدث عن هذا الشاهد الشهير، السيد هوتشنغ، الذي أتذكر اسمه تماماً. بعد عدة سنوات، أخذني إلى مرآب السيارات، حيث كان يوقف شريكه القديم الجرار جون ديري، ورفع غطاء من الرف، وأخرج عبوتين من الماء. كتب على أحدهما بأحرف كبيرة «المحيط الهادئ»، والأخرى «المحيط الأطلسي». أراني هاتين العبوتين، وقال: «أنا من ملأهما من كل طرف من هذا البلد»، واحتقنت عيناه بالدموع. هذه هي قصة رحلة عمي نات».

عند ذاك كان انطباعي أن وينونا كانت تطوي كتاباً كبيراً من الصور،

وحكاية عجيبة نقرأها للأطفال لكي يحلموا أحلاماً سعيدة، ودون شك فإن الحكاية مؤثرة جداً، ومثيرة جداً، وأكثر إلهاماً، مما سمعت في حياتي.

«هل تعرف ما حدث يوم جنازته؟ مثلما طلب قبل وفاته، بعد إنزال نعشه في الأرض، اقترب أولاده من الحفرة، وأفرغوا محتويات العبوتين في الداخل». بالكاد كنا نسمع زفير النار. كانت خشخشة شجرة الراتنج تمنحه بين حين وآخر حياة إضافية، وفي البيئة المحيطة، بينما بدأت العاصفة الثلجية المتوقعة.

ارتدت وينونا سترتها الواقية وأحذيتها المبطنة بالفرو، وتوغلت في الظلمة، يحاصرها نثيث من مطر أبيض، للتحقق من أن الطائرة رابضة بشكل سليم. بدت وكأنها تأخذ مقاس الركام، ومن ثم، ببطء، على ما يبدو، ندمت على البقاء في الخارج لفترة أطول للاستمتاع بندائف الثلج، فعادت إلى منزلنا. جاءت نوك وحشرت خطمها تحت ذراعي، وبمرورها، قبّلتني وينونا، وتركتني وحدي مع عمها ناثورود، وهو يلوح بمياه المحيط التي تنحت جانباً، ذات يوم، لتسمح له بالمرور.

***

«بما أنني أشعر أن محاكمتي ستتم قريباً، أود الحصول على رأيك. ألا تعتقد أنه سيكون من الذكاء بالنسبة لي أن أعترف بالذنب؟ انتبه، لا أظن أنني فعلت أي شيء من هذا القبيل. أنا بريء أكثر من أي وقت مضى. ولكن بما أنني أعلم أن رؤوس القضاة ملتوية، فإنني أقول لنفسي ربما لديك فكرة تنصحني بها. لا أقصد بالقول إن لديك الخوذة المبرومة أيضاً، الأمر ليس كذلك على الإطلاق، ولكن بما أنك ذكي، فأنت تحسب حساب خطواتك، كل ما في الأمر، كنت أظن أن لديك رأياً».

قبل كل شيء، لدي قناعة عميقة أن باتريك أرسل صديقه المخبر إلى «أسلافه»، وأنه يبحث عن مخرج للخروج من ملف سيئ كان فيه في المكان الصحيح. «هل يمكننا أيضاً أن نقر بذنب الرجل الذي يريد أن يعترف بجزء قليل، ولكن ليس بكل شيء؟ دعني أشرح لك: في قصتي، القتيل، كنت أتردد عليه، حسناً. كنت أعلم أنه كان مخبراً، الأمر لا بأس به حتى الآن. أعترف

أيضاً أنني وضعت رغيفاً في فمه. حتى ذلك الوقت، لا توجد مشكلة. ولكنه توقف فيما بعد. وما حدث بعد ذلك، ليست لي أي علاقة به. عندما أصيب بـ 9 ملم في الرأس، كنت بالفعل بعيداً جداً. أنظر، تقريباً إلى المنزل إذا جاز التعبير. أحسب عشر دقائق بالسيارة. فكيف يمكن أن يشتبه بي؟ من هنا تأتي حيلة الإقرار بالذنب في جزء من القصة، وهو مجرد بداية. ماذا يسمى في المحكمة نصف الاعتراف بالذنب؟».

في ضوء ما شرحه لي باتريك فيما يخص ملفه، والشهادات التي ترد فيه، أعتقد أن «نصف اعترافه أنه مذنب»، ما هي إلاّ صيغة غير مسبوقة في قاعة المحكمة، تسمى السخرية من هيبة المحكمة، باستخدام مصطلحات هورتونية.

«في الواقع، بخلاف كلمتين أو ثلاث كلمات حمقاء، لا أعتقد أن لديهم الكثير ضدي. فمن خلال الإدلاء بخدعتي عليهم، فإنني أقدم لهم مخرجاً، وهو تعبير يستخدمه محاميّ دائماً. كان يقول لي: يا سيد هورتون، يجب عليك دائماً أن تعطي القاضي مخرجاً للحكم، وإلاّ يسدد عليك. بالعودة إلى الخدعة، الأخذ والعطاء، أعترف بحماقاتي ويحكم علي القاضي بالعقوبة التي قضيتها بالفعل. فنتصافح وأحيي فرنسواز! ما رأيك في ذلك؟ أنا، في رأيي، هذا صحيح. خاصة عندما تعلم أنه باستثناء حقيقة الخبز، فأنا بريء تماماً».

في ظل هذه الأوقات العصيبة، يمر باتريك في واحد من أيامه السيئة، حيث تستعمر عقله كل أنواع الأفكار أو الآراء الطفيلية، مما تضعف حكمه وحسّه السليم. في مثل هذه الأوقات، كان من الأفضل أن أترك البخار ينبعث، وأنتظر انخفاض الضغط. إنه دون شك جدول عمل كان ينبغي عليّ اتباعه بنفسي، في اليوم الذي انقلبت فيه حياتي إلى الجانب الخطأ في مبنى الإكسلسيور، لاسيما عندما وجدت نفسي فيما بعد أمام القاضي، ولم يكن لدي حتى حضور ذهني للدفاع بـ «نصف مذنب».

***

كانت بداية عام 2006 محنة حقيقية بالنسبة لي. كما تنبأ كيران ريد، بعد

بضع سنوات من ترويض تشغيل المحركات، كان «مخفض الكلفة» يبيّن كل ما هو قادر عليه بصورة كاملة، فهو يتحقق هنا، ويحذف هناك، ويضاعف الإضافات غير الضرورية في فقرات اللوائح الداخلية التي كانت تأخذ، منذ توليه الرئاسة، مظاهر أدلة الهاتف. نحن لم نعد نعيش في مبنى، بل أشبه مايكون بإمارة استبدادية، كان الأمير يقرر فيها كل شيء. والمثير للدهشة هو أن السكان جميعهم خضعوا طواعية لأهواء الملك الصغيرة، حيث كنت عرضة للأذى بجميع الطرق، بوصفي أول شخص مسؤول عن إنفاق جواهر التاج. وكان سيدويك، وهو يتابع السجلات الإدارية، يوبخني على شراء الكثير من الملح للبركة، والكثير من المنظفات المنزلية، وعدم اتباع توصيات الشركة المصنعة بدقة بشأن فترات صيانة ماكينة جز العشب، ووضع مستوى جهاز تنظيم الحرارة بشكل مرتفع للغاية، لإنتاج الماء الساخن، في الوقت الذي حددها مجلس الإدارة نفسه، وعدم إخراج حاويات القمامة في وقت قريب بما يكفي، وإدخالها فيما بعد بشكل متأخر، وعدم إبقاء كلبتي مربوطة في الرواق عندما كنت أخرجها للنزهة. كنت أشعر بالخجل من تلقي هذه الملاحظات لدرجة أنني كنت أخفيها عن مرأى وينونا، ولم أجرؤ على إخبار ريد عنها. أعتقد أن سيدويك كان «يحسب سبع عشرة خطوة سابقاً»، كما يقول باتريك، وإن استراتيجيته - ليدفعني إلى الاستقالة ليحل محلي مزودو الخدمات - ظلت عالقة في ذهنه منذ مدة طويلة.

إن عملي في الصيانة والإصلاحات على وجه الخصوص، والذي طالما كان مصدر ارتياح بالنسبة لي منذ مدة طويلة، حيث يمكن أن يشعر به حرفي بمجرد إنجاز عمله، لا يمثل الآن سوى سلسلة من الإجراءات التي تنفذ بشكل أعمى، ودون آفاق حقيقية. لم تعد لدي رغبة في مناقشة أي شيء، مكتفياً باتباع خرائط الطريق بغباء، والتي كانت تقود الإمارة مباشرة نحو انهيارها.

لم أعد أستجيب للطلبات الشخصية التي «كانت تتجاوز اختصاصي». كان المالكون يعرضون عليّ إجراء إصلاحات صغيرة، والتي كنتُ أجريها مجاناً. فلم يكن بوسعي سوى التملص منهم، أو توجيههم إلى مصلح. في معظم الأحوال، كانوا يأخذون رفضي على محمل سوء النوايا وعدوه مسألة

شخصية. وسرعان ما تحوّلتُ من حاجب لطيف تحت حكم الكسندر، إلى بواب مشاكس في الولاية السيدويكيانية. لم أكن أعرف ذلك بعد، ولكن منذ بداية ذلك العام، بدأ العد التنازلي بالنسبة لي.

كل ذلك لم يكن شيئاً مقارنة بالمحنة التي دمرت جزءاً من حياتي وإلى الأبد، والتي ما زلت أتحمل وزرها الذي لا يطاق، وكأنها في يومها الأول. في ليلة المأساة، انتابني إحساس غريب، وهو أن الشخص الوحيد الذي فكرت فيه، والذي كنت بحاجة إلى أن يحتضنني، كان والدي يوهانس هانسن، القس الذي أحمل اسمه. في تلك الليلة، أتذكر أنني طلبت منه طلباً صراحة لم أطلبه منه قط في حياته: «أبي، ساعدني هذه المرّة». لا أعرف ما إذا كان هناك ما يجب القيام به، لكنني كنت آمل حدوث معجزة تنقذنا من الغرق، من خلال إخبارنا أن كل شيء قد انتهى، وأن شيئاً لم يحدث، وأننا جميعاً سنذهب إلى المنزل، ونتناول العشاء معاً، ثم نطفئ أضواء يوم سيء وذكرياته.

في يوم السبت 12 أغسطس – آب 2006، استيقظت وينونا باكراً. لا أدري ما إذا كانت قد قبلتني كما اعتادت عندما كانت تغادر قبلي. كان لديها موعد في الساعة 8 صباحاً، في القاعدة المائية لقيادة ثلاثة صيادين ومعداتهم إلى شواطئ بحيرة ميستاسيني، بالقرب من بلدية شيبوغامو، في رحلة تستغرق ساعتين ونصف الساعة شمال مونتريال. أقلعت طائرتها البيفر في الساعة 9 صباحاً من نهر بريري، وابتعدت وعلى متنها، مثلما هو الحال في كل نزهة، الرجال المتحمسون للغاية لمقابلة رجال آخرين، وهم يحملون في حقائبهم مكملات هرمون التستوستيرون، وما يلزم من الجعة والطعم اللازم لإغواء الأسماك.

مضى النهار وحل الليل. ولقد اعتادت وينونا الاتصال بي عندما كانت الشبكة تسمح بذلك، عند الشروع بالعودة، لتخبرني أنها ستقلع، وكيف كان يبدو الطقس، وما هو الوقت الذي ستكون فيه في المنزل. ولما لم يصل أي خبر، اتصلت نحو الساعة 8 مساءً، بـ براديبه مدير شركة خطوط بيفر الجوية، الذي أخبرني أنه ينتظر الطائرة ولكن ليس لديه مزيد من المعلومات.

هبط الليل، وأشعلت جميع المباني الشاهقة في المدينة التي تحاذي النهر مصابيحها الواحد تلو الآخر في الصيف. بينما في الغرب، كانت آخر أشعة شمس الغروب، وهنا، جمرات القلق، أمام نافذتي. لم يكن هناك سبب مقبول ومعقول لعدم عودة وينونا بعد. كان يجب أن تكون عودتها نحو الساعة الخامسة مساءً. إذا لم تتصل بأحد، فذلك يعني بسبب حادث يمنعها من ذلك. في الساعة 10 مساءً تقريباً، أخبرني براديه أنه تمكن من الاتصال بأحد الصيادين، الذي أكد له أن وينونا قد أنزلتهم ظهراً قبل مغادرة البحيرة إلى مونتريال في الساعة 1:30 بعد الظهر. وأضاف: «ببساطة الآن أعتقد أنه يجب عليّ الاتصال للبدء بالبحث».

كنت أمضي الليل في الظلام، أجلس على الأريكة، ممسكاً الهاتف. بينما كانت نوك تضغط على جنبي. وللمرة الأولى، لم تلمس طعامها المسائي عملياً. وبسبب تأخرها الذي لا يرحم، كان ضغط الإرهاق يسحق لساعات كل مساحات الأمل التي كانت لا تزال باقية في داخلي. عندما دخل ضوء النهار إلى منزلنا مرة أخرى، شعرت أن وينونا قد توفيت، وأن كل شيء انتهى، وأن زوجتي لن تعود أبداً؛ ففي هذه المرة فقد الطائر الطنان قوته وجناحيه. بين لحظة وأخرى كان الهاتف يرن، وصوت يقول: «هل أنت السيد هانسن؟» وبالتالي ما كان يقوله لا أهمية له على الإطلاق.

جاء ريد الذي سمع الأخبار من تقارير الأنباء، ليشاطرني انتظاري. لم يقل شيئاً مهماً، ثم قام وأعد القهوة التي شربناها في صمت برشفات قليلة.

قامت طائرة هليكوبتر وطائرة عسكرية بدوريات على امتداد الممر الجوي الذي يعتقد أن الطائرة استقلته. ولكن دون نتيجة. وفي يوم الاثنين، توقف البحث بسبب عاصفة رعدية صيفية قوية مصحوبة برياح شديدة. لم أغادر شقتي إلا للسماح للكلبة لقضاء حاجتها، ثم نعود إلى كهفنا لنخفي فيه آلامنا ومخاوفنا. لم تعد نوك تتناول العشاء. كانت تبدو، وهي المليئة بالحياة والطاقة عادة، ترتدي حداداً خفياً. لم تتركني، ليس لكي تشعر بالطمأنينة، بل لمواساتي. أدخلت أصابعي في شعرها الطويل، وأمسكت بصدرها فأحسست بنبضات قلبها على يدي. لم يكن بوسعي أن أفعل أي شيء سوى أن أدفن وجهي في معطفها، وأقول لها إنني أحبها وأبكي. كنت أعرف أن

وينونا ماتت. اختفت في سقوط الطائرة وتحطمها. وكان جسدها محاصراً في الطائرة في قاع البحيرة. أو تفحمت في انفجار قمرة الطائرة. في الواقع، لم تكن لدي رغبة في معرفة أي شيء عن الظروف، لأن إعادة التشكيل البطيء للدراما ستبدأ بعد ذلك، وخاصة الكم الهائل من الأسئلة حول حالة الجسد، ودمار الوجه، وآلام البشرة، وتشظي العظام، وخاصة صناديق العقل السوداء الخفية، التي لن تعيد إحياء الكلمات والأفكار والغضب والذعر والألم في الثواني الأخيرة، تلك التي بدأت، حتى قبل التحطم، لنفهم أن الإنسان والكلبة ينتميان بالفعل إلى العالم الآخر، العالم الذي على الإنسان أن يرتاح فيه، وهو يروي الحماقات عن الطيور، وصبر الذئاب، ونعم الآلهة، وتدريب أرانب الكنيسة، وحتى صلابة الطائرات، حتى لو كان جميعنا يعرف أنها «تتمتع أحياناً بسمعة الغدر، وليس لديها ما يكفي من الرفع لمواصلة الطيران، فتفقد السرعة، وإن إعادة استخدامها يُعد خطراً، حتى في بعض الحالات القاتلة».

لم تكن لدي رغبة في التفكير في هذه الأمور كلها، واستضافة هذا الكم من الأسئلة، وهذا الفيض من الفرضيات غير المجدية، والكلمات التي بالكاد تكون مفهومة، والتي جمعت، ولصقت بعضها ببعض لمخادعة التوقعات، ورفع جدار القدر، بأقصى سرعة، بين الذات وبين الخبر القادم، والذي يعلم جميعهم، مع ذلك، أنه في اللحظة الأخيرة، سيمحو هذا الدفاع الهزيل بكلمة واحدة.

وصلت المعلومات في وقت مبكر بعد ظهر الخميس. قُرع جرس الباب. كانا عضوين من شرطة الخيالة الملكية الكندية.

«جئت لأخبرك عن نتيجة البحث. لقد أُكتشف حطام الطائرة هذا الصباح نحو الساعة 8:30 صباحاً بالقرب من جزيرة سيدرعلى بحيرة كمبت، على بعد رحلة طيران تستغرق ساعة واحدة من مونتريال. على ما يبدو، حاولت الطائرة الهبوط الاضطراري، ولكن حدث خطأ ما. وبدأت فرق البحث في الموقع تحاول استعادة جثة زوجتك. للأسف توفيت. سنصطحبك بمجرد إعادتها إلى مونتريال. نحن آسفون حقاً. تعازينا وأسفنا».

كان الدركيان يقفان أمامي. حاولت أن أقول لهما كلمة، لكن لم يكن ذلك ممكناً. خرج مني شيء ما، وأنا أركض بأقصى سرعة، للأمام مباشرة، شيء كنت أحتفظ به منذ الطفولة، ربما كان جزءاً من نفسي لم يرجع منذ ذلك اليوم. لذا نظرت إلى الدركيين، وحاولت أن أسند يدي اليمنى على أحدهما، وأنا أشعر بثقل العالم يسحقني، ويجردني من دعم ساقيّ، فتهاويت ببطء عند أقدامهما.

في المشرحة، أعتقد أن جميعهم بذلوا قصارى جهدهم حتى أتمكن من التعرف على جسد وينونا المشوه. لم يكشفوا لي سوى عن وجهها المعذّب، ولم أحد بنظري عنها، بقيت لحظة إلى جانبها لأنقش في داخلي كل جزء مما تركته لي المصيبة، وعندما كان القلب على وشك الانفجار، خرجت.

من ناحيته، تمكن ريد من التعرف على أحد أفراد عائلة وينونا البعيدة، فتحرك هذا الرجل من مكانه، وقدم لي نفسه بوصفه ابن عم من جانب والدها. كنا نجهل بعضنا بعضاً، ولم يكن لدينا ما يقوله أحدنا للآخر، باستثناء الأساسيات.

«كانت وينونا ماباشي ابنة شقيق والدي الثاني. ذهبنا إلى المدرسة معاً، ومن ثم فرقتنا السبل، ولم نتواصل بعد ذلك. عندما سمعنا بما حدث، قال والدي العجوز: «اذهب إلى هناك، واسأل هذا الرجل إذا كان سيوافق على إعادة جثمان هذه الطفلة إلى أرضها، ودفنها هنا في منزلها». هذا ما قاله.. وجئت لمقابلتكم لتقديم هذا الطلب».

لا أدري ما الذي كانت زوجتي تريده، فلا شيء أكثر عبثاً من الرغبة في التفكير في مكان الموتى. لذلك تركت قلبي يتكلم، فقال نعم، يمكنك أن تأخذها إلى منزلها، بين أهلها. لكنني لن أسافر إلى الشمال. سأترك الأمر لك لتأخذها، وتهيئها وتحتفل بها في ليلة قبرها. وسأعهد إليك حتى بطائرها وعليك أن تدفنه معها. أما أنا فأحتفظ بالباقي. سأحتفظ بهذه السنوات الإحدى عشرة من السعادة التي منحتنا الحياة، إحدى عشرة سنة عشناها بين الأرض والسماء، بفضل هذه الابنة المذهلة، ابنة شقيق والدك الثاني. كانت تلك التي حاولت الوقوف إلى جانبها باستقامة دائماً، في الثلج

والغابات والصيف والعواصف الرعدية. كنت معها في كل مكان. وكانت تمتلك موهبة الكشف عن أجمل ما في الإنسان. أترك لك هذا الجسد الذي حطمته الطائرة، لكنني أحتفظ بكل الباقي، لكل منا تراثه. المشاركة مرعبة. قدها برفق.

خلال الأسبوع الذي تلا اكتشاف الطائرة، بقيت حبيساً في شقتي. لم أنشغل بمبنى الإكسلسيور لثانية واحدة. ولم يطرق بابي أي من ساكنيه. ولم يأت أحد ليتفقد أخباري. وحتى أنسى ما حدث، أبلغني ريد أن سيدويك نفسه نشر ملحقاً جديداً للائحة الداخلية، حدد فيه استخدام كراسي الاستلقاء «التي يجب عدم تركها بعد الاستخدام في المناطق العشبية».

كانت رطوبة الهواء تتسلل في كل مكان. ربما كانت وينونا بالفعل في الأرض. هذه الفكرة كانت لا تطاق بالنسبة لي. في ساعات كانت تراودني فكرة أن أهرع إلى السيارة، وأذهب لأستعيدها من الهنود. في أوقات أخرى، كنت أتخيلها تسير في سلام أهلها وأرواح أسلافها، وهي تروي لهم، على سبيل المثال، أن هناك حيث كان بإمكانها أن تميز ثمانين نوعاً من الثلج، هناك الرجل الأبيض، وهو لم يكن يرى سوى «الركام».

كانت نوك تمشي على خطاي، ولو استطاعت، لعاشت في داخلي، كنا نخرج ليلاً، نتمشى لمسافات طويلة في الشوارع، وفي منتزه أونتسيك. وعندما تكون درجة الحرارة خانقة، والهواء مشبعاً بالرطوبة، كما هو الحال غالباً في هذا الوقت من العام، كانت الكلبة تجري وتتوقف عند حافة المسبح الكبير في الحديقة، كانت تتململ بفارغ الصبر، وتحدق بي بعينيها الداكنتين اللتين كانتا تقولان لي بوضوح: «هل يمكنني الذهاب إلى هناك؟» فأقترب منها، وأداعب وجهها اللطيف، فأرد: «هيا اذهبي!» فتقفز نوك قفزة، وتلقي نفسها في المياه، وتجول فيها من طرف إلى طرف آخر، كما لو كانت، في مكان ما في هذا الحوض، حياة رجل غريق تعتمد عليها. في هذه اللحظات العابرة، شعرت أنا وهي بالشعور نفسه تماماً، هذا الشعور، الذي في داخلنا، لبضع دقائق، كان يسترجع بعضاً من الفرح والسعادة.



العودة إلى سكاجين

أصبح كل يوم عمل من أيام العمل في مبنى الإكسلسيور، عبئاً ثقيلاً بالنسبة لي. كنت أواصل الصعود إلى سقفي، وأقوم بجولاتي التفتيشية، وأستمع إلى حركة دوران الماكينات، وأزن الملح بالميزان الإلكتروني، مثلما يفترض أن يوزن في الفناء الخلفي للمطبخ الراقي. كان سيدويك عازماً على فحص سجل النفقات وتدوين ملاحظاته للقراءة هنا وهناك وتوزيعها. وكان كيران ريد، الذي تقاعد، يمضي معي المزيد والمزيد من الوقت في المساء، محاولاً سحبي إلى مطعم هندي أو فيلم أرجنتيني. ولكنني لم أكن مسترخياً إلاّ عندما ألتقي بكلبتي نوك، التي كانت ترحب بي في كل مرة أعود فيها، كما لو كنت قد عدت من رحلة بعيدة.

كنت أفكر في بعض الأحيان بالسيد سليغمان، متسائلاً عما إذا كان هناك في هذه المدينة كنيس يهودي، حيث من الممكن أن يصبح المرء في حال أفضل من خلال رياضة الترمل، على غرار رياضة الغولف أو التنس، كنيس فيه حاخام يلتزم بفلسفة صديقي هورتون الأساسية: «الحياة مثل الخيول الرخيصة، يا بني: إذا رمتك، فعليك أن تغلق فمك وتركبها ثانية على الفور».

على الرغم من كل التوقعات، كان العمل في عام 2007 هو الذي ساعدني على التعافي، واستعادة بعض الكرامة، لمحاربة أوهام سيدويك الاستبدادية. خلال الشتاء، وبعد عمل شاق في الطابق السفلي في يوم الأحد، تمكنت من إعادة تزويد المبنى بأكمله بالماء الساخن في ذات المساء. وفي منتصف آب / أغسطس، بعد 72 ساعة من القياسات والتعديلات المستمرة، كنت قد أنقذت حمام سباحة المالكين الثمانية والستين و230 ألف لتر من مياه

حوض السباحة، التي حكمت عليها الشركة، التي أدارت صيانة المنظومة الجديدة قبل بضعة أيام لتصريفها في مجاري الصرف الصحي. وفي غضون بضعة أشهر، وأمام الهلع الكبير الذي أصاب من كان يعتقد أنه قد تخلص مني، أصبحت مرة أخرى ذلك الشخص صاحب المعجزات («إدوارد ذو الأيدي الفضية») الذي كان يشذب الشجيرات بشكل واضح ومستقيم، ويضبط الأنابيب ويعيد المياه.

وفي المساء، كانت عودتي إلى الشقة تقودني فجأة إلى هذه الأرض، وإلى بابي الذي يفتح على منطقة داخلية مدمرة منذ 12 أغسطس - آب 2006. كنت أجهز شيئاً لتناول الطعام، وأنا ونوك جنباً إلى جنب، نتشارك وجبة الطعام ذاتها في أطباقنا.

يمكن القول إن شتاء 2008 كان من أكثر فصول الشتاء، التي تساقطت فيه الثلوج في تاريخ هذا البلد. ففي كيبيك، تساقطت الثلوج بارتفاع 2.50 متر خلال هذا الموسم، والشيء نفسه ينطبق على مونتريال. وقد اعتدت على استخدام منفاخ الثلج الصغير مرتين يومياً، لفتح منافذ مبنى الإكسلسيور ومداخله. وللتحقق من أجهزة امتصاص الغازات، على السطح، كان عليّ حفر خنادق حقيقية في أكوام الثلج، ومسارات أساسية، كان ينبغي إزالتها كل صباح باستخدام المجرفة. كان الوحيد الذي يبتهج بهذا السقوط المتواصل للثلوج هي نوك، التي لم تعد تقفز في متنزه أونتسيك، بل كانت تتدحرج، وأحياناً تختفي، في جبال من الثلج البكر لتخرج منها، ثم تركض حتى ينقطع التنفس.

كان صيف ذلك العام أيضاً فائضاً في درجة الحرارة والرطوبة. كان لدينا انطباع، خصوصاً في الليل أننا نعيش تحت غطاء، ونغلي على نار هادئة في أبخرتنا ومزاجنا. مر النصف الثاني من شهر أغسطس - آب بالكامل في ظل هذه الظروف، واختار ريد أن يذهب إلى المنفى مع صديقته في بوسطن، التي كانت هي أيضاً تمتلك مسكناً مؤقتاً على شاطئ ريكسهام. كان يتصل بي في بعض الأحيان عند حلول الليل، وبمجرد سماع نبرة صوته، أشعر أنها وحدها من لديها القدرة، على أن تحمل إليّ نفساً من هواء المحيط.

في إحدى الليالي، حيث لم أعد أطيق البقاء مدة أطول، مختنقاً في شقتي الصغيرة في الطابق الأرضي، ارتديت ملابس السباحة، وبينما كان جميعهم نياماً نحو الساعة 2 صباحاً، ذهبت إلى المسبح، الذي كانت منظومة إضاءته متوقفة.

دخلت الماء، الماء مائي، هذا الماء الذي كنت أحافظ عليه وأجدده لسنوات عديدة ليكون صالحاً للعوم، مائي الذي كنت أعالجه بالملح، والتحليل الكهربائي، وتصفيته، وتكريره بالهيدروجين، الماء الذي قضيت العديد من الأيام والليالي، وأنا أراقب وأسهر على موازينه البيولوجية ودرجة حرارته الصحية في 84.2 درجة فهرنهايت. دخلت هذا الماء مثلما يدخل المرء حقله. شعرت به يعانق خصري، ويغطي كتفي وظهري، ويلتف حول رقبتي ويغمر رأسي. منذ أكثر من عشرين عاماً كنت أعمل هنا، وكانت هذه هي المرة الأولى التي تسللت فيها إلى هذه المنطقة الرائعة التي كانت ممنوعة عليّ. كنت أسبح تحت الماء، وأغطس، مستمتعاً بهذا الحمام المعجزة. كنت أحب هذا الماء وأشعر أنه يحبني أيضاً. كان «قوامه» خفيفاً متجدد الهواء إلى حد ما، كما لو كان مؤكسجاً بعدد لا نهائي من الفقاعات المجهرية، كما كان يقول لي السيد سيبيليوس في كثير من الأحيان. بين حين وآخر كنت أطفو فوق السطح لأتنفس بعض الهواء النقي، قبل أن أعود لأحرك تلك الأعماق التي عملت فيها كثيراً. وللمرة الأولى منذ كل هذه السنوات، كنت أخرق القاعدة، وكان الأمر رائعاً. لا أستطيع القول كم من الوقت استغرق هذا الحمام، ولكنني عندما خرجت منه، تذكرت تعنت سيدويك ودناءته بحرمان وينونا من هذه المتعة، طوال السنوات التي أمضتها هنا. ما لم يستطع رقيب المبنى التافه من معرفته هو أن زوجتي في أثناء الصيف، في أثناء رحلاتها، المغمورة في عالمها، كانت تسبح في أجمل بحيرات البلاد البرية، بينما كان يطوف بجوار المبنى مثل الحارس.

عندما عدت إلى الشقة، أخذت نوك معي وذهبت لتنتعش بمياه حمام القدم. ثم نمنا، ونحن منتعشين سعيدين، مثل لصين صغيرين في نهاية يومهما.

بعد ذلك بيومين تلقيت مكالمة من سيدويك: «بول، هل كان عليك أن تقابل المتعهد صباح الغد؟ اتصل بهم والغ ذلك. أطلب منك الحضور

غداً الساعة 10 صباحاً في قاعة المجلس. لقد دعوت إلى اجتماع استثنائي للمجلس وجميع الملاكين المشتركين للبت في نقطة تسوية تخصك. الساعة العاشرة غداً».

أعتقد أن عدد الحضور كان كاملاً. جميع الطوابق. جميع الأبواب. فرادى، وأزواجاً وكباراً وأجيالاً مختلطة، ترأس سيدويك الاجتماع، محاطاً باثنين من مستشاريه المستعدين لاتباعه إلى أقاصي الأرض. «صباح الخير جميعاً. يتعلق هذا الاجتماع بنقطة نظام رئيسة خالفها بول هانسن، المسؤول عن خدماتنا. خلال ليلة الثلاثاء على الأربعاء، وفي نحو الساعة 2 صباحاً، وبينما يحظر عليه عقده هذه الإمكانية بشكل لا لبس فيه، ذهب السيد هانسن للسباحة في حمامنا، دون علمنا جميعاً. وتشهد بذلك كاميرات المراقبة على هذا الانتهاك. وكما لو أن عدم الامتثال للقواعد لم يكن كافياً، عاد بعد لحظات قليلة من حمامه برفقة كلبته، التي غمرها في حمام القدم». مثل رجفة شتائية، سادت ضجة رافضة في الصالة. وكان الهياج العام يؤدي إلى تأثير ضئيل. وبلغته الإجرائية، واصل سيدويك لائحة الاتهام: من خلال القيام بذلك، يا سيد هانسن، ارتكبت سوء سلوك مهني خطير، وخرقت عقدك من جانب واحد، وقبل كل شيء، خنت الثقة التي وضعناها بك جميعاً هنا. وكنت قد تجاهلت، وأنت تغطس كلبتك في حمام القدم، قواعد النظافة الأساسية التي سننتها بشأن استخدام حمام السباحة، حيث قمت بتعريض جميع الملاكين المشاركين للخطر. ولهذه الأسباب التي تستبعدك تعاقدياً، أطلب أن يصدر هذا اليوم أمر تسريحك، والذي سيدخل حيز التنفيذ في نهاية سبتمبر - أيلول. ستتلقى بالطبع كل مستحقاتك ويجب عليك إعادة المفاتيح إلى مكان إقامتك. وقبل طرح هذا الاقتراح للتصويت، هل لديك أي شيء تضيفه، يا سيد هانسن؟» ومثلما كان يحدث أحياناً في الكنائس التي عمل فيها والدي، أخذ الحشد الصغير يصدر همساً لم يكن يعرف ما إذا كان ذلك تعاطفاً أو مجرد تعبير عن حشرجة بسيطة من الاستنكار.

ماذا يمكن للمرء أن يقول أو يستجيب أو يضيف بعد أن سمع مثل هذا الشيء، لائحة اتهام مطرزة بأجمل خيوط اللؤم؟ أكثر من عشرين عاماً من الخدمة المخلصة، وزيادة ساعات العمل، وشكل من أشكال القنانة في

جميع الطوابق، ورعاية الحديقة، ومعركة المياه، والحملات ضد الشتاء، وأغلفة الحلوى، ودعم المرضى، والإنعاش، ومسح المرضى بالزيت وهم على فراش الموت، والدفن، كل ذلك يلقى في سلة النسيان بسبب حمام منتصف الليل.

من أقصى طرف في الصالة، كان هناك صوت يعلو، هو صوت يوهانس، كما في أجمل ساعاته، ذلك الصوت الذي كان يرفعه عمال المناجم من الآبار، ويتحدث بصوت أعلى وأقوى وأطول من انفجارات المنجم، الصوت الذي كان يصرخ في آذان الخيول في حلبات السباق، ذلك الصوت الذي رآني أولد، وأكبر ولم يخذلني أبداً، ذلك الصوت الذي كان موجوداً حتى اليوم يصرخ بي أن أمسك قضيب الحديد، وأشذْب غابة الوقاحة، والجهل والشر، وأضرب الأحمق بشدة، وأهاجم الأبله، وأنقذ نفسي من المياه.

كنت أتمنى لو أن كيران ريد قد عاد من بوسطن في ذلك اليوم. لا شك أنه كان سيكيل الاتهامات ضد الحشد، ويهاجمه من كل جانب. ولكن كلا، لم تكن هناك معركة أو حتى مشروع دفاع من جانبي. لقد أتاح لي الإجماع (ناقص أربعة أصوات) ثلاثين يوماً للملمة ذاكرتي، وكلبتي والقليل من الكرامة التي كانت باقية لي في شاحنة صغيرة. فغادرت الصالة دون أن أقول كلمة واحدة. شعرت أن دماغي كان مقفلاً، وأنه لم يستطع أن ينتج أي شيء واضح، إلا أنه يجعلني أشعر بالشعور الرهيب بالخزي خفية. في ذلك اليوم، علقت عبارة مثل مرارة الصفراء في فمي طوال اليوم، كانت تقول ما يجب قوله، وما أن تبدأ، حتى تتكرر مرة أخرى. وردت في كتاب تاريخي لوالدي فيه: كان أسقف كاثوليكي معروف بازدرائه ينصح الآخر، من خلال استحضار مقاومة رجال الدين الأدنى، للتنكيل بالطبقة الأدنى دون هوادة: «سترى، الإنسان مطواع».

في نهاية الاجتماع، تحدث معي سيدويك: «بالطبع، يابول، هذا ليس أمراً شخصياً بالمرة، ولكن هناك نظم يجب علينا جميعاً اتباعها. أنا متأكد من أنك فهمت». وغادر مع حاشيته الإمبراطورية، ليجلس دون شك في محكمة أخرى، في مكان آخر، في عالمه من حرس الحدود والمدونين المكلفين بمطاردة جميع حمامات البوابين في الصيف وتسجيلهم ومعاقبتهم.

ولأن هذه هي طبيعتي، واصلت أعمالي في الصيانة، في حين كنت وأنا أملأ، في المساء، أولى صناديق الكارتون، كانت نوك، تتساءل عما يجري الإعداد له، وتتشمم الصناديق الواحد تلو الآخر، وتعرب عن قلق معين.

كنت ذات عصر يوم أتصبب عرقاً، وأنا أنتهي من قص بقعة من الحديقة، عندما توجه إليّ سيدويك. لم تتح لي سماعات الرأس المانعة للضوضاء سماع بداية كلماته. لكن الباقي كان واضحاً تماماً: «كم مرة يتعين تكرار الأشياء عليك، يا هانسن، لكي تفهم!» ماذا يدور في رأسك! لقد طردت بسبب سوء سلوك خطير، وبعد ثلاثة أيام تستأنف العمل. «هل أنت أحمق أم ماذا؟» لا شك أنني كنت أتحمل هذا الرجل مدة طويلة. بل كنت أكثر من ذلك لأنني لم أكن أفهم على الأقل ما الذي أثار فيه في تلك اللحظة، مثل هذا القدر من الغضب. «انظر أين كلبك، يا هانسن! ينام في العشب! بالقرب من أشجار القيقب!» كانت نوك مستلقية في الظل قريباً جداً من الأشجار، في زاوية خضراء، محاولة استعادة القليل من الحيوية. لا بد أنها اتبعتني، ولم تقرأ المحظورات في اللوائح، الفقرات التي تحكم حياة الرجال بالتأكيد، ولكن بشكل أدق حياة حيواناتهم. قال سيدويك شيئاً، وهو يستشيط غضباً، أيقظ في داخلي الدرس الذي علمتني إيّاه الذئاب الذي يقول: «ابعد عني هذا الحيوان اللعين خارجاً. لا أريد رؤيته في هذا المبنى بعد الآن! هل هذا واضح؟ في الخارج، كلاهما، في أسرع وقت ممكن!» وهذا هو الطريق الذي أرشدتني إليه الذئاب. فقفزت على المدير، واصطدمت به ودحرجته حتى حافات المسبح. ثم أخذت أضربه بقوة، مدة، ودون تمييز، وبكل وحشية القطيع، فشعرت أو سمعت صوت عظمين كانا يتكسران، وما زلت أضرب، حتى انتهى بي الأمر إلى أن أغرز أسناني في كتفه بعمق، فاقتلعت منه قطعة من اللحم. كنت أمسك بقطعة لحم سيدويك في فمي، ولم يكن لها طعم على الإطلاق، إن لم يكن طعماً مقرفاً بدم فاسد. كنت أسمعه يصرخ، ويتوسل إلى شيء لم يعد بإمكاني أن أعطيه إياه، من شفقة أو شيء من هذا القبيل، من الممكن أن يجده المرء في كتيبات التقوى. كان يستجديني بشيء ما، وربما كان ينادي حارسه، وجيوشه، للمساعدة، ولكن لم يأت أحد. جرّرته إلى حافة الماء، وسقطنا معاً، مثل سبّاحين مرحين، في قاع حوض

السباحة. كان يكافح، وكان شعره يرفرف يميناً ويساراً مثل الأعشاب البحرية التي تجرفها التيارات. كنت أغرقه ببطء، وأنا أشاهده في ضبابية مياهي، التي لم تكن تنتظر سوى أن تتمكن من دخول رئتيه، وتُخرج منها كل أثر للهواء وإلى الأبد. على السطح، كنت أخمن أشباحاً تروح وتجيء، وأسمع أيضاً نباح نوك المكتوم، وقطيع الذئاب بأكمله. لم يعد للوقت مزيد من الواقعية أو التناغم، بل كان يبدو أن قوام الماء هو وحده الموجود بخيوط الدم هذه، التي انتشرت بسبب العضة التي أنزلتها بكتف مديرنا. كان يكافح مثل الحيوانات التي لا تزال تريد العيش، عندما يحاول البشر إغراقها لأنهم لم يعودوا يريدونها. حدث ذلك منذ سنوات، ودون أن أدرك ذلك، حيث كنت ألوّح في أسفل هذا المبنى المعدي، الذي حرمني تدريجياً من كل شيء. هذه المرة، كنت أنا والسيد في حوض السباحة نفسه الذي حظره عليّ، على قدم المساواة، ذئب مقابل ذئب، مع كمية مناسبة من الهواء في صدره للحفاظ على الحياة لبضع ثوان أخرى، تلك اللحظات الثمينة التي ينتظرها المرء، ويخافها طوال حياته، ومع ذلك هذه اللحظات الأخيرة المخيبة للآمال للغاية، لا تنفتح أبداً إلاّ على وجهات النظر المخادعة لـ «نظرية هورتون» لأنه، بعد الوقت غير المتناهي من الغرق، لا شيء، لا شيء على الإطلاق أبداً، يبدأ مرة أخرى.

قفزت من فوقي أجساد، وألقت نفسها في الماء، وأمسكت بذراعيّ، وتأكدت من حيازتها لجسدي، فأبعدتني عن سيدويك، قبل أن تطرحني أرضاً. ثم كافحت مثل حيوان محاصر، يصرخ من ألمه، وهو في حالة من الغضب ثم، وفي لحظة، خيم الظلام بشكل كلي.

استعدت وعيي في اليوم التالي في غرفة الطوارئ المخصصة للمرضى تحت مسؤولية الدرك. جاء طبيب للتحقق من حالتي الصحية، وبعد ذلك بقليل أبلغني محقق بحالة سيدويك. كسر في الذراعين، كسر في الإصبع، عضة مع تمزق الجلد على الكتف، كدمات متعددة في الصدر، إصابات متعددة في الوجه تتطلب 21 غرزة. «سيقرر القاضي، في ضوء الشهادات، فضلاً عن هذا العنف، يمكن اتهامك بمحاولة القتل عن طريق الإغراق. بمجرد أن تشفى ستنقل إلى سجن بوردو».

كنا في منتصف سبتمبر – أيلول. أبقتني مراقبة صدمة الرأس والجراحة في منطقة أسفل ظهري، ثم تحت المشاهدة، في هذه الزاوية المخصصة من المستشفى، طريح الفراش حتى نهاية أكتوبر – تشرين الأول.

بعد أن علم ريد، عاد من بوسطن فوراً بعد انتهاء المعركة لرعاية نوك، التي كانت محبوسة في شقتي بعد الحادث. وقد زارني عدة مرات.

في صباح يوم الرابع من نوفمبر – تشرين الثاني، عُرضت على القاضي لوريميه. «بالنسبة للعنف والضرب والإصابات، أعتقد أنه لا فائدة من إضاعة الوقت. من ناحية أخرى، أود أن أسألك عن استمرار أنشطتك العدوانية تحت الماء، بما أن مشاجرتك، وهو أمر نادر جداً، انتهت في قاع حوض السباحة، وأن الأمر تطلب ما لا يقل عن ستة أشخاص، ليجعلوك تفلت قبضتك. خلال هذا التبادل الأخير للضربات، حيث كنتما أنت وشريكك تحت الماء، في حالة انقطاع النفس، هل كنت تنوي حقاً إغراق السيد سيدويك أم أن هذه المشاجرة الأخيرة لم تكن سوى مجرد مطاردة، دعنا نقول تحت الماء، وما سبقها هل كانت تجري على الأرض اليابسة؟». أجبت عن أسئلته الغريبة التي لم يكن بوسعي الإجابة عنها، بأنني لم أعد أتذكر الكثير، وأنني كنت غير قادر على الحكم على نواياي الحقيقية، لأنني لم أستطع حتى إعادة بناء الحقائق. «ستة أشخاص. ستة أشخاص لإبعادك عن السيد سيدويك. ستة. ووفقاً لشهادتهم. كان عليهم أن يقاتلوا. والعضة: 6 سم × 5 سم من اللحم الممزق. هل تدرك ذلك؟ أرى ملفك، وسجلك الإجرامي النظيف، مسار مهني لا تشوبه شائبة، عائلة محترمة، أب قس في ثيتفورد ماينز، وأرى أيضا أنه فضلاً عن جنسيتك الفرنسية، أصبحت كندياً. ما الذي دار في عقلك؟ أنت لا تريد أن تشرح نزاعك مع صاحب العمل للشرطة. هل تريد أن تخبرني أكثر؟».

هناك بعض الأمور التي من الأفضل أن يحتفظ بها المرء لنفسه. أو مشاركتها مع زوجته وأبيه وكلبته. الذين كانوا يعرفون القصة منذ بدايتها، ودفنوا في مكان ما في رمال سكاجين، وعلى أي حال، لن يكون بوسعهم أن يحكموا بأي شيء.

على الرغم من أخطاء ومقاربات وكيلي المحامي، الذي كان يترنح تحت

تأثير عقار البروزاك - المضاد للاكتئاب - لم يكن لوريمييه يعارضني في محاولة القتل، فحكم عليّ بالسجن مدة عامين. وفي ذات المساء، عندما رفع باراك أوباما ذراعيه، كنت أدخل زنزانتي في سجن بوردو مطأطأ الرأس.

ذات مساء قبل عام، استدعاني سوفاج إلى مكتبه. لقد اتصل السيد ريد للتو، ليخبرني بوفاة نوك. بسبب مرض الكبد الرهيب، الذي نسي اسمه.

هذه المرة لم يبق لي شيء، لم تعد لدي عائلة، ولم أعد أمتلك الحرية، ولم تعد لدي كلبة. فأجهشت بالبكاء أمام هذا الرجل الذي كان يحب الدراجات النارية. لقد حدث كل شيء بمعزل وبعيداً عني، ولاسيما أنني لم أكن هناك، وفي النهاية، في تلك اللحظة عندما كنت أعرف أنه لا بد أنّها قد بحثت عن جنبي، لتدفن خطمها فيه.

سألت سوفاج إن كان بإمكاني حضور حرق جثة كلبتي.

فأجابني: كلا.

سألت سوفاج إن كان بإمكاني الاحتفاظ برمادها في زنزانتي.

فأجابني: كلا.

سألت سوفاج إن كان بإمكاني أن أتوجه بالطلب من ريد أن يحتفظ به.
فأجابني: «لك ذلك».

عندما عدت إلى زنزانتي، أيقظ موت نوك في داخلي ذكرى جميع حالات الاختفاء التي حددت مسار سنواتي الأخيرة. ومزقت قلبي فكرة ترك كلبتي تموت وحدها، وانتزعت مني كل حشمتي، فانفجرت بالبكاء مرة أخرى أمام باتريك هورتون. في بادئ الأمر أثرت اهتمامه، وهو يميل رأسه يميناً وشمالاً، اقترب مني ببطء، وتفحصني بنظرة قلقة، ومد إليّ ذراعيه بشكل محرج، مثل شخص لا يعرف تماماً كيف يتصرف لتهدئة رضيع يبكي.

***

«تباً، هذا سيجعلني مضحكاً. آمَلُ ألّا يتخذوا مني الكاهن الذي كان يلتقط الصبية الصغار ليحل محلك. بل، الرجل الذي تحدثنا عنه في ذلك اليوم، ذلك الأسقف الذي كان يتسوق في مخيمات أبرشيته الصيفية. يبلغ طوله 12 متراً، ولديه فم مائل الجانب، ألا ترى؟ أنت تدرك أنك ستحصل

على إطلاق سراحك المشروط، عندما لم ترغب حتى في التحدث عن قصتك مع المقيّم، مما يؤكد أن هؤلاء الرجال حمقى، عديمو الفائدة. أنت حكيم، يا صديقي، أقول لك، سأشتاق إليك. وقد وعدت بتزويدك بالأخبار، لا تنس. فضلاً عن ذلك، إذا كان لديك أية نصائح فيما يخص قصة إقراري بالذنب، فأنت تتذكر خدعتي، فلا تتردد، الق إليّ بالحيلة. من الأفضل أن تذهب مباشرة الآن، وإلا فسوف يعيدونك إلى الكوندو مباشرة، وتعرف ذلك. أنت تنسى الرجل الذي قص جناحيك وتمضي في أعقابه. أنا أعرف التالي. أعلم ما الذي ستفعله أولاً عندما تخرج من هنا. هل تريدني أن أخبرك؟ تسعة من أصل عشرة من الرجال الذين يغادرون من هنا، بعد ساعة، تجدهم جميعاً على جانب شارع سانت كاثرين أو نحو قرية هوتشيلاغا، يمارسون الاستمناء. لكن أنت، الشيء الوحيد الذي يدور في ذهنك الآن هو أن تمضي وتحصل على رماد كلبتك. أليس صحيحاً؟».

كان كيران ريد، المتوقف في شارع غوين، قريباً جداً من النهر، ليس بعيداً عن القاعدة المائية، ينتظرني جالساً على حافة جناح سيارته. عندما رآني تقدم إليّ وعانقني. كنت أحمل في يدي حقيبة قماش تحتوي على كل ما كنت أملكه. لقد أفرغت شقتي بالكامل، وقام مستخدم تصفية مسؤول عن التنظيف، بتهوية أثاثي يميناً وشمالاً.

«عليك أن تذهب إلى المنزل بعض الوقت، يا بول. الشقة كبيرة بما يكفي، وكل شيء جاهز للترحيب بك».

لم تكن المسافة إلى مبنى الإكسلسيور طويلة جداً. إنها مسألة بضع دقائق لا أكثر. كان شهر يوليو - تموز قد بدأ، وكان الطقس رائعاً. استغرق الأمر مني بضع لحظات قبل أن أتمكن من الخروج من السيارة، وامتلاك الشجاعة، وعبور مرآبي، والصعود بالمصاعد، وتسلق الأرضيات في صمت الكابلات، ومواجهة رائحة الممرات الشديدة، واكتشاف الإهمال الذي طال الحديقة، وتأمل عيوب المسبح الصغيرة.

في غضون عامين، تغيرت الكثير من الأشياء الصغيرة. لم أعد إلى منزلي. فالمبنى نفسه لم يتعرف علي.

لقد وُضع رماد نوك على رف في المكتبة في غرفة، كان كيران قد خصصها لي. لم يشغل مساحة كبيرة. سألت ريد إن كان هو بنفسه قد حضر عملية الحرق. «من البداية إلى النهاية. يمكنك أن تطمئن. إنها نوك، وكلها موجودة». عندما خرج من الغرفة، كانت حركتي الأولى هي تناول الجرة بين يدي وشدها إلى جانبي.

في ذلك المساء، أخذني ريد لتناول العشاء في مطعم جديد، اكتشفه في شارع فان هورن. حدثني عن مرض كلبتي، وأوضح لي أنه بقي معها حتى آخر لحظة، ثم تحدث فيما يتعلق بالمبنى، وزيادة الرسوم، والحروب الداخلية، وأوجه قصور بديلي، وهالة إدوارد سيدويك الهابطة. «لدي سؤال أريد أن أطرحه عليك يا بول، سؤال يدور في رأسي منذ مغادرتك. كما تعلم، في مهنتي، صادفت الكثير من الأشياء الغريبة. لكن هذه هي المرة الأولى حقاً، التي يمكنني أن أؤكد لك فيها أنني رأيت شخصاً قادراً على كسر ذراعي خصمه في الوقت ذاته بضربة واحدة، إضافة إلى كسرين حقيقيين. كيف استطعت القيام بهذا الدور الساحر؟» لم أطرح على نفسي هذا السؤال من قبل. ولست قادراً على إجابة مضيفي بأدنى كلمة. من ناحية أخرى، في طريق عودتي إلى المبنى، لاحظت أن كيران كان أكثر اهتماماً بكسر هذه الأطراف، على وجه العموم، من حقيقة أنني مزقت بأسناني قطعة لحم من كتف إدوارد سيدويك.

***

تحدثنا عن المبنى طوال اليوم التالي. والأيام التي تلت. كان يعتقد أن ذلك ينطوي على خطورة لا طائل منها. أما أنا فكنت أعد ذلك عملاً مؤسساً لإعادة اندماجي. ولأنني لم أعد بواباً للمؤسسة، ومستفيداً من وضعي، بوصفي ضيفاً جديداً يسمح لي بذلك، أردت، وبموافقة كيران بالطبع، القيام بدورتين أو ثلاث دورات سباحة في حوض الاستحمام تحت نظر سيدويك، والحصول على لحظة تحت أشعة الشمس على أحد كراسي الاستراحة، ثم أرتدي رداء الحمام، وأصعد إلى طوابق المبنى، وجبهتي مستقيمة، وعقلي نظيف، فأتخلص من كل ليالي الغضب والكراهية التي تسببت في غضبه.

لقد كان يوماً مثالياً. عصر يوم حارق مع درجة من الرطوبة العالية، الوقت الذي كانت تأتي فيه الدبابير لتشرب، ويأتي فيه الملّاكون ليجددوا أفكارهم السيئة، وهم يبحثون عن أسباب لإفراز أفكار جديدة. الوقت الذي كان يختبئ فيه شيطان محتمل وراء كل سروال داخلي للسباحة. ساعة كانت ممنوعة بالنسبة لي مثل كل الآخرين للسبب نفسه. لماذا؟ لأن الوقت الذي كانت فيه كريمات الحماية لها ردود أفعال طبقية، وفيه يشعر شاربو المارتيني بنهاية اللعبة، وفيه كان كبار السن يتمسكون بحياتهم العائمة.

وصلنا جنباً إلى جنب عبر باب القاعة الكبيرة. كان من المستحيل عدم رؤيتنا. فقد كنا اثنين، يرتديان أثواب الحمام البيضاء الجذابة. مضى ريد، الذي أعطيته سترتي القصيرة، وجلس على كرسي طويل. مررت إلى جانب حوض القدم، وبأناة، ودرْجة بعد درْجة أدخلت قدميّ في الماء. وقبل أن تختفيا تحت السطح، نظرت إلى هذا العالم المثالي من حولي الذي كان يحيط بي، وخطوط المالكين المنتظمة أفقياً. والمنسقة وفق الحجم أو الأهمية. كل الذين استبعدوني كانوا هنا، يدهنون أنفسهم بالزيت، ويتحولون إلى اللون الوردي، مثل اللحوم القديمة. كنت أراهم، من حيث كنت، جميعاً كانوا يبدون تافهين.

كان سيدويك في مكتبه، في المركز، في الوسط، في قلب إمارته. كان القنصل ذا وجه شمعي وندبة بشعة على كتفه. بدا لي صغيراً جداً، و «ذا حجم لا أهمية له البتة» كما كان يقول يوهانس. لم يتحدث أحد. كانت كل الأنظار تحدق بي، وكأنني أصبحت جنساً قادماً من الشمال المغناطيسي، وكأن محور العالم قد تغير فجأة. كنت أستمع للحظة إلى الكمال الذي يكفله هذا الصمت، قبل أن أتوغل نحو قاع المياه. فكنت أغطس منقطع النفس لأطول فترة ممكنة، حتى ظن جميعهم أنهم لم يروا سوى شبحي، وقد غيبه المسبح الذي أذابه في أملاحه، قبل طرده عبر شبكة الأنابيب. وعندما كانت رئتاي على وشك الانفجار، خرجت من الماء مثل حوت يتزود بالهواء، وقبل أن أغوص ثانية في الهاوية، حلقت ذقني في الهواء الطلق لأشعر بالماء يلامس وجهي. وما أن كاد يلامسني، حتى تغير قوامه، لكنه كان مستمراً بتأثيره، يغسل روحي، ويرشح الشوائب. وهكذا اختفيت ثلاث مرات، أربع

مرات، قبل الظهور مرة أخرى. وفي لحظة الانصراف من المشهد، كنت أنظر عن كثب إلى جميع هؤلاء الممثلين البائسين، الذين كانوا يحاولون الحفاظ على منزلتهم وتمثيل دورهم قدر الإمكان. كنت أقترب من الحافة، فاتكأت على الحاجز، وكنت بينما أطفو بين مائين، في موضع يحسد عليه رام منبطح، كنت أحدق بثبات بإدوارد سيدويك. مثلما يفحص المرء حيواناً ميتاً. لا بد أن هذا العلاج في مراقبته الصامتة قد يستمر قروناً على ما يبدو، لكنه لم يتراجع، وهو يقدم لي بكل بساطة مشهد كبريائه المهشم الممتع، وكتفه المعذب.

عندما شعرت أن قلبي ينبض بسلام، خرجت ببطء من الماء، خطوة خطوة، فرأيت نوك كلبتي، كانت تنتظرني وسط العشب، بأذنيها السعيدتين، وذيلها الذي يهتز فرحاً.

وبينما كنت مستلقياً على كرسي الاستراحة إلى جوار كيران، سمعته يقول: «لقد كان مخيفاً حقاً. بدا وكأنه حوت قاتل، يلعب في حديقة مارينلاند المائية – في شلالات نياغارا –».

بعد لحظات، غادر سيدويك مقعده، وهو يستدير خلفه بدورة كبيرة ليتجنب المرور بنا. قال ريد وهو يراه ينسحب دون تفاخر: «أتعلم يا بول؟ في نهاية العام ترشحت ضده».

حان الوقت لإعادة التكيف مع الحياة على الأرض، وبقيت مدة عشرة أيام في مونتريال. ذهبت إلى متجر شابتر لبيع الكتب، واشتريت ثلاثة كتب هي الدراجة النارية هارلي ديڤيدسون، القصة الكاملة، هارلي ديڤيدسون، الرياضية، وغير دراجتك هارلي، الجزء الأول والجزء الثاني.

لم أكن أعرف عدد السنوات التي سيمضيها باتريك في السجن، ولكن مع هذه الدراسات المتخصصة، كان لديه ما يكفي للهرب من الحكم الصادر بحقه تحت أنوف حراسه. ولم لا، وهي تغري إيمانويل سوفاج. من ناحيتي، كنت سأستغل حريتي وأذهب إلى الدانمارك. إلى متى، لا أعرف، لكن خط رحلتي يقودني مباشرة إلى السماء: مونتريال، جنيف، أوسلو. ثم العبّارة، الطريق، آرهوس، راندرز، ألبورج، وأخيراً أعالي شبه الجزيرة، سكاجين.

لا شك في أن ريد كي يتركني أشعر بلذة عارمة قبل هذه الرحلة الطويلة، كان لطيفاً بما يكفي، فقد ترك لي شقته، وذهب إلى بوسطن. كان يتصل بي كل ليلة، خشية حادث يحدث، جعلني أعده بعدم العودة إلى المسبح في غيابه. لم يعد لدي أي سبب للعودة إليه ثانية. فما كان يجب أن يحدث قد حدث فعلاً.

لم يبق سوى شيء واحد لإنجازه قبل يوم من مغادرتي، استقلت سيارة أجرة إلى إيل نوتردام، وكازينو مونتريال الضخمة التي لم يعرفها يوهانس قط. فقد أتاح «صانع المال» السري، الذي عجل بمآسيه قبل أن يختفي، المجال لآلة الحظ المهيبة، مصنع المصير هذا، الذي كان يعيد تدوير متغيرات القدر طوال أيام الأسبوع، وأربعاً وعشرين ساعة في اليوم، ويقوض أجنحة المصادفة.

تسلقت الدرج الكبير تحت شلال من الضوء. كان لاعبو الليل أو الأبدية، يتنقلون من طاولة إلى أخرى، مدفوعين دون شك بطموحات غير معقولة، كل منهم لديه ثقة في بارقة الأمل هذه التي لم تنطفئ في داخلهم أبداً. كانوا يعتقدون أن ذلك سيحدث يوماً ما، لأنهم انتظروها مدى الحياة، ويعتقدون أنهم يستحقونها. أيجب أن تتحقق؟ يجب أن تتحقق.

كانت نوك، بين يوهانس وينونا، تنتظرني أمام طاولة الروليت. كان الموتى الأحياء الأكثر في العالم. والأكثر ولاءً ومغامرة أيضاً. لقد تحملوا صراعات هورتون الداخلية، وممرات السجن، وبرودة الزنزانات، وبطء الأيام. في هذه الجزيرة، في بيت الهزائم هذا، فاجأوني مرة أخرى. كانوا يعرفون سابقاً أنني سآتي إلى هنا، للانتقام من يوهانس بطريقتي الخاصة، لتسوية حساباته، وتنظيف السجل، وإعادة ترتيب الأرقام.

لقد مكثنا نحن الأربعة وقتاً طويلاً، لنترك الأسطوانة تدور على لوحها الخشبي، ونشاهد الكرة تتدحرج فوق نحاس الدائرة، بينما كان رجال النوايا الحسنة يدفعون قطعهم – على شكل عملة معدنية لتشغيل الأجهزة – كانوا يأملون في الحصول من ذلك من خلال الرهان على أرقام كاملة أو خاسرة، مربعات، ومتقاطعات أو ستة – ستة، أرقام زوجية وأخرى بقيمة الرهان،

فردية وناقصة، حمراء وسوداء. كان سوء الحظ يعرض خياراً كاملاً من المتغيرات والألوان.

كان والدي قد جربها جميعاً، خلطها جميعاً، وعجنها حتى لم يتبق شيء منها، حتى تلك الليلة التي احتضنت فيها امرأة وجهه بين يديها، وقبلته وهمست له: «إن شاء فليباركك الله».

كنت بحالة جيدة. أنظر إلى أسرتي. كان بإمكاني أن أشعر بنبضات قلوبهم وهسيس أنفاسهم. كنت أشعر بالاطمئنان إلى جنبهم. أشعر أنهم ثلاثتهم كانوا حماة حياتي، كل بطريقته الخاصة. وكنت أريد أن يعرفوا إلى أي درجة كنت قد أحببتهم.

عندما قال مدير الطاولة: «ضع رهاناتك»، وضعت 100 دولار على شكل قطع معدنية على اللون الأسود وتركت الغرفة. وبينما كنت أبتعد، سمعت، «تم الرهان»، والإعلان النهائي، «لا مزيد من الرهانات»، كنت أسير بالفعل نحو ضفة النهر، تاركاً موظف نادي القمار، يتعامل مع الباقي.

بالأمس، مع رماد كلبتي، كنت في الوقت المناسب للركوب على متن الطائرة. التوقف في مطار جنيف الدولي. ساعات من انتظار طويلة لتحويل الرحلة.

مطار كوبنهاغن الدولي، ثم القارب، ثم الطريق بين الكثبان الرملية، الذي يصبح ضيقاً حتى طرف شبه الجزيرة.

الهواء النقي، وسطوع الضوء، وتقاسم المياه، وتلاقي البحار. هذه هي سكاجين.

الفندق. النوم الذي ينتظر اللُّورازيبام- المهدئ - الأفكار القذرة التي تنتظر، ثم تأتي، وتذهب في غرفة النوم.

ثم تشرق الشمس، وكما في الصور، تلقي بضوئها برفق على الرجال والقوارب والكثبان والأمواج.

أمشي في الشارع بمحاذاة البحر، ويسمى «Østre Strandvej». «طريق الشاطئ الشرقي». ومن مسافة بعيدة، أستطيع أن أرى المبنى الكبير ذا السقف الأحمر لعائلة هانسن، الذي يطل على بحر البلطيق. والريح تحني الأشجار، وتهيل الرمل الذي يتراكم في أسفل المنازل.

أتنفس هواء بحر هذا البلد الجديد. وهذا كل ما أملك.

بعد قليل، في نهاية هذا الطريق الطويل، سأذهب وأحيي عائلتي، وسأطرق الباب الأمامي، وسيفتح لي أحدهم، وكما علمني والدي، سأقول: «Jeg er Johanes Hansens søn».

«أنا ابن يوهانس هانسن».



المحتويات

عالم دوبوا عالم مأساوي، وعنيف، وحياة غير عادلة (الموت المبكر، والزنزانة بحجم 6م ²، والعزلة) عالم من الفشل والضياع والندم عبر سارد يدعى بول هانسن، الذي يرى أن هناك طرقاً كثيرة لا تُحصى للفشل في الحياة. يعمل كحارس عمارة، ويعيش حياة عادية وهانئة في مونتريال بكندا دون مشكلات، إلى أن يقترف جريمة، ويدخل السجن، ويقتسم الزنزانة مع شخص، يُعد من عتاة المجرمين.

لكن السخرية ليست بعيدة. عندما نكتشف سلسلة هائلة من الشخصيات التي تحيط ببول: والده القس الذي فقد إيمانه، ووالدته البالغة من العمر ثمانية وستين عاماً، والتي تقاتل من أجل عرض فيلم (الحلق العميق) في صالتها السينمائية (بيت الفن)، التي ورثتها عن والديها، وزوجته وينونا التي تحلق بطائرتها. وعلى وجه الخصوص، السجين الفظ هورتون، زميله في الزنزانة، المتهم بالقتل، وهو الرجل ونصف الرجل الذي ينهار بمجرد حلاقة شعره تبدو السخرية أحياناً بمنزلة الترياق لمواجهة قسوة الحياة، فضلاً عن الحنان البشري أيضاً. عمل بول مشرفاً على مبنى كبير، مدة 20 عاماً، كان رجلاً يقوم بكل شيء، كحارس ومسؤول صيانة، وهي وظيفة لا تترك له سوى القليل من الوقت، لكنه مارسها بلطف وباحترام مع الآخرين، وكان مستعداً دائماً لمحبة الناس وأرواحها لا غير، ومساعدة الأرامل والعجائز في محنتهن.

حتى اليوم الذي يتغير فيه كل شيء. يكشف جان بول دوبوا في وقت متأخر من القصة أسباب سجن بول. ومن هنا تتحرك أحداث الرواية في جو حزين جداً، وتسير بشكل تصاعدي في نطاق فلسفي تقريباً. يصبح هذا المبنى الذي عمل فيه بول، كناية عن عالمنا الحالي. ولا يتطلب الأمر الكثير، إذ يكفي وصول مدير متلاعب واستبدادي، حتى تختفي حلاوة العيش في مجتمع منسجم مع نفسه، ويحل محله عالم تعسفي وبيروقراطي وشمولي تقريباً.



لم يكن بول من هذا العالم. ولن يكون. ومن ثم، فإن المؤلف يؤلف صورة جانبية قلمية رائعة تشيد بالطموح للحرية، مما يزيد من رفض الخضوع لأي شيء غير الأخلاق الشخصية المبنية على الإنصاف والعدل.

وبول وحيد ولكنه يستحق ذلك. إنه يجد عزاءً في حوار حيوي جداً، مع أشباح ماضيه التي يستحضرها قدر استطاعته.

هذه الرواية تثير الشعور بالارتياح لتحرير الإنسان من طوفان الوهم.

على الرغم من الحزن والأسى الذي عانت منه شخصياتها، وهي تروي قصة السقوط، لكن ما تشيعه هو الكثير من المواقف النبيلة، والمودة الإنسانية التي تتمتع بها هذه الشخصيات.

9 789933 655037